المُغرِب في تاريخ الأندلس والمَغرِب

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

أستاذ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

2006 -1427

الطبعة الثانية

رقم الإيداع
١٦٤٨٨/٢٠٠٠

الغلاف هدية من الفنان سعيد المسيرى

إهــداء

إلى رءوف عباس حامد

الفــــارس النبيـــــــل

بقية باقية من زمان جميل

فهرس

الباب الثانى

الأندلس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

قبل ثلاث سنوات صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وحظيت بإقبال من جمهرة المثقفين - خاصتهم وعامتهم - أفضى إلى نفادها ، وأهمنا إلى طبعة أخرى جديدة .

والحق إنه ليس ثم تناقض في عصرنا هذا - عصر التخصص - بين أن يكون الكتاب موجهاً إلى خاصة المثقفين ، وموجهاً إلى عامتهم على سواء . وهو ما نحن في حاجة إليه ، بل نحن في مسيس الحاجة إليه ، لأن التخصصات الإنسانية لا ينفصل الواحد منها عن غيره ، من حيث ارتباطها جميعها بموضوع واحد هو الإنسان .

وتحدد عملنا في هذه الطبعة في تصحيح أخطاء ، هي في معظمها طباعية ، وحذف فقرات وجدنا في حذفها فائدة ، وإضافة أخرى وجدنا في إضافتها فائدةً وفائدة . وفي الأحوال كافة ، نتطلع إلى طبعة أخيرة كبيرة ، وفي الوقت نفسه يسيرة، نركز فيها ما وسعنا على الأفكار ، ونختصر ما وسعنا في الوقائع.

نسأله تعالى عونه وتأييده وتوفيقه وتسديده .. هو مولانا ونعم النصير .

الهرم الجيزة في ليلة الإسراء 26 من رجب الفرد 1421

24 من أكتوبر (تشرين الثاني) 2000

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب بداية للمجتهد ، وليس نهاية للمقتصد ، أى إنه بداية لمجتهد لا يدرى أين نهايته ، وبداية لمقتصد يدرى أين نهايته ، ولا يدرى أين تنتهى به نهايته .

والأصل فى هذا الكتاب محاضرات ، ألقيناها على طلابنا فى سنوات خلت ، رأينا من الأوفق أن نعمم نشرها ، لفائدة من اجتهد أو اقتصد .

وهذا كتاب أساس ، والحق إن كتاب الأساس ضرورة لا منزع عنها ولا مهرب منها ، فى زمان يشهد دفقا معرفيا ، لا تلوح له بادرة من آخرة .

وقد شاهدنا كتبا أخرى من كتب الأساس ، تغص بأخطاء علمية ونواقص منهجية ، وإسهاب ليست له أسباب . وبعضها وضع لطالب المرحلة الجامعية الأولى ، وبعض بعضها لا يجاوز كونه أطروحة جامعية فى جزء من جزيئات ، أضاف صاحبها إضافات ، لا تشفى غليلا ولا تعفى عليلا ، وينتهى بالطالب إلى قريب مما بدأ .

وهذا الكتاب إلى كونه كتاب أساس ، هو كتاب فى التاريخ العام ، ولدينا ثلاثة مناهج فى هذا الباب : التاريخ - الوقائع ، والتاريخ - الأفكار ، والتاريخ - الوقائع والأفكار .

المنهج الأول منهج إبتدائى ، يعنى بالوقائع صغيرها وكبيرها وتحقيقها . وآفته أنه يستدعى الذاكرة ، ثم لا يستدعى ما وراءها بالضرورة .

المنهج الآخر منهج ارتقائى ، يعنى بالأفكار المستخرجة من الوقائع ، ويسعى إلى فلسفة عامة تحكمها . وآفته أنه يفضى فى الغالب إلى أحكام قطعية (دوجما) لم يعد لها فى زماننا مكان .

المنهج الأخير يجمع بين المنهجين ، ويصيبه - ربما - ما يصيب المنهجين .

لدينا فيما يختص بالمنهج الأول تاريخ المغرب العربى ، لسعد زغلول عبد الحميد ، وفيما يختص بالمنهج الآخر مجمل تاريخ المغرب ، لعبد الله العرَوى ، وفيما يختص بالمنهج الأخير معالم تاريخ المغرب والأندلس وتاريخ المغرب وحضارته ، لحسين مؤنس .

بين هذه الكتب (وغيرها) فإن كتاب العروى نسيج وحده أو هو نمط يحتذى ، وزخم فكرى له مجاله ورجاله ، يختص بالخاصة ، ولا يختص بمن دونهم مثقفين وأوساط مثقفين .

أما عن كتاب سعد زغلول عبد الحميد ، فهو حافل بحشد هائل من وقائع أحسن المؤلف تحقيقها ، ولم يحسن الإفادة - نحسب - من تحقيقها .

أما عن كتابى مؤنس - وهو كبيرنا - فهما - نذهب - مسودتان لكتابين ، لا يرتفعان إلى قامة كتب أخرى له ، أفاد فيها وأجاد وقارب المراد .

ومع انحيازنا إلى العروى - وقد أفدنا منه فائدة جمة - إلا أننا عدلنا عن منهجه (التاريخ - الأفكار) إلى منهج التاريخ الوقائع والأفكار .

وهذا ليس حلا وسطا ، إنما هو حل لوسط صار يعنى بالوقائع، من حيث إطارها العام ، ويعنى بالأفكار ، من غير أن يذهب إلى فكريات ، عصفت بها فى زماننا هزات وهزات .

وها نحن أولاء نتقدم بهذا الكتاب ، والعهد فيه عهدنا فى غير كتاب ، عانينا فيه ما عانينا ، وعاينا ما عاينا ، وبذلنا ما وسعنا من جهد ، والله من وراء القصد .

الهرم - الجيزة فى الثانى عشر من ربيع الآخر 1418

السادس عشر من أغسطس (آب) 1997

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

الباب الأول

المغرب

تمهيد

بلاد المغرب تعبير فضفاض ، يعنى عند العرب أقصى حدود المعمورة غرباً ، بعدها تسقط الشمس فى بحر الظلمات . أما فى العصور القديمة فقد أطلق اليونان وتبعهم الرومان على الإقليم الذى تشغله الجمهورية التونسية الحالية تعبير أفريكا Africa ، وكان هذا التعبير يتسع أحياناً ، فيعنى كل ما وقع تحت السيطرة الرومانية (ثم البيزنطية) من بلاد إفريقية الشمالية .

حين وفد العرب إلى بلاد المغرب ، فهموا هذا المصطلح (إفريقيّة) بمعناه الضيق أى أقليم تونس ، وأحياناً بمعناه الواسع ، فيشمل إلى جانب هذا الإقليم إقليم طرابلس (فى الجمهورية الليبية الحالية) وإقليم الزاب (فى الجمهورية الجزائرية الحالية) .

ومن اليسير تحديد المغرب الكبير شمالاً ببحر الروم ، وغرباً ببحر الظلمات ، على أن تحديده شرقًا غير واضح ، فكان يضم أحياناً إقليم برقة ، وفى أحيان أخرى كان يضم هذا الإقليم إلى مصر . أما تحديده جنوباً فأمر غاية فى الصعوبة، لأن الصحراء الكبرى كما تمتد داخل المغرب ، تمتد أيضًا خارج المغرب ، ولا توجد علامات طبيعية واضحة داخلها ، ثم إن البربر ـ وهم سكان المغرب الأصليون ـ يوجد بعضهم فى الأقطار الإفريقية المجاورة .

ويمكننا على نحو عام ـ وإن كان غير دقيق تمامًا ـ أن نحدد المغرب كما عرف عند العرب فى العصور الإسلامية الأولى ، بأنه يضم أقطار المغرب الكبير الحالية وهى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب (بما فيها الصحراء المتنازع عليها) وموريتانيا .

إذا شئنا أن نستخدم مصطلح العصر ، فقد قسم العرب المغرب الكبير إلى ثلاثة أقسام ؛ هى إفريقية (أو المغرب الأدنى) ويضم أقاليم طرابلس وإفريقية

والزاب ، والمغرب الأوسط ويضم إقليمى تاهرْت وتلمسان (وهران) والمغرب الأقصى ويضم ما سوى ذلك غرباً وجنوباً بغرب حتى البحر المحيط .

بلاد المغرب فى معظمها هضبة كبيرة ، تخترقها من الجنوب الغربى جبال الأطلس التى تتجه شرقًا وشمالاً إلى شطر إقليم إفريقية (تونس) وتعرف السلسلة الشمالية من هذه الجبال بأطلس التل ، كما تعرف السلسلة الجنوبية منها بأطلس الكبرى ، ويطلق على ما يقع منها فى المغرب الأقصى جبال دَرَن ، ويطلق على ما يقع منها فى المغرب الأوسط جبال أوْراس .

تقترب جبال الأطلس من الساحل أو تبتعد عنه ، لتترك سهولاً تتفاوت فى اتساعها ، وتتخللها بحيرات ملحة أو عذبة تعرف بالشطوط ، كما تتخللها أنهار صغيرة ونهيرات بخاصة فى جهاتها الغربية .

يلى الجبال جنوباً نطاق شبه صحراوى ، توجد به واحات أو تصيبه بعض مياه الأمطار ، فتحمل أوديته شتاءً وتجف صيفًا ، وتكثر به أشجار النخيل ، وينتهى هذا النطاق بالعروق وهى صحراء رملية والحَمّادات وهى صحراء صخرية .

الطبيعة الجبلية لبلاد المغرب وامتدادها الشاسع ، تركت أثرها الفاعل فى تاريخ هذه البلاد وحضارتها ، ففرضت عليها قدراً من الإنعزالية فى الخارج ، وقدراً آخر من الانفصالية فى الداخل ، وكرست فى أهلها ميولاً واضحةً نحو الخشونة والمثابرة والعناد ، وتوزعوا فى معاشهم بين الزراعة والراعى .

كان سكان المغرب قبل الفتح الإسلامى من الروم والأفارقة واليهود والبربر . والروم هم بقايا الأجناد (البيزنطية) التى استوطن بعضها فى قرطاجنة وغيرها من المواقع العسكرية والحضرية الهامة .

أما الأفارقة فهم سكان الأقاليم الساحلية المحيطة بالمنطقة الأولى فى إفريقية ، وهم خليط من شعوب سبقت الوجود الرومانى وعاصرته من

القرطاجيين القدماء (قوم حنيبعل) واليونانيين ، ومن تأثر بهؤلاء وأولئك من البربر .

أما اليهود فليست لدينا معلومات وافرة عنهم ، وربما توافد بعضهم مع الفينيقيين ، ثم انتشرت ديانتهم بين قبائل بربرية فى المغرب الأقصى وبعض المغرب الأوسط .

أما البربر فهم غالب السكان ، ولفظة بربر – فى أصلها – لفظة يونانية Barbaroi (ثم لاتينية Barbari) وتعنى أجانب أو همج ، وإذا كان العرب قد أطلقوا على غيرهم من الشعوب تعبير عجم (أو أعاجم) ثم اختصوا بهذا التعبير سكان الهضبة الإيرانية ، فإن اليونان (وبعدهم الرومان) أطلقوا على غيرهم من الشعوب تعبير بربر ، ثم اختصوا بهذا التعبير سكان الهضبة المغربية .

على أن البربر يطلقون على أنفسهم تعبير أمازيغ (وتعنى الأحرار) ولغتهم الأمازيغية ، وينفرون من تعبير بربر .

والبربر شعب لا يعرف على نحو دقيق إلى أية عائلة بشرية ينتمى ، ولا يوجد اتفاق بين العلماء فى هذا الشأن ، وربما كان فى تقسيمهم إلى شعبين – كما يأتى بعد – ما يشى بأصول متعددة لهم ، خصوصًا وأنه رافق هذا التقسيم تباين فى أنماط الحياة وفى الحضارة .

وإذا كان ثم اتجاه قوى بين العلماء إلى ضم البربر إلى مجموعة الشعوب الحامية ، بحكم التشابه الواقع بين اللغة (أو اللغات) البربرية وبين لغات أخرى حامية ، إلا أن هؤلاء البربر يختلفون عن سائر الحاميين ، بحكم موقع بلادهم فى شمالى إفريقية ، فداخلتهم دماء أوربية فى فترة سحيقة ، وداخلتهم أيضًا مع شعب الفندال Vandali الذى توافد فى القرن الخامس الميلادى وأسس مملكةً قضى عليها فيما بعد الإمبراطور جستنيان Justinianus (٥٢٧ – ٥٦٥) .

ينقسم البربر إلى شعبين كبيرين ، شعب تغلب عليه الحضارة وهم البرانس، وشعب تغلب عليه البداوة وهم البُتْر ، وهذا التقسيم شبيه بتقسيم العرب إلى يمانية وقيسية ، فقد غلبت الحضارة على اليمانية ، وغلبت البداوة على القيسية. ويذهب بعض النسابة العرب إلى إلحاق البربر - بتراً وبرانس - بهم ، واصطنعوا لذلك سلاسل نسب ، لا نجد لها أصلاً تاريخياً يدعمها .

ومثلما دبت العصبية ، وما تبعها من حروب بين القبائل العربية ، فقد حدث الأمر نفسه بين القبائل البربرية ، وأشهر قبائل البرانس صنهاجة وكُتامة ومصمودة ، وأشهر قبائل البتر زَناتة ولَواتة ونفوسة ، وهناك قبائل توزعت بين الشعبين أخصُّها هوَّارة .

دخلت إفريقية فى ملك جُستنيان على يدى قائده بليزاريوس Belesarius وعانت البلاد من سوء الإدارة البيزنطية ، خصوصاً بعد انقضاء عهد هذا الإمبراطور ، وجرى تعسف فى جباية الأموال ، وفى إرسال شحنات الغلال اللازمة لغذاء العاصمة القسطنطينية .

ومع أن النصرانية دخلت إلى البلاد فى فترة باكرة تعود إلى القرن الثانى ، وظهر بين رجالها القديس أوغسطين Augustinus صاحب كتاب مدينة الله De Civitate Dei إلا أن انتشار هذا الديانة كان محدوداً بين البربر كما إنها تعرضت لانقسامات خطيرة ، وأصاب الفساد بعض رجالها .

فى أوائل القرن السابع حكم إفريقية ولاة من أسرة هِرَقْل Heraclius (٦١٠ - ٦٤١) استطاع أحدهم وهو جريجوريوس Gregorius أن يحقق استقلاله بهذه الولاية ، وحتى يأمن شرقومه الروم ، ترك قَرطاجَنَّة - وهى العاصمة - وجعل معقله فى سُبَيْطِلَة Sufetula فى الداخل ، وهى قريبة من موضع القيروان الحالية .

الفصل الأول
فتوح المغرب

تتسم فتوح المغرب بسمة أساسية ، هى إنها استغرقت سنوات طويلة ، وهو ما لم نعهده فى أقطار أخرى منها مصر ، والسبب ـ نذهب ـ هو اتساع هذه البلاد الشاسع ، وطبيعتها الجغرافية الوعرة ، وكون أهلها فى شطرهم بدواً أو أشباه بدو ، ولا يخفى إن العرب ـ دون غيرهم من الغزاة ـ سعوا إلى تعميم طاعتهم فى هذه البلاد كافة ، ولم يقتصروا على الساحل أو ولاية إفريقية ، كما كان عهد الرومان .

١ ـ الغزوات :

بعد أن انتهى عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية فى سنة ٦٤٢/٢١ توجه بناظريه غرباً ، وكان يدفعه إلى هذا التوجه رغبته فى أن يؤمن الوجود العربى فى مصر ، ولا شك أن عمراً ـ وهو الخبير بهذه البلاد منذ الجاهلية ـ كان يدرك أن برقة كانت جزءاً من مصر لفترات طويلة من تاريخها .

فى سنة ٢٢هـ/٦٤٣م سار عمرو إلى بَرقة وافتتح مدينتها (التى تحمل اسم نفسه) صلحًا ، على أن يؤدى أهلها وكانوا من لواتة جزيةً قدرها ـ حسب بعض الروايات ـ ثلاثة عشر ألف دينار ،وجدير بالذكر أن كان من جملة رجال عمرو فى هذه الغزوة نافع بن عبد القيس الفهرى وولده الشاب عقبة الذى سوف يلمع اسمه فيما بعد .

فى هذه السنة أو فى السنة التالية ٢٣هـ/٦٤٤م ، سار عمرو على طول الساحل إلى طَرَابُلُس وافتتح مدينتها (التى تحمل الاسم نفسه) عنوةً ، وانتهى إلى صَبْرَة (أو صبراتة) ، وبعث بقوة من جنده إلى فَزَّان فى الجنوب ، وكان

يقود هؤلاء نافع بن عبد القيس فوصل إلى زَويلة .

على أن سيطرة العرب على طرابلس لم تستقر طويلاً ، فقد خرجت عن طاعتهم بعد قليل ، وأرسل الروم مراكبهم ليمنعوها من العرب ، فاقتصر هؤلاء على برقة .

في سنة ٢٥هـ/٦٤٦م ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فبعث إلى عثمان رضي الله عنه (٦٤٤/٢٤ ـ ٦٥٦/٣٥) يستأذنه في غزو إفريقية ، وكان ابن أبي سرح قد سمع عن غناها بالقمح والزيتون والزيت ، فأذن له عثمان ، وأرسل إليه مدداً من المدينة ، فيهم عدد من كبار الصحابة وأبنائهم ، وبخاصة من يدعون بالعبادلة ، وقد عني عثمان بهذه الحملة عنايةً خاصةً وزودها بألف بعير من ماله .

اجتمع لدى والي مصر عشرون ألفًا من أجنادها ومن المجاهدين الوافدين ، وانضم إليهم عدد من القبط والبربر .

في سنة ٦٤٧/٢٧ ـ ٦٤٨ توجه ابن أبي سرح غربًا إلى برقة ، فلقيه عقبة بن نافع ومن معه من المسلمين ، وسار الجميع إلى طرابلس ، لكن أهلها امتنعوا داخلها ، مما جعل المسلمون يعدلون عنها ، حتى لا يتأخروا عن لقاء عدوهم الأساس جريجوريوس حاكم إفريقية ودعوه جُرْجير ، وكان قد هيأ لهم جيشًا يفوق جيشهم عدداً من الروم والبربر .

إلتقى المسلمون والروم في أوائل سنة ٦٤٨/٢٨ على مقربة من سبيطلة، حيث دارت رحى معركة شديدة ، صعب معها أن يحرز أحد الفريقين نصراً حاسمًا ، على أنها أفضت في النهاية عن رجحان كفة المسلمين ، وقام عبد الله بن الزبير بدور كبير في تحقيق النصر ، ويقال إن جرجير قتل على يديه، ثم تقدم العرب إلى سبيطلة فاستولوا عليها .

ترتب على واقعة سبيطلة أن وقعت فى أيدى العرب غنائم وافرة ، والأهم أن هذه الواقعة كالت ضربة شديدة للروم ، وإن لم تنه وجودهم من البلاد ، وما تزال لديهم سلسلة من الحصون ممتدة بطول الساحل ، تصل إليها الأمداد من قواعد بحرية فى جزيرة صقلية .

لم يتيسر للعرب متابعة غاراتهم ، لأن الفتنة الأولى بدأت واستمرت سنوات كما إن عمرو بن العاص الذى عاد إلى ولايته مصر فى سنة ٣٨هـ / ٦٥٨م صار شيخاً كبيراً لا طاقة له بحملة جديدة .

كان لهذا أثره على الوجود العربى فى إفريقية ، إذ صار هذا الوجود قلقاً ، وإن استقر بعض العرب مجاهدين فى إقليم فزان بالجنوب ، كما إن أعداداً كبيرة من البربر بدأت فى الدخول فى الإسلام .

فى سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م - وقد هدأت الفتنة - سار معاوية بن حُدَيّج السّكونى من مصر ومعه عشرة آلاف ، واتخذ طريق الساحل إلى قمونية على مقربة من سبيطلة ، والتقى بجيش للروم ، انسحب بعد معركة قصيرة ، ثم تقدم شمالاً ، لكنه عدل عن قرطاجنة - حيث يتكثف وجود الروم - إلى بنْزَرْت ، وأرسل قطيعاً من جيشه بقيادة عبد الله بن الزبير ، فاستولى على سوسة ، وأرسل قطيعاً آخر بقيادة عبد الملك بن مروان ، فاستولى على حصن جلولاء .

كانت حملة معاوية بن حديج أشبه بحملة تأديبية ، بعد غياب دام عدة سنوات ، ويبدو أن طرابلس وغيرها من المواقع عادت إلى سيطرة العرب ، فلا يذكر أن ابن حديج وجه حملةً إليها .

2 - الفتح المنظم :

تبدأ فتوح المغرب بدايتها الحقيقية مع ولاية عقبة بن نافع الفهرى فى سنة ٥٠/٦٧٠ ، والسبب فى تأخر هذه البداية ـ كما يقرر العَرَوى ـ هو عدم معرفة العرب الدقيقة بأحوال البلاد ، بخلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة لمصر وبلاد الشام ، ولم تتهيأ لهم هذه المعرفة إلا بعد سنوات طويلة ، وبفضل رجال لهم خبرة طويلة مثل عقبة .

ارتبط عقبة منذ شبابه الباكر ببلاد المغرب ، فقد شارك فى حملتى عمرو بن العاص إليها ، واستقر فى فزان ، حيث خالط البربر وتمرس بهم ، ونجح فى أن يستميل بعضهم ،بحيث صاروا مسلمين متحمسين لدينهم ، كما إن هذه السنوات زادت من دوافع التقوى لديه والجهاد والرغبة فى الاستشهاد .

أدرك عقبة أنه لا بد للمسلمين من قاعدة تقع فى إفريقية ، يتوجهون منها فى فتوحهم ، لا أن ينطلقوا من الفسطاط البعيدة عنهم ، كما أدرك أيضًا ضرورة ألا يقتصر المسلمون فى غزواتهم على الساحل ، وإنما عليهم أن يتعمقوا البلادفى الداخل ، خصوصاً وأن الساحل كان عرضةً لهجمات مضادة من الروم .

فى سنة ٥٠/٦٧٠ سار عقبة من سرت فى اتجاه فزان ، ثم انتهى إلى قمونية ، وعلى مقربة منها شرع فى ابتناء مدينة تكون قاعدةً للمسلمين .

أحسن عقبة اختيار موقع مدينته ، لتوسطه بين الساحل والهضبة ، وأحيط انشاؤها بأساطير ليس هنا مجالها ، وبدأ بأن اختط دار الإمارة والمسجد ، ثم ابتنى الناس دوراً مجاورةً وخططاً ، واستغرق ذلك أربع سنوات ، لم ينقطع عقبة خلالها عن الجهاد ، كما إن الدعوة إلى الإسلام بين البربر تدافعت عجلتها .

اختار عقبة لمدينته هذه اسم القَيْرَوان ، وهو فارسى معرب يعنى معسكراً .

ويبدو أن انشاء عقبة للقيروان أثار حسد مسلمة من مخلد الأنصارى والى مصر، فمضى يسعى به عند الخليفة معاوية بن أبى سفيان (٤١/٦٦١ - ٦٠/٦٨٠) ووجدت مساعيه آذانًا صاغيه لديه ، لأن عقبة كان هدفه الأسمى دينيًا وليس سياسيًا ، فقام بغزوات محدودة لم تعد على الدولة بنفع مادى كبير .

عزل عقبة فى سنة ٥٥/٦٧٥ ، وجمعت مصر وإفريقية لمسلمة بن مخلد فجعل على الأخيرة مولى له يدعى أبا المهاجر دينار ، ولدى مقدمه أساء معاملة عقبة ، مما دفعه لأن يشكوه إلى معاوية .

دامت ولاية أبى المهاجر سبع سنوات ٥٥/٦٧٥ - ٦٢/٦٨١ ، ولا يتردد ذكره كثيرًا بين المؤرخين العرب ، وربما يرجع ذلك - يذهب مؤنس (ت١٩٩٦م) - لأن ولايته توسطت ولايتى عقبة الذائع الصيت بين الفاتحين المسلمين .

أدرك البربر خصوصًا من تأثر منهم بالثقافة الرومية واعتنق النصرانية ، أن إنشاء القيروان يعنى بداية حركة جهاد كبيرة للمسلمين ، نتلمس بعض طلائعها فى سنة ٥٩/٦٧٨ ، حين قام أبو المهاجر بغزوة لقرطاجنة ، ثم عدل عنها إلى جزيرة شريك القريبة منها فاستولى عليها .

تصدى لقيادة البربر قبيلة أَوْرَبَة البرنسية فى جبال أوراس ، فهرع أبو المهاجر إليها فى حملة ، أفضت إلى الاستيلاء على تلمسان فى سنة ٦١/٦٨٠ ، وبذا يكون أبو المهاجر أول فاتح مسلم يتطرق بخيله إلى المغرب الأوسط .

كان من نتائج هذه الحملة أن أسر أبو المهاجر زعيم هذه القبيلة ويدعى كُسَيْلَة (أو كَسيلة) ، وأتى به إلى القيروان ، حيث أسلم ، وكان قبل إسلامه نصرانيًا شأنه فى ذلك شأن كثيرين غيره من أبناء قبيلته .

بعد قليل من عودته إلى عاصمته أتى أبا المهاجر كتاب عزله من الخليفة

يزيد بن معاوية (٦٠/٦٨٠ ـ ٦٨٣/٦٤) وتولية عقبة مكانه .

أسرع عقبة بعيد ولايته فى سنة ٦٨١/٦٢ إلى متابعة الفتح غربًا ، لأنه كان يتوق ـ وقد صار شيخًا كبيرًا ـ لأن يضيف إضافةً جديدةً إلى الوجود الإسلامى بالمغرب ، ولم تكن الفرصة قد أتيحت له كاملةً فى ولايته الأولى .

خلف عقبة على القيروان زُهيّر بن قيس البلوى ، وسار ومعه عشرة آلاف من المسلمين إلى بلاد الزاب ، والتقى بالروم عند باغاية وانتصر عليهم ، ثم اقتحم أوراس إلى تاهرت ، وتوجه من هناك إلى طنجة ، حيث التقى ـ فيما يروى ـ بيليان Julianus الذى يرتبط اسمه بفتح الأندلس ، ثم عاد وتوغل فى السوس الأقصى ، وانتهى إلى البحر المحيط غير بعيد عن أغادير ، وخاض بفرسه فى أمواهه ، وقال عبارته الشهيرة : « اللهم ! إنى أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازًا لجزت » .

اتجه عقبة بعد ذلك شمالاً ، وعلى ضفة وادى سوس قرب المحيط ابتنى رباطًا جعل به أحد رجاله يدعى شاكرًا فنسب إليه .

ارتكب عقبة فى هذه الغزوة خطأين كبيرين ؛ أولهما إنه أساء إلى أبى المهاجر وصاحبه كسيلة ، واصطحبهما معه فى غزوته وهما فى الحديد ، فلأبى المهاجر أياد فى فتوح المغرب ، ولم يكن ذنب كسيلة ، أنه أسلم على يديه ، وقد جرت عادة المسلمين فى الصدر الأول على أن يستألفوا حديثى العهد بالإسلام .

الخطأ الآخر الكبير أن عقبة مضى فى فتوحه إلى مدى بعيد ، ولم يثبت أقدام المسلمين على طريق هذه الفتوح ، وأعطى الروم الفرصة ، لأن يقطعوا خطوط أمداده ، ثم إنه فى عودته ، تنكب طريق الساحل ، واصطدم لدى الجبال بقبائل معادية ، وخاصة قبيلة أوربة .

استطاع كسيلة أن يفلت من حبس عقبة ، ولحق بقبيلته أوربة ، ولدى مكان يدعى بتهوذة (أوتهودة) جنوب بِسْكِرَة ، دار القتال بين المسلمين والبربر مؤيدين من الروم ، وكان عقبة فى قليل من رجاله ، فقد سبقه سائرهم إلى القيروان ، ولما أيقن بالموت ، كسر والمسلمون أجفان سيوفهم ، وقاتلوا فقتلوا عن آخرهم فى سنة ٦٨٤/٦٤ .

الجدير بالذكر أن أبا المهاجر كان من جملة هؤلاء المسلمين ، وكان عقبة قد أذن له بعد أن حرره من قيوده بأن يقاتل معه .

عندما وصلت أنباء الهزيمة إلى القيروان ، غادرها حاكمها من قبل عقبة زهير بن قيس البلوى إلى برقة فأقام بها ، واقتحم كسيلة القيروان ، بعد أن أمَّن أهلها ، وبدا كأن بلاد المغرب خرجت عن سيادة العرب والإسلام جملةً .

نسجت حول النهاية المأساوية (لسيدى عقبة) أساطير كثيرة ، على أن موته وإن كان نكسةً للإسلام ، إلا إنها كانت نكسةً مؤقتة ، لأن كثيراً من البربر بخاصة البتر ، كانوا قد أسلموا فى هذا الإبان ، بل أن عدداً منهم أسلم بعد تهوذة ، وتركزت المقاومة فى البرانس المتأثرين بالروم والنصرانية والذين كان منهم كسيلة .

لم يستطع كسيلة أن ينشئ دولة قوية عد دخوله القيروان ، وهو وإن حافظ على إسلامه إلا أن القبائل البربرية المسلمة لم ترض به قائداً لها ، وقد أدرك هو بدوره هذا الواقع ، فلم تمتد يداه بأذى إلى عرب القيروان ، ومن لاذ بهم من البربر .

بيد أن كسيلة وجد عونًا له من الروم الذين حدثت عندهم نهضة على يدى الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ ـ ٦٨٥م) فأخذ فى إمداده وأعوانه بالمال والسلاح .

لدى مقام زهير ببرقة ، بعث يستصرخ الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥/٦٥ ـ ٧٠٥/٨٦) وكان إذ ذاك فى شغل بثورة عبد الله بن الزبير ، ومع ذلك أعانه بالمال والرجال ، وأمره فى سنة ٦٨٨/٦٩ بالمسير إلى إفريقية ، وبعد أن انضم إليه ألفان من البربر المسلمين ، سار زهير إلى أن وصل إلى قمونية .

عندما علم كسيلة بمسير زهير إليه غادر القيروان إلى مَمْس Mamma جنوبها ، وكانت مدينةً مشهورةً بحصانتها ، وتتصل بجبال أوراس ، حيث يوجد قومه وقبيله ، وهناك دارت معركة كبيرة أسفرت عن قتل كسيلة ، وهرب الناجون بعيداً إلى وادى ملوية ، وعاد زهير إلى القيروان .

أخطأ زهير إذ لم يترك فى برقة ولا طرابلس قوةً كافيةً ، ترد عدواناً محتملاً من جهة الروم ، وقد انتهز هؤلاء فرصة شغله بكسيلة ، فأتت مراكبهم إلى برقة فنهبت وسبيت ، ثم إن زهيراً لأسباب لا نفهمها أزمع العودة إلى المشرق ، ولدى برقة ترصد له الروم وقتلوه ومن معه ، فى موضع قريب من دِرْنَة .

لم تتغير الأحوال كثيراً بقتل زهير ، فما تزال إفريقية إسلامية وكذا القيروان، كما إن الروم انسحبوا من برقة إلى قواعدهم فى قرطاجنة وصقلية .

كان عبد الملك بن مروان قد انتهى من فتنة عبد الله بن الزبير ، حين عهد فى سنة ٦٩٢/٧٣ إلى حسان بن النعمان الغسانى بأمر إفريقية ، وسمح له بأن يأخذ ما يكفيه من أموال مصر وأجنادها .

اجتمع لدى حسان أربعون ألفاً من المسلمين ـ عرباً وبربر ـ توجه بهم من سنة ٦٩٣/٧٤ إلى القاعدة الرومية الكبيرة فى قرطاجنة ، فاستولى عليها ، ولاذ من نجا من الروم بصقلية ، ولم يلبث أن علم بخروج الكاهنة .

لا نعرف اسم الكاهنة على نحو دقيق ، غير أنها كانت تنتمى إلى قبيلة جراوة الزناتية ، ويبدو أنها نجحت فى ضم كثير من البربر إليها ، وحين التقى حسان بها على نهر نينى قرب باغاية فى سنة ٧٥/٦٩٤ هزم ، واضطر لأن يرتد إلى طرابلس ، حيث استقر بموضع عرف ـ بعد ـ بقصور حسان ، وانتظر المدد من مصر ، ولم تتعرض الكاهنة للقيروان ، ومضت إلى معقلها بجبال أوراس .

على أن الكاهنة ـ وتنتمى إلى البدو ـ شرعت فى تدمير مظاهر الحضارة من زروع وأشجار ، رغبةً فى عدم إفادة العرب منها ، إذا ما فكروا فى العودة ويبالغ المؤرخ ابن عذارى (ت بعد ٧١٢هـ) فيقول : « إن إفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة ... مسيرة ألفى ميل، فى مثله فخربت الكاهنة ذلك كله » مما أفضى إلى أن نفر البربر الحضريون منها وانصرفوا عنها ومالوا إلى العرب .

ولجوتييه Gautier تفسير ربما بدا مفيداً لثورة الكاهنة مؤداه ، إن البدو من البربر والوا العرب فى بداية فتوحهم لاشتراكهم معهم فى البداوة ،وأسلم قسم كبير منهم ، سيما وإن الحرب هيأت لهم الفرصة للنهب ، أما الحضر من البربر، ويدخل فى جملتهم الأفارقة ، فإنهم وإن واجهوا العرب فى البداية ، إلا أنهم بحكم كونهم بعد كسرهم فى حاجة إلى الاستقرار والأمن ، مالوا إلى مسايرة العرب ومسالمتهم ، مما أدى إلى انحلال التحالف بين العرب والبتر وظهور الكاهنة .

عندما توافت الأمداد إلى حسان عاد إلى إفريقية حول سنة ٨٠/٦٩٩ ، وانضم إليه عدد كبير من البربر المسلمين ، فالتقى بالكاهنة فى مكان بجبال أوراس ـ دعى فيما بعد ببئر الكاهنة ـ فانتصر عليها وقتلها ، وعاد إلى القيروان، وقد قضى على آخر مقاومة بربرية فى المغرب الأوسط .

تفرغ حسان بعد ذلك للروم ، وكانوا قد انتهزوا فرصة شغله بالكاهنة ، فعاودوا الاستيلاء على قرطاجنة ، لكنهم حين علموا باقتراب المسلمين آثروا الهرب إلى صقلية ، فدخل حسان المدينة وخرب ميناءها ، حتى يمنع الروم من استردادها ، ثم عاد إلى القيروان .

بعد أن استكمل حسان فتح المغربين الأدنى والأوسط شرع فى تنظيم البلاد، فقسمها إلى أقاليم ، ورتب شئونها المالية ، وأعاد بناء مسجد القيروان ، واجتهد فى نشر الإسلام بين البربر ، وجند عدداً كبيراً منهم ، حتى صاروا أكثر جيشه .

أراد حسان فى سنة ٧٠٣/٨٤ أن ينشئ مدينة للمسلمين تحل محل قرطاجنة ، فاختار موقعاً مناسبًا إلى الجنوب الغربى منها دعاه بتونس (أوتونِس) ، وجعل بها دار صناعة ومسجداً جامعًا ، وأضحت تونس قاعدة العرب البحرية مثلما أضحت القيروان قاعدتهم البرية .

الجدير بالذكر أن حسانًا استعان فى ابتناء هذه المدينة بنفر من قبط مصر ، استقدمهم وأفاد من خبرتهم ، وتحددهم بعض المصادر بألف أسرة .

بعد سنة أتى إلى حسان كتاب عزله من عبد العزيز بن مروان والى مصر ، وجعل مكانه أحد رجاله هو موسى بن نصير .

ارتبط موسى منذ صباه بخدمة الأسرة الأموية ، وخاصة عبد العزيز بن مروان، وارتبطت ولايته بوعد منه لمولاه بغنائم وافرة وأموال ، ولدينا أخبار عن غزوات له نجدها فى كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قُتَيبة (ت ٢٧٠هـ) ومعظم هذه الأخبار غير صحيحة ، لكنها تعطى مؤشراً على نزوعه إلى طلب الغنائم والأموال وشرهه فيها .

استطاع موسى أن يخضع قبيلتى هوارة وزناتة ، واستولى على سجوما قرب نهر مَلْوِيَة ، وهزم قبيلة صنهاجة ، وانفتح الطريق أمامه إلى طنجة وسبته ، حيث عاود المسلمون الالتقاء بيليان ، وجعل موسى طنجة قاعدة للمغرب الأقصى ، وإلى الجنوب أنشأ ولاية سجلماسة فى إقليم السوس الأقصى .

انتهى فتح بلاد المغرب حوالى سنة ٩٠/٧٠٨ ، وبعد سنتين شرع المسلمون فى فتح بلاد الأندلس .

الفصل الثانى
عصر الولاة

يبدأ هذا العصر بنهاية الفتح العربى لبلاد المغرب فى سنة ٧٠٩/٩٠ ، وينتهى ببداية الدول المستقلة فيه . على أنه إذا كانت بداية هذا العصر واحدةً ، بالنسبة لأقطار المغرب جميعها ، فإن نهايته ليست واحدةً فى هذه الأقطار ، فتختلف من قطر إلى آخر ، فهو ينتهى فى المغرب الأوسط بسنة ٧٧٦/١٦٠ ، وفى المغرب الأقصى بسنة ٧٨٨/١٧٢ ، وفى إفريقية بسنة ٨٠٠/١٨٤ .

والسبب الرئيسى وراء هذا الاختلاف فى نهايات عصر الولاة ، هو امتداد المغرب الكبير امتداداً واسعاً من تخوم مصر إلى البحر المحيط ، فكان من الصعب أن تنتظمه حركة سياسية واحدة ، سواء كانت هذه الحركة دولةً أو ثورة ، ولا يخفى ما سبق ونوهنا إليه ، من طبيعة جغرافية متباينة ، ولا يخفى أيضاً ما كان يضمه من مجموعة بشرية أكثر من متباينة ، وما كان يخضع له من توجهات سياسية وفكرية حاكمة وربما حاسمة .

أ ـ إنتشار الإسلام والتعريب :

تدافعت عجلة الإسلام على نحو واضح منذ البدايات الأولى للفتح ، ويتفق المؤرخون على إنه بولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر دينار فى سنة ٧١٨/١٠٠ ، أضحى الغالبية العظمى من السكان مسلمين . الأمر الذى يدعو إلى الاستغراب ؛ فمصر وهى الدولة المجاورة إلى الشرق لم يصبح الإسلام دين الغالبية العظمى من سكانها إلا فى نهاية العصر الفاطمى ، أى بعد خمسة قرون من الفتح ، ثم شكل الأقباط أقليةً كبيرةً بعد ذلك .

العنصر الرئيسى الذى أعان على انتشار الإسلام فى بلاد المغرب ، وعلى

سرعة انتشاره ، هو إن النصرانية لم تكن عميقة الجذور بين السكان ، ولم تتعد فى معظم الأحوال المناطق الساحلية ، وخاصة فى إفريقية ، حيث العناصر الوافدة من روم وأفارقة ، وكان البربر كثيراً ما ينظرون إليهم على إنهم أجانب ، ثم هى أصيبت بالوهن قبيل مقدم المسلمين ، وتنازعتها فرق شتى ومذاهب ، وأصيب بعض رجالها بالفساد ، ودمر العديد من الكنائس فى تيار الفوضى العام التى سادت البلاد .

فى المقابل كان البربر فى معظمهم وثنيين ، لم يتمرسوا بديانة سماوية ذات تراث ، ولم تكن لديهم لغة مكتوبة ـ نرجح ـ تعين على حفظ هذا التراث إن وجد ، ولم تكن اللغة اللاتينية ذائعةً بينهم ، لذلك كان تأثرهم واضحًا بمقدم ديانة سماوية ذات تراث ، فأقبلوا على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة منذ السنوات الأولى للفتح، وقد لاحظنا أن كلاً من كسيلة والكاهنة لم ينجحا فى ثورتيهما، لأن بلاد المغرب كانت قد قطعت شوطًا طويلاً فى طريق الإسلام والتعريب .

مما يؤكد ما نذهب إليه أن الجماعات الأولى من المسلمين كانوا من لواتة، وهو من البتر الأعرق فى البداوة ، ومن ثم فى الوثنية ، وفى البعد عن مؤثرات بيزنطية .

لدينا مثال واضح على قدم عهد البربر (أو بعض البربر) بالإسلام فى شخص طارق بن زياد (بن عبد الله) فاتح الأندلس ، فقد حمل وأبوه وجده أسماءً عربية ، وهذا يعنى أن جده أسلم فى فترة باكرة تعود إلى البدايات الأولى للفتح .

بيد أنه إذا كان إسلام البربر قد أتى سريعًا ، فإنه كان من الممكن أن يأتى ارتدادهم عن الإسلام ـ لدى الثورات التى نتحدث عنها بعد ـ سريعًا أيضًا ، لكنه مع الاعتراف بسطحية إسلام البربر فى أحوال بعينها ، إلا إن ذلك لم يكن

يعنى بالضرورة زوال إسلامهم فى أحوال أخرى .

يلاحظ أن العرب درجوا منذ السنوات الأولى للفتح على الاستعانة بالبربر المسلمين فى جيوشهم ، وكانوا يعاملونهم معاملةً طيبةً ، بل إن حسان بن النعمان الغسانى لم يكتف بأن يعطى البربر فى جيشه نصيبهم من الغنائم ، إنما رتب لهم أعطيات ثابتةً ، تصرف من بيت المال ، ولا تذكر المصادر خبراً عن استياء البربر المسلمين جملةً من العرب المسلمين جملةً ، ثم إنه إذا كان هناك من العرب أو ولاتهم من أساء السيرة بعد إتمام الفتح ، فإن الدولة لم توافق هؤلاء فيما فعلوا ، بل إنها تغاضت عن قتل البربر لأحد هؤلاء الولاة ، وهو يزيد بن أبى مسلم ، وأقرت الوالى الذى اختاروه ، وهو محمد بن يزيد القرشى .

يلاحظ أيضًا إن العرب حرصوا منذ ولاية عقبة بن نافع الفهرى على نشر الإسلام بين البربر وتعميقه ، وأنشئوا العديد من الرباطات التى دعيت أحياناً بالقصور ، وأولها رباط شاكر الذى يعود الفضل فى ابتنائه إلى عقبة نفسه ، كما أنشئوا المساجد الجامعة ، ويأتى فى مقدمتها المسجد الجامع بالقيروان والمسجد الجامع بتونس ، ولم يلبث أن انتقل إلى المغرب عدد كبير من التابعين، يعلمون البربر الإسلام الصحيح ، ويفقهونهم فيه ، بحيث ظهر بعد جيلين أو ثلاثة علماء من البربر أنفسهم ، بعضهم من تلامذة الإمام مالك رضى الله عنه (ت ١٧٩/٧٩٥) وأصحابه .

لهذاوغيره فإن كسيلة لدى ثورته خرج على الدولة ، لكنه لم يخرج على الإسلام ، وأمّن المسلمين والعرب منهم بمدينة القيروان .

زاد من إيمان البربر ما لمسوه من العرب من إصرار على الفتح ، مهما أصابهم من نكبات ، وزاد من ذلك ما خلفه بعضهم بعد استشهاده من سيرة

وضيئة ، تركت أثرها فى نفوس البربر ، وما يزالون حتى أيامنا هذه ، يستذكرون « سيدى عقبة » ومقامه فى تهوذة مقام محمود عندهم .

بطبيعة الحال فقد تلازم الإسلام طردياً مع التعريب ، خصوصاً وقد تدافعت هجرات العرب واليمانية منهم ، وأنشئوا مدناً كالقيروان وتونس ، وعمروا مدناً أخرى قديمة ، وسمحوا للبربر بعد فترة ، بأن يجاوروهم فيها ، وخالطوهم وأصهروا إليهم .

أعان على انتشار العربية أن البربرية لم تكن لغة حضارة ، والجدال حول كتابتها وطبيعة هذه الكتابة ما يزال قائمًا ، كما إنها لم تخلف أدبًا قويًا يحفظها ، أما اللاتينية فكانت لغة الصفوة من الروم وربما الأفارقة ، كما كانت قصراً على المدن فى إفريقية دون سائر المغرب ، وبطل استخدامها فى الإدارة فى عهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧/٩٩ ـ ٧٢٠/١٠١) وصار هذا الاستخدام قصراً على دوائر الكنيسة وحدها دون غيرها .

2 ـ الثورة البربرية الكبرى :

كان الإسلام بما يتضمنه من مبادئ جليلة سامية تدعو إلى المساواة بين المسلمين جميعهم هو السبب الأول فى أن صار البربر فى معظمهم مسلمين ، وكان هو السبب الأول فى ثورتهم على العرب المسلمين .

كان العرب بحكم إنهم أصل الإسلام ، وبحكم إنهم الذين نهضوا بتبعات تبليغ الرسالة ، يشعرون بقدر من التمايز بينهم وبين أهالى البلاد المفتوحة ، صحيح إن هذه النزعة لم تكن واضحةً فى فورة الإسلام ، لكن العهد تناءى بين العرب وبين المثل الجليلة التى زخر بها عهد الفتح ، كما إن انتهاء هذا الفتح كان إيذانًا بأن يتوقف ما كانوا يحصلون عليه من غنائم وأموال ، وكان

إيذاناً أيضاً بأن يتوقف ما درجوا عليه من تفريغ لطاقاتهم العسكرية .

إلى جانب ذلك فقد ولى البلاد بعض الولاة الذين لم يراعوا تعاليم الإسلام وروحه على نحو دقيق ، وانتهجوا سياسات خاطئة فى التعامل مع مواطنيهم المسلمين من البربر ، وثبتوا الجزية فى بعض الأحيان عليهم .

من هؤلاء الولاة يزيد بن أبى مسلم الذى تعامل مع البربر على نحو جعلهم يغتالونه ، بعد شهور قليلة من ولايته فى سنة ١٠٢/٧٢٠ .

على أنه من الواجب ألا نغالى من فعالية هذا العامل ونعمم ، فندين سياسة العرب جملةً ، إلا أنه يمكن أن نؤكد على أن سياسة الدولة وسياسة العرب عامةً ، كانت تحوى عنصراً هاماً سلبياً أثار سخط البربر عليهم .

هناك عامل آخر هام نشاهده فى المغرب ، ونشاهده أيضًا فى أقطار أخرى غير المغرب ، ففى المغرب كما فى هذه الأقطار ، بدأ السكان الأصليون يشعرون بأن لهم شخصيتهم المستقلة ، أو إذا شئت كانوا يشعرون بخصوصيتهم ، وأن لديهم سمات تجعلهم يختلفون عن العرب ، هذه السمات تدعمت مع الإسلام والتعريب ، وهما عنصراً توحيد ، وأعان على توطيد هذا النزعة البعد الجغرافى بين بلاد المغرب ، وبين النواة النووية للدولة فى بلاد الشام .

على أن الإحساس بالظلم وحده لا يكفى لقيام ثورة ، وكذا الإحساس بالخصوصية ، إذ كان لا مناص من تنظيم البربر – وهم شتى – وخلق قضية فكرية واحدة يموتون من أجلها .

وجد البربر ضالتهم فى أحزاب المعارضة المناهضة للدولة ، وخاصة الخوارج الصُفْرية والإباضية .

اتفق الصفرية والإباضية معًا – ورغمًا عن اختلافهم فى مسائل أساسية –

على أن الإمامة (والخلافة بالتالى) أى السلطة من حق أى مسلم يصلح لها عربيًا كان أم غير عربى ، وقد كان هذا المبدأ يستهوى البربر ، لذلك فإنه بعد الضربات العنيفة التى أصابت الخوارج والإباضية فى المشرق ، وجد هؤلاء لهم أرضًا خصبةً فى المغرب ، وخاصة لدى البتر وزناته .

فى سنة ٧٣٤/١١٦ ولى عبيد الله بن الحَبْحاب بلاد المغرب والأندلس ، فاستعمل عمر بن عبد الله المرادى على طنجة ، فأساء السيرة ، وتعسف فى الجباية ، وأراد تخميس البربر ، بزعم أنهم فئ المسلمين ، فأثار غضبهم ، وبعثوا إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤/١٠٥ - ٧٤٣/١٢٥) يشكون ابن الحبحاب وعماله ، لكنهم لم يجدوا آذانًا صاغية ، ولدى عود الوفد ، بدت نذر ثورة بربرية عمت بلاد المغرب جميعها ، وهددت دولة الإسلام والعرب معًا .

بدأت الثورة فى طنجة فى سنة ٧٤٠/١٢٢ ، وتزعمها سقاء من البتر ، يدعى مَيْسَرَة المِذْغَرى (أو المطغرى) وقد دعا نفسه بالفقير ودعاه أعداؤه بالحقير .

إستطاع ميسرة أن يضم إليه قبائل غُمارَة ومكناسة وبَرْغَواطة ، لكنه لم يرفع شعارات بربرية ، إنما رفع شعارات خارجية (نسبة إلى الخوارج) ، وعليه ضمت جموعه بعض العرب المغاضبين للدولة ، فأرسل قطيعًا من جيشه إلى طنجة فدخلها ، وقتل عاملها ، وشرع - من ثم - فى المسير إلى إفريقية ، وعلى مقربة من تاهَرْت ، جرى صدام بينه وبين جيش الدولة يقوده خالد بن أبى حبيب الفهرى ، لكنه كان لقاءً غير حاسم ، ترتب عليه أن قتل البربر ميسرة ، وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتى ، وفى مكان قريب من طنجة انتصر البربر على العرب وأفنوا معظمهم ، وقد دعيت هذه المعركة بغزوة الأشراف ، لكثرة من قتل فيها من أشراف العرب .

كانت الهزيمة شديدةً أفزعت الخليفة هشامًا وقال : « والله لأغضبن لهم غضبةً عربيةً ، ولأبعثن إليهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندى » .

كان الجيش الذى توجه من دمشق فى سنة ٧٤١/١٢٣ يضم سبعة وعشرين ألفًا من عرب الشام ، يقودهم كُلثوم بن عياض القُشَيْرى ، أضيف إليهم بعد ذلك ثلاثة آلاف من عرب مصر ، كما انضم إليهم عدد كبير من العرب البلديين ، وهم جيل الفتح وأبناؤهم ، يقودهم حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى . على أن هذا الجيش هزم بدوره عند بقْدورة على وادى سبو ، ولاذت فلوله بعضها بإفريقية ، وبعضها الآخر بسبتة ثم عبرت إلى الأندلس .

ترتب على هذه الهزيمة أن امتدت الثورة امتداداً واسعًا من أقصى السوس فى الغرب إلى طرابلس فى الشرق ، وأضحت القيروان شبه محاصرة من كل وجه .

عاود هشام إرسال جيش آخر كبير عدته خمسون ألفا من عرب الشام ، يقودهم حنظلة بن صفوان الكلبى ، وبعد أن اتحد مع أهل القيروان ، توجه للقاء البربر بموضع يبعد أربعين ميلاً غربى القيروان يدعى بالأصنام ، وتمكن العرب فى أواخر سنة ٧٤٢/١٢٤ (أو أوائل سنة ٤٧٣/١٢٥) من هزيمة البربر الذين كان يقودهم عبد الواحد بن يزيد الهوارى ، وعاودوا هزيمتهم مرةً أخرى، بموضع يدعى بالقرْن ، وكان يقودهم عُكاشة بن أيوب الزناتى .

تعد واقعتا الأصنام والقرن من الوقائع الفاصلة فى تاريخ المغرب ويقول الليث بن سعد (ت١٧٥هـ) فقيه مصر : « ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام » .

وصلت الأخبار بالنصر إلى هشام بدمشق ، وهو مريض مرض الموت ، وقيل وصلت بعد موته فى سنة ٧٤٣/١٢٥ .

3 - الفهريون :

انقسم العرب فى إفريقية شأنهم شأن العرب فى أقطار أخرى إلى قيسية ويمانية لكنه إلى جانب هذا التقسيم العرقى كان هناك تقسيم آخر سياسى ، وهو بلدية وشامية ويقصد بالبلدية جيل الفتح وأولادهم ، وهم الذين قاموا بالعبء الرئيسى فى فتوح المغرب ، وكانوا بالدرجة الأولى يمانيةً ، أى إنهم كانوا دون القيسية مكانةً ومدنيةً (يحقدون على الدولة منذ وقعة الحرَّة فى سنة ٦٨٣/٦٣)[١] ويقصد بالشامية الأجناد التى وردت إلى المغرب ، بعد عمليات الفتح ، وخاصة إبان الفتنة البربرية ، وكانوا فى معظمهم قيسيةً ، أو إن الصدارة فيهم كانت للقيسية .

بعد أن انتصر العرب على البربر تطلع البلدية منهم إلى السيادة ، لطول عهدهم بالمقام فى بلاد المغرب ، وهم لم يقصروا نشاطهم ـ كما كانت حال الشامية ـ على المجال العسكرى ، إنما تطرقوا إلى مجالات أخرى ، وخالطوا أهل البلاد ، وأعانهم على هذا التطلع ما جرى من اضطراب الحكومة الأموية فى أواخر عهدها ، وكانت سناد الشاميين وعمادهم .

كان أبرز العرب البلدية فى هذه المرحلة هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، وكان قد لجأ إلى الأندلس ، عند هزيمة العرب فى أول الفتنة ، وحاول أن يجد لنفسه دوراً على مسرح الأحداث هناك ، فلما لم يتحقق له هذا الدور ، عاد إلى المغرب ، واستعان بقومه ، وحاصر حنظلة بن صفوان بالقيروان فى سنة ٧٤٥/١٢٧ ، ولم يجد الرجل ـ وكان صالحًا ـ إلا أن يحقن دماء المسلمين ، فغادر المدينة وعاد أدراجه إلى دمشق ،

(١) بعدها استباح أهل الشام المدينة المنورة وفعلوا بها الأفاعيل .

ولم يجد الخليفة الأموى مروان بن محمد (٧٤٤/١٢٧ ـ ٧٤٩/١٣٢) إلا أن يقر عبد الرحمن فى ولايته ، وكذا فعل الخليفة العباسى السفاح (٧٤٩/١٣٢ ـ ٧٥٤/١٣٦) وأخوه المنصور (٧٥٤/١٣٦ ـ ٧٧٥/١٥٨) .

لم تستقر أمور إفريقية فى يدى ابن حبيب ، فقد نشبت عدة فتن لعرب وبربر وصفرية وإباضية ، وخرج ابن حبيب من هذه الفتن جميعها منتصراً ، على إنه عندما طالبه المنصور بأموال ، أقدم على أمر خطير ، فخلع الطاعة له ، وأضحى وجوده ـ من ثم ـ غير شرعى ، فى نظر كثير من رعاياه ، مما شجع أخاه إلياس على الخروج عليه ، وقتله فى سنة ٧٥٥/١٣٧ ، وولى مكانه وأعلن الطاعة للمنصور .

بيد أن حبيب بن عبد الرحمن ثار على عمه وقتله ، ثم دارت حرب بينه وبين عمه الآخر عبد الوارث ، الذى فر إلى قبيلة وَرْفَجومة الصفرية ، وزعيمها عاصم بن جميل ، وقد انتهز هذا الفرصة ، من أجل أن يدخل القيروان فى سنة ٧٥٦/١٣٩ ، ويطارد حبيباً فى جبال أوراس ، ومع أن عاصماً قتل خلال هذه المطاردة ، إلا أن حبيباً لم يستطع أن يسترد القيروان ، وقتل هو الآخر فى المحرم من سنة ١٤٠/ يونيو ٧٥٧ ، وبموته انتهت دولة الفهريين .

أساء الصفرية السيرة لدى دخولهم القيروان ، فاستحلوا المحارم وارتكبوا الكبائر ، وساموا أهلها العذاب ، مما حفز أهل المدينة إلى الاستنجاد بالإباضية ، وكانت لهم شوكة بنواحى طرابلس ، فهب لنجدتهم أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السَمْح المعافرى .

قاد أبو الخطاب جموع الإباضية من هوارة وزناته إلى القيروان ، وبالقرب من أسوارها ، دار قتال عنيف بينه وبين الصفرية ، انتهى بانتصار الإباضية ، ودخولهم المدينة فى سنة ٧٥٨/١٤١ ، ثم استخلف أبو الخطاب عليها أحد معاونيه ،وهو عبد الرحمن بن رستم الفارسى ، وعاد أدراجه إلى طرابلس .

4 - المهالبة :

وصلت أخبار المغرب إلى الخليفة المنصور ، وراعه ما صارت إليه حال البلاد، فوجه إليها قائده محمد بن الأشعث الخزاعى ، وقد استطاع هذا الوالى أن يحقق النصر على الإباضية فى سنة ١٤٤/٧٦١ وقتل زعيمهم أبا الخطاب ، ولدى وصول هذه الأخبار إلى عبد الرحمن بن رستم بالقيروان غادر المدينة مع أصحابه غربًا إلى المغرب الأوسط .

عادت إفريقية إلى طاعة بنى العباس ، ومع إن الإباضية والصفرية بالمغربين الأوسط والأقصى ، لم يكن قد تم القضاء عليهم قضاءً تامًا ، فإن ابن الأشعث لم يشأ أن يدخل معهم فى صدامات خارج حدود إفريقية ، واكتفى بأن ينهج نهجًا دفاعيًا ، حتى لا يبدد إمكاناته فى حروب لا طائل معها ، وحصن القيروان، وابتنى حولها سورًا ، لكنه لم يلبث أن عزل فى سنة ١٤٨/٧٦٥ لإخفاقه فى التعامل مع العصبيات العربية وأهل خراسان ، وولى المنصور مكانه الأغلب بن سالم التميمى ، فبدد قوته فى حروب مع الصفرية ، لم تحقق نتائج تذكر ، كما إن بعض أجناده خرجوا عليه فى سنة ١٥٠/٧٦٧ وقتلوه ، فولى المنصور مكانه أبا جعفر عمر بن حفص المُهلّبى .

المهالبة أسرة من الأزْد كبرى قبائل عُمان ، وجدهم هو القائد الشهير المُهلّب بن أبى صُفْرَة الذى قام بدور كبير فى التصدى للخوارج (الأزارقة) وفى الفتوح الإسلامية بالمشرق ، وخدم وأبناؤه الدولة الأموية ، وإن اختلفوا معها أحيانًا أو ثاروا ضدها ، ثم عادوا إلى الساحة فى عهد الدولة العباسية .

واجه عمر بن حفص موقفًا عصيبًا ، إذ تألب عليه الإباضية والصفرية من كل وجه ، وحاصر أبو حاتم الأباضى ـ خليفة أبى الخطاب ـ القيروان فى سنة ١٥٤/٧٧١ إلى أن دخلها وقتل عمر بن حفص ، وبدت بلاد المغرب جميعها، وكأنها صارت خارجية .

عندما وصلت أنباء الحصار إلى الخليفة المنصور ، جهز جيشًا كبيراً ، عدته ستون ألفًا من الخراسانية وعرب الشام والعراق ، يقوده يزيد بن حاتم المهلبى من أبناء عمومة الوالى القتيل ، وكان واليًا على مصر .

لدى علم أبى حاتم بوصول الجيش العباسى إلى طرابلس ، خرج من القيروان وتحصن بجبل نفوسة ، حيث يكثر المشايعون له ، ودار قتال شديد انتهى بهزيمة الإباضية وقتل زعيمهم ، ودخل يزيد القيروان فى سنة ١٥٥/٧٧٢ .

سادت إفريقية حال من الهدوء لم يقطعها سوى قلاقل للصفرية والإباضية، قضى يزيد عليها ، وتفرغ لتنظيم دولته ، فأعاد تعمير مدينة القيروان ، ورتب لكل حرفة سوقًا خاصةً بها ، وجدد بناء المسجد الجامع ، وعنى بالزراعة ، وصارت دار الإمارة محجًا للشعراء والأدباء والعلماء من كل حدب وصوب .

على أن أهم ما جرى من تطور هو دخول مذهب مالك بن أنس رضى الله عنه إلى بلاد المغرب على أيدى بعض تلامذته ، وقد أخذ هؤلاء عن مالك علمه ، كما أخذوا عنه سلوكه ، واعتداده بنفسه ، وترفعه عن أعراض الدنيا ، وبفضل هؤلاء وغيرهم أضحى المذهب المالكى هو المذهب السائد فى بلاد المغرب كافة والأندلس ثم بلاد الصحراء .

كان لانتشار المذهب المالكى أثر واضح فى إضعاف المذاهب الخارجية والإباضية ، التى كان لها السيادة فى المغرب ، وإذا كانت الدولة السنية ، قد أصيبت بضربات تالية على أيدى هؤلاء ، وهزم جنودها فى غير معركة ، فإن هذه الهزائم ، كانت محدودة الأثر على المدى البعيد ، وذلك بفضل تأصل المذهب المالكى ، بل إن هذا المذهب كان ـ على نحو أو آخر ـ سببًا فى طرد الفاطمية الشيعية ـ فيما بعد ـ من المغرب إلى مصر .

الفصل الثالث
الدول المستقلة

من يتأمل تاريخ المغرب ـ فى إطاره العام ـ يروعه إن هذه البلاد لم تتحقق لها وحدتها السياسية الجامعة سوى مرتين ؛ مرة مع الفتوح ، ولمدى لا يجاوز بضعة عقود ، ومرة أخرى مع الموحدين ، ولمدى لا يجاوز أيضاً بضعة عقود .

بين هاتين المرتين بزغت دعوات للوحدة ، لكن هذه الدعوات لم تنتظم المغرب كافةً ، أو إنها انتظمته بضع سنوات ، كما إنها جاءت متقطعة ثم انقطعت .

بطبيعة الحال كانت هناك ظروف عامة كامنة وراء هذه الظاهرة ، أهمها الطبيعة الجغرافية ، وكان دعاة الوحدة ـ أيًا كانت منطلقاتهم ـ يصطدمون بها، ولا يجدون ، وقد سفكت دماء وهلكت رجال وضاعت أموال ، إلا الاعتراف بها والتعايش معها .

غداة عمليات الفتح وفى سنة ٧١٠/٩١ تحديداً أسس صالح بن منصور الحميرى دويلةً صغيرة فى نَكور ، وهى فرضة صغيرة تقع قريبة من مَليلة فى قاصية المغرب ، وأفاد من موقع هذه المدينة ، لنقل التجارة بين العدوة المغربية والعدوة الأندلسية ، وبعد وفاته فى سنة ٧٤١/١٢٣ ، توارث ولده هذه الدويلة وتوسع بعضهم بحدودها ، وظلت قائمةً مستقلة أو تابعةً حتى سنة ٩١٧/٣٠٥ .

كانت هذه الدويلة طليعة لدويلات أخرى على غرارها ، صاحبت تاريخ المغرب كله خلال العصور الوسطى ،وكانت هذه الدويلات أشبه بالمدن ـ الدول التى عرفها اليونانيون فى العصور القديمة ، وعرفها الإيطاليون فى العصور

الوسطى والحديثة جميعًا ، ويطلق العروى عليها تعبير المدن ـ الشورى .

فى الفترة بين سنتى ٧٤٠/١٢٢ ـ ٧٤٣/١٢٥ ضجت بلاد المغرب بثورة كبيرة ، عمت أقطارها جميعها ، هى ثورة الخوارج أصحاب ميسرة ، ومع أن الدولة قمعت هذه الثورة فى النهاية ، إلا أن الأحوال العامة لم تعد إلى سابق عهدها ، ولم تعد سلطتها تجاوز إقليم الزاب إلى غيره من أقاليم المغربين الأوسط والأقصى ، بل إنه داخل إفريقية ذاتها ، بدأ عصر من القلاقل امتد لما يزيد على الخمسين سنة حتى مقدم الأغالبة .

ا - الأغالبة :

بعد قتل الفضل بن روح المهلبى مرت إفريقية بفترة من الفوضى بين الأجناد ، استمرت ست سنوات ، أخفق هَرْثَمة بن أُعَيْن الذى ولى البلاد من قبل الخليفة الرشيد (٧٨٦/١٧٠ ـ ٨٠٩/١٩٣) فى أن يضع حداً لها ، فطلب من سيده أن يعفيه من منصبه ، وعاد إلى بغداد ، فاستعمل الخليفة مكانه محمد بن مقاتل العَكّى الذى أخفق بدوره هو الآخر ، ولم يلبث أهل القيروان أن عزلوه ، وولوا عليهم إبراهيم بن الأغلب التميمى فى المحرم من سنة ١٨٤/فبراير من سنة ٨٠٠ ، وأقره الرشيد مقابل أن يتنازل عن مائة ألف دينار ، كانت تبعثها مصر معونةً لإفريقية كل عام ، وأن يبعث هوبأربعين ألفًا إلى بغداد .

كان إبراهيم بن الأغلب قد ارتحل إلى مصر ، بعد أن قتل أبوه الأغلب ابن سالم ، وكان فى بداية أمره يرغب فى أن يسلك طريق العلم ، لكنه عدل عن هذه الطريق ، وارتحل إلى إفريقية مع غيره من الأجناد ، واستقر بإقليم الزاب، حيث جرفته الأحداث ، واعتز بقومه تميم وكانوا كثيرين ، وأظهر براعةً فى مقاتلة الخارجين على الدولة ، مما جعل الأجناد يتمسكون به واليًا عليهم .

صار إبراهيم بن الأغلب أول الأمراء الأغالبة بإفريقية ، وأتى بعده عشرة من هؤلاء الأمراء ، حتى زوال الدولة الأغلبية فى سنة ٩٠٩/٢٩٦ ، وقد أدرك بثاقب بصيرته أن إفريقية ، بدأت بولايته عهداً جديداً ، فالخلافة العباسية اكتفت منه ـ وولده بعده ـ بقدر من الولاء ، على أن تشكل إمارته دولةً حاجزةً ، إزاء الرستميين الإباضيين بتاهرت ، والأدارسة العلويين بفاس ، فاتجه إلى أن يمكن لنفسه ، بأن ينشئ مدينة عسكرية إلى الجنوب الغربى من القيروان، دعاها العباسية ، واشتهرت ـ بعد ـ بالقصر القديم ، وضمت هذه المدينة قصوره وأسرته ومعسكرات جنوده ، وحرص على أن تكون بها أسواق وغير ذلك من أسباب المعاش . ولدى اكتمال المدينة ، انتقل إليها وأجناده ، وصارت قاعدةً لحكمه وبعض خلفائه من بعده ، وصدق حدس ابن الأغلب ، إذ كلفت له هذه المدينة الحماية من أجناده الذين شغبوا عليه وهم من العرب .

فى الوقت نفسه اتجه ابن الأغلب إلى أن يعادل هؤلاء الأجناد بأجناد آخرين ، اتخذهم من البربر ثم من الصقالبة ، وهم فى الأصل رقيق كان يؤتى بهم من أوربا ، فينشئون نشأةً إسلامية ، ويتمرسون بالجندية ، ولا يعرفون سيداً غيره ، كما استعان أيضاً بأجناد من السودان .

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب فى سنة ٨١٢/١٩٦ ، خلفه ولده عبد الله ٨١٢/١٩٦ ـ ٨١٧/٢٠١ ، ثم ولده الآخر زيادة الله ٨١٧/٢٠١ ـ ٨٣٨/٢٢٣ ، ويعد عهد هذا الأخير ذروة عهود الدولة الأغلبية ، ورغماً عن تعدد الفتن فى أيامه ، إلا إنه خرج منها جميعها مظفراً ، وأتيحت له الفرصة ، كى يبدأ فتح صقلية ، وابتنى العديد من المساجد والقناطر والحصون والربط ، وأهمها رباط سوسة ، وأعاد بناء المسجد الجامع بالقيروان .

استمرت إفريقية فى عصر بنى الأغلب ولايةً عباسيةً ، فكان شعارهم

السواد، وظلت الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسى ، كما كانت تؤدى له الأموال المتفق عليها ، رغما عن إنها لم تنتظم بعد ذلك ، ولدينا أخبار عن أن الخليفة كان يتولى فى بعض الأحيان تعيين القضاة ، بل إن لدينا أيضًا أخباراً عن إنه كان يتدخل فى تعيين بعض الأمراء ، وفى سنة ٨٩٦/٢٨٣ هدد الخليفة أحدهم بعزله ، حين تناهى إليه سوء سيرته ، ثم عزله بعد سنوات ، واستجاب هذا الأمير للعزل .

عاشت إفريقية تحت حكم الأغالبة عصراً من أزهى عصورها ، من مظاهره عنايتهم بإنشاء المواجل ، وهى برك عظيمة تصب فيها مياه الأمطار والسيول ، وأشهرها الماجل الكبير بالقيروان ، ويعود إنشاؤه إلى سنة ٨٦٢/٢٤٨ ، وقد استرعى انتباه اليعقوبى (ت٨٩٧/٢٨٤ أو ٩٠٥/٢٩٢) الجغرافى الكبير والمؤرخ ما شاهده من خضرة تمتد على مدى البصر بين قَمودَة والساحل ، وكيف انتشرت أشجار الزيتون على طول هذا الساحل ، وصار بكل قرية معصرة للزيت ، كما عمرت بلاد الجريد بالتمور والنخيل ، وازدهرت الصناعات النسجية ، وكان على الأمير أن يرسل عدداً من البسط مع المال السنوى إلى بغداد .

إلى جانب ذلك عنى الأمراء بتوفير الأمن على طرق التجارة الداخلية ، كما عنوا بتجويد العملة وسلامة وزنها ، حتى صار الدينار الأغلبى مضرباً للأمثال، وصارت القيروان محطةً هامةً على طريق التجارة بين المغرب وبلاد السودان [١] .

ويمثل عصر الأغالبة عصر ازدهار للفنون المعمارية فإلى جانب العباسية التى أنشأها أول أمرائهم عقيب ولايته ، أنشأ إبراهيم بن أحمد (٨٧٥/٢٦١ -

---

(١) الأقطار التى تقع إلى الجنوب من مصر وبلاد الصحراء .

٩٠٢/٢٨٩) ، فى سنة ٨٧٦/٢٦٣ مدينة رَقّادة ، على مبعدة أميال جنوبى القيروان ، وصارت هذه المدينة مقراً للأمراء ، حتى نهاية الدولة ، ودعيت بالقصر الجديد .

إلى جانب ذلك أعاد زيادة الله فى سنة ٨٣٦/٢٢١ بناء مسجد القيروان ، وأجريت له زيادة فى سنة ٨٥٦/٢٤٢ وزيادة أخرى فى سنة ٨٧٥/٢٦١ ، وإذا كان جامع الزيتونة بتونس يعود فى إنشائه إلى سنة ٧٣٢/١١٤ ، فإن أحمد بن محمد (٢٤٢ / ٨٥٦ ـ ٨٦٣/٢٤٩) أمر فى سنة ٨٦٣/٢٤٩ بإعادة بنائه وجعل به أعمدةً رخامية ، وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة، وقد صار هذا الجامع فيما بعد جامعةً عريقةً ، تدرس بها مختلف العلوم العقلية والنقلية .

أنشأ الأغالبة العديد من الرباطات ، وهى امتداد لقصور العباد فى عصر الولاة ، وللرباط وظيفة عسكرية إلى جانب وظيفته الدينية ، ويقيم به المجاهدون ، لصد غارات الروم من ناحية ، وأخذ الأهبة لغزوتهم من ناحية أخرى ، وكان يزود بمنار توقد فيه النار ليلاً للإنذار باقتراب سفن العدو ، فتستعد سائر الربط ، وأشهرها رباط سوسة الذى عرف بقصر الرباط ، وبدأ بناءه زيادة الله فى سنة ٨٢١/٢٠٦ على خليج قابس ، وكان هو القاعدة التى خرج منها الغزاة إلى صقلية ، وقد تطورت بعض هذه الربط ، وتحولت فى مراحل تالية إلى مدن كبيرة عامرة .

ومع أن الحكومة الأغلبية كانت على المذهب الحنفى ـ مذهب الخلافة العباسية ـ إلا أن جمهور علمائها كانوا مالكية ،وأهمهم سحنون بن سعيد التنوخى (ت٨٥٤/٢٤٠) صاحب المدونة المشهورة فى الفقه المالكى ، وهى تالية لمُوَطَّأ الإمام المؤسس ، وكان سحنون زاهداً عابداً يقوت نفسه ، وينأى عن

أصحاب السلطان ، ولى القضاء كرهًا ، فنظمه وجعل له تقاليد حفظت بعده كما كان لا يخشى أحدًا فى سبيل الحق ، يوضح ذلك موقفه من المحنة بخلق القرآن .

من علماء المالكية الكبار الذين عاشوا فى العصر الأغلبى أسد بن الفرات (ت٢١٣/٨٢٨) ومحمد بن سحنون (ت٢٥٦/٨٧٠) ومحمد بن إبراهيم ابن عبدوس (ت ٢٦٠/٨٧٣) وعيسى بن مسكين (ت ٢٧٥ أو ٢٩٥هـ) .

إلى جانب سياستهم الداخلية الناجحة ، لم يغفل الأغالبة أمر الجهاد ، وأهم معالمه فتح جزيرة صقلية ، دفعهم إلى ذلك ، ما كان يقوم به الروم من غارات على الشواطئ الإسلامية ، ودفعهم أيضًا رغبتهم فى شغل أجنادهم عما كانوا يقومون من شغب بعضهم ضد بعض أو ضد الدولة .

وقدتعرضت صقلية لغارات متفرقة من المسلمين فى غمرة فتحهم لبلاد المغرب وبعد إتمامه ، على أن هذه الغارات لم يكن هدفها الفتح ، وإنما كان تأمين قواعدهم من هجمات الروم ، والحصول على قدر من الغنائم بين حين وآخر .

فى سنة ٢١١/٨٢٦ أعلن يوفيميوس Euphemius الثورة على الإمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ ـ ٨٢٩) واحتل سرقوسة Siracusa ، ونادى بنفسه ملكًا ، ثم ارتحل إلى إفريقية ، وطلب عون أميرها زيادة الله ، مقابل أن يدين له بالطاعة ويؤدى الجزية .

تردد الأمير فى قبول عرض القائد الرومى ، لكنه عدل عن تردده ، لدى إلحاح القاضى أسد بن الفرات وعدد من الفقهاء المسلمين .

فى سنة ٢١٢/٨٢٧ أقلعت من إفريقية مائة وسبعون سفينة ،تحمل خمسة عشر ألفًا من العرب والبربر والأندلسيين والخراسانيين ، ورافقتهم قوات يوفيميوس ، فنزلوا مازَر Mazara ، حيث أوقعوا الهزيمة بالروم .

كانت هذه الهزيمة بدايةً لكفاح طويل خاضه المسلمون ، دام سبعة وسبعين عامًا ، تقلبت بهم الحال خلالها بين سعود ونحوس ، إلى أن تحقق لهم النصر النهائى فى سنة ٩٠٢/٢٨٩ ، وتحققت لهم السيادة على الجزيرة ، وأعلن الإمبراطور الحداد فى عاصمته القسطنطينية .

فى غمرة هذا الفتح تطرق المسلمون إلى جزيرة مالطة ، فاستولوا عليها فى العام ٨٦٩/٢٥٥ ، كما تطرقوا إلى شبه الجزيرة الإيطالية ، وترددوا بغزواتهم عليها ، ووصلوا فى بعض هذه الغزوات إلى روما نفسها ، وعاثوا بكنيسة القديس بطرس ، وسعوا إلى أن يقيموا لأنفسهم مواقع ثابتة على الساحل ، بخاصة فى إقليم Calabria ، لكن هذا الوجود كان قلقًا ، ولم يتحقق له الدوام سنوات طويلة بعد ذلك .

ما كاد المسلمون ينتهون من فتح جزيرة صقلية ، حتى كانت دولة الأغالبة فى طريقها إلى الذهاب ، لتحل محلها دولة الفاطميين .

بطبيعة الحال ، عانت الدولة الأغلبية ـ شأنها شأن دول أخرى غيرها ـ من نزاعات بين أبناء الأسرة الحاكمة ، ونزاعات أخرى بين الأجناد ، وكانت سلطة الأمير تقتصر فى بعض الأحيان على عاصمته وما جاورها ، كما إن تداخل حدود الدولتين الأغلبية والرستمية ، وخاصة فى إقليم طرابلس ، كان يفضى بدوره إلى نزاعات ، على أن هذه جميعها أمور اعتدناها فى تاريخنا وفى تواريخ أمم غيرنا ، ولم تصبح مثل هذه القلاقل ذات شأن إلا فى أواخر عهد الدولة .

بدأت أمور البلاد تضطرب على نحو واضح فى عهد إبراهيم بن أحمد ، وهو أطول عهود الأمراء الأغالبة ٨٧٥/٢٦١ ـ ٩٠٢/٢٨٩ ، وكان متقلب المزاج دمويًا ، ضج منه رعاياه ، وثاروا ضده غير مرة ، وأسرف من ناحيته فى قمعهم ، وعزل نفسه عنهم ففارق رقادة إلى تونس ، ووصلت أصداء هذه

السياسة إلى بغداد ، فهدده الخليفة المعتضد (٢٧٩/٨٩٢ ـ ٢٨٩/٩٠٢) بالعزل ثم عزله ، ولم يجد هذا الأمير إلا أن يستجيب ، واصطنع الزهد ، وارتحل فى سنة ٢٨٩/٩٠٢ مجاهداً إلى صقلية حيث مات بعد شهور ، وخلفه ولده أبو العباس عبد الله .

فى سنة ٢٩٠/٩٠٣ ولى زيادة الله الثالث ،ولم يكن من الأمراء المشهود لهم بالكفاءة ، فقد انصرف إلى لذاته ، ولم يكتف بأن قتل أباه أبا العباس ـ أو كانت له يد فى قتله ـ إنما قتل أعمامه وبعضاً من إخوانه ونفراً من أهل بيته .

فى هذه الأثناء كان نجم الفاطميين فى صعود بإقليم الزاب ، ولم تنجح الجيوش التى وجهها لقتال أبى عبد الله الشيعى فى مهامها ، بل هزمها الفاطميون ـ كتامة على نحو خاص ـ الواحد تلو الآخر .

سعى زيادة الله إلى طلب عون الخلافة فى بغداد ، باعتباره واحداً من ولاتها ، وبذل فى سبيل ذلك أموالاً طائلة ، لكن الخلافة لم يكن فى إمكانها أن تفعل شيئاً له ، واكتفت بأن أرسلت كتباً لتأييده ، فسعى إلى مرضاة الناس، وعزل عدداً من عماله وقضاته الذين كانوا موضعًا لسخطهم ، وولى غيرهم ، وبعد أن درج بعض أسلافه على الإقامة بتونس ، عاد هو إلى رقادة ، ليكون قريبًا من جبهة القتال فى الزاب ، وجدد أسوارها ، وأعاد حشد جيشه ، لكنه أصيب بالهزيمة فى كينونة فى سنة ٢٩٢/٩٠٥ ، ثم دخل أبو عبد الله الشيعى طُبْنَة ـ عاصمة الزاب ـ واستولى بعدها على باغاية وتوْزَر وانتهى إلى قَفْصَة ـ عاصمة الجريد ـ وفى الأُرْبُس قرب القيروان دارت المعركة الأخيرة فى ٢٤ من جمادى الآخرة ٢٩٦/١٨ من مارس ٩٠٩ ، وانتهت بانتصار الفاطميين .

عندما وصلت هذه الأنباء إلى زيادة الله غادر رقادة ، وقد أخذ معه أمواله وبعضًا من عساكره وخاصته وأبناء بيته إلى طرابلس ثم مصر ففلسطين ، حيث قضى البقية الباقية من حياته .

2 - الرستميون :

إذا نحن جاوزنا إقليم الزاب إلى غيره من أقاليم المغربين الأوسط والأقصى ، نلاحظ حالاً من الفراغ السياسى بهذه الأقاليم ، بدأت إبان الثورة البربرية الكبرى ، وبدت هذه البلاد وكأنها عادت مرة أخرى إلى ماكانت عليه قبيل مقدم المسلمين فيما عدا إنها فى معظمها ، حافظت على إسلامها ، ولم ترتد إلى ماضيها الوثنى القديم .

نشطت فى هذا الوقت دعوات مناهضة من الثوار العقائديين الذين اخفقوا فى المشرق ، فانتقلوا إلى المغرب ، ورغمًا عما جرى من انتكاسة فى العام ٧٤٣/١٢٥ إلا أن وجود هؤلاء الثوار - وهم صفرية وإباضية بالدرجة الأولى - استمر ملازمًا لتاريخ المغرب سنوات طويلة بعد ذلك ، واستطاعوا أن يستقلوا بهذين المغربين عن الدولة الإسلامية العامة ، لكنهم عجزوا عن إقامة الدولة القومية العامة .

ينوه العروى إلى أن ظاهرة المدينة - الشورى ، وهى أشبه بظاهرة المدينة - الدولة ، صارت الطابع العام لبلاد المغرب خارج إقليم إفريقية ، فقد نشأت عدة دويلات ، تتركز الواحدة منها حول مدينة لها هوامش تابعة لها ، وترتبط هذه المدينة بعلاقات تحالف مع مدن أخرى غيرها ، ويضمها جميعها نشاط تجارى، يحقق لها مصالحها ، ويحقق لها أيضًا قدراً من الازدهار ، ويبالغ العروى فيعمم رأيه هذا على دول المغربين الأوسط والأقصى ودويلاته ، ويدخل فيه الدولتين الرستمية والإدريسية .

ينتمى الإباضية[1] إلى فرقة المُحَكِّمة الذين كانوا من جند على بن أبى

(١) نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمى من زعماء المحكمة .

طالب رضى الله عنه ، ثم فارقوه بعد قبوله مبدأ التحكيم ، وقد انقسم هؤلاء بعد النهروان فى سنة ٦٥٨/٣٨هـ إلى متطرفين (خوارج ومنهم الأزارقة) ومعتدلين (قَعَدة ومنهم الإباضية) ولم يكن يجمع بين الاثنين سوى مبدأ الاختيار الحر للإمام من جماعة المسلمين عربيًا كان أم غير عربى ، ثم هم يختلفون بعد ذلك ، فلم يكفر الإباضية غيرهم من المسلمين ، ولم يستحلوا دماءهم بل أجازوا التعامل معهم والتزاوج ، وأفادوا من اجتهاداتهم الفقهية .

لم يفرق بنو أمية بين محكمة معتدلة ومحكمة غير معتدلة ، فاعتبروهم جميعهم خوارج ، وتعاملوا معهم بأقصى درجات العنف ، ولم يجد الإباضية إلا أن يبدأوا مرحلة دعيت بمرحلة الكتمان ، صارت الدعوة خلالها سريةً ، وأشهر أئمة الكتمان عندهم ، هو الإمام جابر بن زيد الأزدى (ت٩٣هـ) ، ونشط خليفته أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى (بالولاء) فى توسيع آفاق الدعوة ، من خلال مجالس حملة العلم بمدينة البصرة ، وكان يحضرها الدعاة من مختلف الأمصار ، فيتفقهون فى أمور الدين ، ويعودون بعد ذلك إلى أمصارهم .

كان اضطراب أمور بنى أمية فى أواخر عصرهم دافعًا لأبى عبيدة ، لأن ينتقل بالدعوة من مرحلة الكتمان إلى مرحلة الظهور ، فنشبت أول ثورة إباضية بحضر موت واليمن فى سنة ٧٤٦/١٢٩ ، وامتدت هذه الثورة إلى الحجاز ، ومع أنها أخمدت فى العام التالى ، إلا أن الإباضية نجحوا فى أن يعلنوا إمامتهم فى عُمان فى سنة ٧٥٠/١٣٢ .

وجد حملة العلم فرصةً لنشر دعوتهم فى بلاد المغرب ،وكان أشهرهم سَلَمَة بن سعيد الحضرمى الذى ابتعثه الإمام أبو عبيدة إلى المغرب ، فاستطاع أن يجتذب إليه عدداً من أهلها ، وقد ارتحل هؤلاء إلى البصرة ، حيث أقاموا

خمس سنوات تلقوا خلالها العلم وأصول الدعوة من أبى عبيدة ، ولدى عودتهم أمّر عليهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى (من العرب) وبدأ المذهب الإباضى يجد طريقه فى قبائل البربر ، خاصة جبل نفوسة بإقليم طرابلس ، وأخفق الفهريون فى الحد من هذا الانتشار .

إستطاع أبو الخطاب أن يعلن إمامته فى طرابلس فى سنة ٧٥٨/١٤٠ ، ولما علم بما فعله الصفرية من قبيلة ورفجومة بالقيروان ، وما أقدموا عليه من فساد ، خرج فى جموع الإباضية ـ وخاصة هوارة ـ واشتبك معهم فى معركة بالقرب من القيروان فى سنة ٧٥٩/١٤١ ، أسفرت عن ظفر أبى الخطاب ، فدخل المدينة ثم استخلف عليها عبد الرحمن بن رستم ، وعاد إلى طرابلس ، لملاقاة الجيش الذى أرسله الخليفة العباسى المنصور ، بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعى .

نجح أبو الخطاب فى هزيمة القوات العباسية فى سرت ، على أنه لدى معاودة الحرب ، كان الانقسام قد دب بين قبيلتى زناته وهوارة ، مما أضعف من قوته ، وفى تاورَغْا شرقى طرابلس ، استطاع ابن الأشعث أن يهزم الإباضية فى سنة ٧٦١/١٤٤ ، واحتزت رأس أبى الخطاب ، وأرسلت إلى الخليفة المنصور .

كان عبد الرحمن بن رستم بسبيل السير لنجدة أبى الخطاب ، عندما وصل إليه خبر هزيمته ، ولما لم يكن مستعداً لقتال الجيش العباسى ، حمل أهله وولده ، وغادر القيروان إلى المغرب الأوسط ، حيث نزل بجبل سُو فَجَج على قبيلة لَماية البترية ، وهرعت إليه لواتة وهوارة ، وأتاه العلماء من جبل نفوسة ، ونجح فى أن يصد الجيش الذى أرسله إليه محمد بن الأشعث .

يعود عبد الرحمن فى نسبه إلى القائد الفارسى الشهير رستم الذى قاتل العرب فى واقعة القادسية ، ثم أسلم بعض ولده ، وهاجر عبد الرحمن إلى

المغرب قبيل نهاية عصر بنى أمية ونزل بالقيروان ، ثم أتى أبا عبيدة إمام الإباضية بالبصرة ، وأضحى واحداً من حملة العلم الذين عادوا بعد سنوات إلى المغرب ، كما أضحى أقرب معاونى أبى الخطاب .

قضى عبد الرحمن السنوات التالية فى صراعات مع ولاة القيروان ، وشارك أبا حاتم الإباضى ثورته ضد المهالبة ، وبعد هزيمته فى سنة ١٥٥/٧٧٢ ، انصرف إلى المغرب الأوسط ، ومكن لنفسه بين البربر ، بل إنه استمال إليه كثيراً من الصفرية ، فضلا عن الإباضية ، ثم بويع إمامًا فى سنة ١٦٠/٧٧٧ ، وشرع فى تأسيس مدينة ، لتصبح مركزاً لدولته الفتية ، ووقع اختياره فى العام التالى على موقع قريب من مدينة تاهرت القديمة ، دعاه بتاهرت الجديدة .

أحسن عبد الرحمن فى اختياره ، فالمدينة تقع وسط الجبال ، ولم يكن من السهل دخولها إلا من الناحية الجنوبية ، حيث كان هناك طريق طويل ، يصل فى النهاية إلى جبل نفوسة ، حيث ما يزال للاباضية شوكة ، كذلك كانت الأرض حول تاهرت خصبةً وافرة المياه .

ما كاد عبد الرحمن يفرغ من بناء جامع المدينة ، حتى أتاه الناس من كل صوب ، ووجدوا ترحيبًا من أميرها ، فاتخذوا بها الدور والحوانيت والفنادق والأسواق ، ولم تلبث أن ازدهرت الحركة التجارية بها ، وصارت لها صلات قوية مع غيرها من المدن داخل المغرب وخارجه .

خلال ثمانى سنوات قضاها عبد الرحمن بن رستم إمامًا ، نهج فى دولته نهج الشورى ، وسلك سبيل العدل ، فقد كان عالمًا ذا تقوى ودين ، عاش حياة الزهد والبساطة ، ووصلت أخباره الطيبة إلى المشرق ، فصار محل فخار لإباضية البصرة ، وسارعوا فأرسلوا إليه أموالاً يتقوى بها .

لما أحس عبد الرحمن باقتراب أجله ، اقتدى بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاختار ستة من أهل الشورى ، وأضاف إليهم ولده عبد الوهاب ، وطلب منهم أن يختاروا الإمام من بينهم ، ثم مات فى سنة ٧٨٤/١٦٨ .

امتدت الدولة الرستمية امتداداً واسعاً من أحواز طرابلس وجبل نفوسة شرقًا إلى تلمسان غربًا وإلى الصحراء جنوبًا ، وأدى بها هذا الامتداد إلى أن يصير لإقليم طرابلس قدر من الاستقلال فى عهد الإمام عبد الوهاب ، بل إن بعض ولاته صاروا يختارون من قبل رعيتهم ، وتلقبوا بالإمامة ، وهو ما يجيزه المذهب الإباضى الذى يسمح بوجوده إمامين فى وقت واحد فى مكانين متباعدين .

وما جرى فى إقليم طرابلس جرى مثيل له فى جبل نفوسة .

ومع أن حدود الدولة الرستمية كانت تتداخل مع حدود الدولة الأغلبية المجاورة لها ، مما كان يسفر فى بعض الأحيان عن صدامات دامية ، إلا أن الرستميين نجحوا فى أن يخرجوا من هذه الصدامات ، وهم أوفر قوة ، وعندما أنشأ الأغالبة فى سنة ٢٢٧هـ . مدينةً قرب تاهرت دعوها العباسية ، فإن الإمام أفلح بن عبد الوهاب ٨١٤/١٩٨ ـ ٨٦١/٢٤٧ انتظر حتى اكتمل بناؤها ثم أحرقها ، وقد كافأه أمويو الأندلس على إحراقها ، فبعثوا له بمائة ألف درهم .

وكان من الطبيعى أن تنشأ علاقات طيبة بين الرستميين فى تاهرت وبين الأمويين فى قرطبة ، وذلك لاتحاد العدو وهم العباسيون ، ويمثلهم الأغالبة ، وتوافد على تاهرت الكثيرون من أهل الأندلس ، وكان بعضهم من التجار الذين نشطوا فى ابتناء المدن لدى شواطئ الدولة ، وفى المقابل هاجر بعض أبناء الأسرة الرستمية إلى الأندلس ، وصاروا فى ولاء بنى أمية ، ومنهم من ولى الوزارة والقيادة .

أنشأ الرستميون فى الوقت نفسه علاقات طيبة مع بنى مدرار أصحاب

سجلماسة ، ومع أن هؤلاء كانوا من الصفرية ، إلا أن ذلك لم يمنع وقوع مصاهرات بين الجانبين ، ولا يخفى ما كان لهذه العلاقات من نتائج إيجابية على التجارة وطرقها التى تمتد إلى أعماق الصحراء .

وكما كان عصر الدولة الأغلبية من ازهى العصور فى تاريخ إفريقية ، فكذا كان عصر الدولة الرستمية فى تاريخ المغرب الأوسط ، ولا أدل على ذلك من أن معظم أمراء هذه الدولة حكموا سنوات طويلة (حكم الإمام أفلح وحده نحو خمسين سنة) وكانوا فى جملتهم على قدر وافر من العلم ، وعلى قدر آخر وافر من العدالة ، وعاشوا حياةً بسيطة ، لا تحيط بهم مظاهر ترف ، فلم يخلفوا قصوراً ولا مبان تخلد ذكرهم ، ونهجوا فى حكمهم نهج الشورى ، فجعلوا فى كل مدينة مجلسًا يدعى مجلس العزَّابة ، له رئيس منتخب يشرف على شئون الجماعة الإباضية ، ولهذا المجلس مهام دينية وسياسية واجتماعية ، مما حافظ على وحدة هذه الجماعة وتماسكها ، وأسهم فى نشر اللغة العربية وتعريب البربر .

وفى الوقت نفسه نظم الرستميون أمورهم المالية تنظيمًا دقيقًا ، فكانوا يحرصون على جباية الأموال الشرعية وحدها ، وجعلوا النفقة على الفقراء والمحتاجين مصرفًا هامًا من مصارفها ،ولم يكن الإمام ولا رجال دولته يأخذون من هذه الأموال إلا ما يكفى حاجاتهم البسيطة .

ومع أن الدولة الرستمية كانت فى معظمها تضم أراض صحراوية ، إلا أنها كانت تضم كذلك أراض خصبة ، خصوصاً حول تاهرت ، حيث عنى الأئمة بتنظيم المياه ووسائل الرى ، وانتشرت زراعة الحبوب والفواكه ، كما كانت الدولة تضم العديد من الواحات ، وأهمها واحة ورجلان فى الجنوب ، وقد اشتهرت بنخيلها وزيتونها .

على أن التجارة كانت هى أهم مصادر الثورة فى هذه الدولة ، فكانت سفن الأندلسيين ترد إلى تَنَس ومستغانم ووهران ، تحمل منتجات الأندلس ، وما وراء الأندلس فى أوربا ، وتحمل منها منتجات المغرب وما وراء المغرب فى بلاد السودان ، وكانت قوافل التجار تصل إلى أعماق القارة الإفريقية ، حتى مملكة كَوكَو ، وتعود منها بالذهب والعاج وريش النعام والرقيق . وقد زار اليعقوبى مدينة تاهرت ، ويصفها فيقول : « إنها المدينة العظمى تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر ، تسمى عراق المغرب » .

لم تلبث أن ازدهرت الحركة العلية فى الدولة الرستمية ، وشارك الأئمة أنفسهم فى هذه الحركة ، وقاموا بالتدريس فى جامع تاهرت ، وفى جامع جبل نفوسة ، وصنف عبد الرحمن بن رستم كتاباً فى التفسير ، كما إن ولده عبد الوهاب صنف كتاباً فى الفتاوى اسمه « نوازل نفوسة الجبل » ، بل إن إحدى بناته برعت فى الحساب والفلك ، وكان الطلاب يدرسون فى المساجد الجامعة علوم الدنيا وعلوم الدين ، وأضحت فى تاهرت مكتبة كبيرة ، دعيت بالمكتبة المعصومة ، قيل إنها ضمت ثلثمائة ألف مجلد فى فنون مختلفة .

جدير بالذكر إن هذه الحركة العلمية لم تكن قصراً على الإباضية ، فقد شارك فيها غيرهم من المسلمين ، وتعاملت الدولة معهم على نحو فائق من التسامح ، وأتاحت لهم الفرصة لمناظرة علمائها ، وأصبح للمعتزلة حضور واضح ودعوا بالواصلية .

وبطبيعة الحال فلن تستقيم أمور الدولة بقية عمرها ، فبعد ولاية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ١٦٨/٧٨٤ ـ ١٩٨/٨١٤ أنكر البعض عليه مبدأ الوراثة ، وانكروا عليه كذلك إغفاله مبدأ الشورى ، فانشقوا عنه ، وظهر مذهبهم المعروف بالنكارية ، فى حين عرف أنصاره بالوهبية ،

وجرت صدامات بين الجانبين ، سالت فيها دماء ، ومن الواضح أنه كانت تقف وراء هذا الانشقاق وما تلاه من انشقاقات نعرات قبلية ، على أن هذه الانشقاقات جميعها ، لم تؤد إلى إضعاف الدولة على نحو ظاهر ، بل إن الأطراف المتنازعة كانت تلجأ أحيانًا إلى طلب الفتوى فى شأن هذه النزاعات من إخوانهم بالمشرق .

تتابع الأئمة الرستميون ، وفى عهد سادسهم أبى حاتم يوسف بن محمد ابن أفلح ٨٩٤/٢٨١ ـ ٩٠٧/٢٩٤ قام إبراهيم بن أحمد الأغلبى أمير إفريقية ـ وكان غريب الأطوار ـ بمذبحة لإباضى جبل نفوسة فى سنة ٨٩٦/٢٨٣ ، فأجهز على عدة آلاف منهم ، بل إنه لم يتورع عن أن يذبح من وقع فى يديه من أسراهم ،وكانت هذه المذبحة ضربةً موجعةً للدولة .

فى عهد يقظان بن محمد بن أفلح استفحل أمر أبى عبد الله الشيعى ، وكان قد قضى على الدولة الأغلبية ، ودخل رقادة فى سنة ٩٠٩/٢٩٦ ، ثم خرج منها إلى تاهرت ، ومع أنه دخلها بالأمان ، إلا أنه لم يلتزم به ، فقتل يقظان وغيره من أبناء أسرته ، وأرسل رءوسهم إلى القيروان ، ثم نصبت على باب رقادة ، واستباح أموال الرستميين ، وأحرق مكتبتهم المعصومة ، بعد أن استخرج منها كتب العلوم .

لاذ عدد من أبناء الأسرة الرستمية بالواحات الصحراوية ، واستطاع أحدهم وهو يعقوب بن أفلح أن يمكن لنفسه بواحة ورجلان ، كما إن النكارية من الإباضية ـ كما يرد بعد ـ ثاروا فى سنة ٩٢٨/٣١٦ بزعامة أبى يزيد صاحب الحمار ، ودامت ثورتهم نحو عشرين سنة إلى أن تمكن الخليفة المنصور الفاطمى من القبض على أبى يزيد وقتله فى سنة ٩٤٧/٣٣٦ ومثل بجثته .

مع ذلك بقيت للإباضية مراكزها الهامة ومواقعها فى المناطق المنعزلة من الصحراء الكبرى ، حيث عاودوا نشاطهم التجارى ، وانشئوا العديد من الزوايا ، تستخدم كمساجد وخانات للمسافرين والتجار ، واستطاعوا عن هذه الطريق أن ينشروا الإسلام فى أعماق الصحراء ، حتى حدود إفريقية المدارية ، ويعود الفضل فى إسلام كثير من الشعوب السودانية إلى نشاط هؤلاء التجار الإباضية .

وإذا كان هؤلاء الأفارقة قد تخلوا عن المذهب الإباضى فى أعقاب الغزوة الهلالية ، ثم الدعوة المرابطية ، وصاروا مالكية ، فإن الإباضية لم تنحسر تماماً عن بلاد المغرب ، إذ أن أهل جبل نفوسة (فى ليبيا) وجزيرة جربة وبعض بلاد الجريد (فى تونس) وواحة ورْجلان ووادى مِزاب (فى الجزائر) ما يزالون إباضية حتى يومنا هذا ، بل إن من علمائهم من بز علماء الإباضية فى وطنها الأصلى عُمان .

3 - المدراريون :

فى سائر أنحاء المغربين الأوسط والأقصى ساد نمط المدن ـ الشورى وهو ما يستخرجه العروى من ملاحظات اليعقوبى لدى زيارته لهذه الأنحاء بعد سنة ٨٧٣/٢٦٠ ، فهو لا يشير إلى أن الواحدة من هذه المدن كانت تؤدى مالاً لأحد ، ويقرر أن اعتمادها فى معاشها كان على التجارة بالدرجة الأولى ، خصوصاً بين بلاد السودان والأندلس .

وإذا كانت هذه الكيانات الصغيرة قد عاصرت كيانات كبيرة فى مراحل تالية ، فإنها كانت ترتبط بها على نحو أو آخر ، أو كان يتم استيعابها داخل هذه الكيانات ، مع احتفاظها بقدر من خصوصيتها .

وليس عملنا هنا إن نرصد هذه الكيانات جميعها ، إنما نحن نشير إلى بعضها ، وما رفع شعارات صفرية على نحو محدد .

والصفرية فرقة من فرق الخوارج ، والحق ـ نذهب ـ إن الخوارج ليسوا مذهبًا واحدًا ، إنما هم مجموعة مذاهب ، وما يجمعهم أقل مما يفرق بينهم ، وأهم ما يجمعهم هو موقفهم من الإمامة (أو الخلافة) ، وإنها حق لأى مسلم أهل لها ، عربيًا كان أم غير عربى ، ويختلفون فى معظم ما يأتى بعد ذلك .

وينتسب الصفرية إلى زياد بن الأصفر أحد قادة الخوارج بالمشرق ، ويقفون موقفًا وسطًا بين الأزارقة ، وهم غلاة الخوارج الذين كفروا من سواهم من المسلمين ، والإباضية الذين لم يكفروا من سواهم من المسلمين . ويذهبون ـ أى الصفرية ـ إلى عدم تكفير القعدة عن القتال ، ويفرقون بين الكبائر ، فبعضها فقط هو الذى يؤدى إلى الكفر ، وعلى هذا فهم ـ من الناحية العملية ـ لم يكفروا المسلمين كافةً ، وإن كفروا بعضهم خاصةً .

عندما انتهت الثورة البربرية الكبرى (وهى ثورة صفرية) فى سنة ٧٤٣/١٢٥ لاذ عدد من زعمائها ـ بينهم صالح بن طريف ـ بالمغرب الأقصى ، واستمال قبيلة بَرْغَواطة المصمودية[1] فى إقليم تامسنا ـ بين وادى سبو ووادى أبى الرقراق (بورجرج) ـ وأقام دولة (أو دويلة) للصفرية عمرت سنوات طويلة حتى زمن المرابطين .

ترتبط برغواطة عند المؤرخين بمجموعة من الضلالات ، دعوها بزندقة برغواطة ، من معالمها أن كان لهم قرآن غير القرآن . ويذهب سعد زغلول عبد الحميد إلى إنهم لم يبتدعوا قرآنا خاصًا بهم ، إنما هم ترجموه (أو معانيه) إلى لغتهم ، بهدف أن يكرسوا استقلالهم ، وكان من شأن هذه المحاولة الطموح ـ يذهب ـ أن رماهم أعداؤهم بكل نقيصة ، سيما وإنهم حافظوا على

(١) يذهب البعض إلى إنها ليست قبيلةً واحدةً ، وإنما كانت تجمعًا لأخلاط من عدة قبائل .

عادات توارثوها عن ماضيهم الوثنى القديم ، كما إنهم سعوا لأن يستبدوا بقبائل أخرى مجاورة لهم .

إلى قاصية الجنوب من المغرب الأقصى على تخوم الصحراء المفضية إلى بلاد السودان ، قامت دولة أخرى (أو إذا شئنا دويلة) صفرية ، كان لها شأنها لما يزيد على القرنين من الزمان .

فى سنة ٧٥٧/١٤٠ لاذ جماعة من أصحاب ميسرة ، ينتمون إلى قبيلة مكناسة الزناتية ، بمكان يقع إلى الشمال من وادى درعة ، واختاروا لإمامتهم رجلاً سودانيًا يدعى عيسى بن يزيد الأسود ، وشرعوا فى بناء مدينة دعوها سجلماسة .

لسبب نجهله قتل هؤلاء الصفرية إمامهم هذا بعد سنوات ، وجعلوا مكانه واحداً منهم يدعى أبا القاسم سمغون بن واسول ٧٧٢/١٥٥ ـ ٧٨٤/١٦٨ ، وتسمى أحد أحفاده بمدرار ، فنسبت إليه الدولة .

رغمًا عن طول العهد بهذه الدولة ، فلم يصل إلينا من أخبارها سوى اليسير ، ومعظم هذه الأخبار تتصل بنزاعات على السلطة فى الداخل ، أو صراعات مفروضة عليها فى الخارج ، وفى الأحوال جميعها ، لم تكن سلطة إمامها تجاوز كثيراً أسوار الحضرة إلى ما جاورها من أنحاء .

بطبيعة الحال فإن هذه الدولة (أو الدويلة) سوف تتأثر بسياسات الدول الكبيرة فى بلاد المغرب (والأندلس أيضًا) ، وما كان ينشأ بين هذه الدول من تناقضات ، وتراوحت مواقف أئمتها بينها ، وصانع بعضهم الأمويين ، وصانع بعضهم الآخر الفاطميين ، ومنهم من خطب للعباسيين ، ولم يعد للمذهب خطره الذى كان له فى الصدر الأول ، بل إن أحد أئمتهم المتأخرين عدل عن هذا المذهب إلى مذهب مالك فى العام ٩٥٣/٣٤٢ .

والسبب الذى يكمن وراء هذه السياسة هو أن سجلماسة بموقعها كانت تعتمد فى معاشها على التجارة ، فكانت تتحكم فى الطرق المؤدية إلى بلاد السودان ، وكانت المحطة التالية لها هى أُودَغَشْت التى تبعد عنها مئات الأميال عبر الصحراء .

سعى الأئمة المداريون إلى أن يوفروا المناخ السياسى الملائم للتجارة فأقاموا علاقات طيبة مع الأئمة الرستميين فى تاهرت ، وتزوج مدرار نفسه بابنة لعبد الرحمن بن رستم ، ودعى ولده منها ـ وقد ولى الإمامة ـ بابن الرستمية ، وأقاموا علاقات طيبةً أخرى مع الأمراء ـ ثم الخلفاء ـ الأمويين فى قرطبة . ونشروا العدل بين رعاياهم ، ولم يتعسفوا معهم فى جبايات ، ورحبوا بالتجار الوافدين إليهم ـ وخاصةً تجار الأندلس ـ وعنوا بعملتهم ، وصارت الدنانير الشاكرية (نسبةً إلى أحدهم) مضرب المثل ، من حيث دقة السك وعيار الذهب.

صارت تتجمع فى سجلماسة حاصلات المغرب والأندلس ، من صناعات معدنية ونسيج وأسلحة وورق وزيت ، وحاصلات بلاد السودان ، من تبر وقطن وملح وعاج وخشب ورقيق ، وأضحت سجلماسة أهم مدينة تجارية فى المغرب الأقصى ، مثلما أضحت تاهرت أهم مدينة تجارية فى المغرب الأوسط .

إلى جانب التجارة أفادت سجلماسة من النهر المجاور لها ويدعى زيز ، كما أفادت أيضاً من المناجم المجاورة لها فى إقليم درعة .

ترتب على ذلك انتعاش نوّه إليه الرحالة والجغرافيون المسلمون ، ومنهم ابن حَوْقَل (ت٣٦٧هـ) الذى يشيد بدورها الشاهقة ، ذات الطابع الأندلسى الجميل .

لم يقف الأمر عنه هذا الحد ، فقد نشط أهل سجلماسة فى نشر الإسلام

بأودغشت وولاته وتُنْبُكْت وجاو وغيرها من مدن السودان ، بل هم الذين نشروا الإسلام - في بعض الأقوال - عند صنهاجة الصحراء (أو صنهاجة اللثام) الذين نتحدث عنهم في موضع آخر من كتابنا .

ورغمًا عن حرص أئمة سجلماسة على اجتناب التورط في مشكلات مع الدول الكبيرة المجاورة لهم ، إلا أن مدينتهم تعرضت للغزو غير مرة ، إلى أن سقطت السقوط النهائي في سنة ٩٧٨/٣٦٧ على يدي خزرون بن فُلْفُل (أو فلفول) بن خزر المغراوي الذي دخلها باسم الأمويين ، وظلت أسرته تحكم في سجلماسة حتى مقدم المرابطين .

4 - الأدارسة :

كان العلويون - أبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه - يعتقدون إنهم أولى بالأمر من بني أمية ، وعلى ذلك تعددت ثوراتهم ضد الدولة وعندما شرع العباسيون في الدعوة لأنفسهم ، فإن هذه الدعوة رفعت شعار « الرضا من آل محمد » ، وذلك احتياطًا منهم ، واجتنابًا لصراع مع أبناء عمومتهم العلويين .

بعد أن نجح العباسيون في إقامة دولتهم ، سعوا من أجل أن يقصروا حق الخلافة عليهم ، دون غيرهم من أبناء البيت الهاشمي ، وكان معنى ذلك أن يعاود العلويون ثوراتهم ضد الدولة ، وأهم هذه الثورات في الصدر الأول ثورة محمد النفس الزكية ، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ، وقد نشبت هذه الثورة في الحجاز في سنة ٧٦٢/١٤٥ ، وأسفرت عن مصرع قائدها وعدد من أفراد بيته الحسنيين .

تجددت الثورة في سنة ٧٨٦/١٦٩ ، وشارك فيها بعض إخوان النفس الزكية ، وعقب قمعها هرب إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن

على بن أبى طالب إلى بلاد المغرب .

كان اختيار إدريس لبلاد المغرب اختياراً موفقاً ، لنأى هذه البلاد عن مركز الدولة من ناحية ، ولأنها صارت فى معظمها خارج حدود هذه الدولة من ناحية أخرى ، ونشطت بها الفرق المناهضة من إباضية وصفرية .

ولما كان من الصعب على إدريس أن يقيم بإفريقية ، حيث عمالها من بنى المهلب العباسيين ، وكان من الصعب عليه كذلك أن يقيم بالمغرب الأوسط ، حيث أئمته من بنى رستم الإباضيين ، فإنه استقر بالمغرب الأقصى ، حيث تتوافر العزلة عن سائر بلاد المغرب ، ولا ينفتح عليها إلا من بوابة تازا ومجرى نهر ملوية .

استقر إدريس مديدة بمدينة طنجة ـ وهى قصبة البلاد ـ لكنه غادرها إلى مدينة وَليلَى Volubilis ، وطيلة هذه الرحلة صاحبه مولاه راشد الذى كان خير معين له ، فى التخفى عن عيون العباسيين وغير العباسيين .

فى سنة ٧٨٨/١٧٢ نزل إدريس ومولاه بوليلى على قبيلة أوربة ، وكانت قد استقرت بهذه المنطقة ، بعد هزيمتها إبان الفتوح ، وأحسن زعيمها إسحق ابن محمد بن عبد الحميد وفادته ، ثم انتشر أمر إدريس بين القبائل المجاورة ، وأعان على ذلك وجود بعض المذاهب المنحرفة عن صحيح السنة ، وخاصة بين قبيلة برغواطة ، التى سيطرت على مساحات واسعة فى المغرب الأقصى ، وكانت سائر القبائل تتوق إلى التخلص من سيطرة هذه القبيلة وزندقتها التى دعيت بزندقة برغواطة .

خلال شهور قليلة بعد مقدم إدريس ، استطاع أن يحصل على مبايعة قبيلة أوربة وقبائل من زناتة وغيرها ، وتلقب فى رمضان ١٧٢/فبراير ٧٨٩ بالإمامة ، وفى أعقابها قام بحملة إلى إقليم تامسنا ، حيث قبيلة برغواطة ، وافتتح مدينة

سَلا القديمة ، على ضفة بورجرج ، ثم أخضع إقليم تادلة ، وقام فى العام التالى بحملة إلى تلمسان بالمغرب الأوسط ، حيث دخلها وابتنى مسجداً جامعاً بها ، وعاد إلى وليلى وقد صارت له دولة تمتد من تلمسان إلى تامسنا ، ومن طنجة إلى وادى الربيع .

حين توافت أخبار إدريس إلى المشرق ، فزع لها الخليفة الرشيد . فللمرة الأولى يستطيع العلويون تأسيس دولة خاصة بهم ، وخشى أن يحفزهم هذا النجاح ، خارج حدود الدولة العامة ، إلى نجاحات أخرى داخل حدودها . ولما كان من الصعب عليه أن يبعث بجيشه إلى هناك ، فإنه - فيما يروى - احتال ، فبعث بشخص يدعى سليمان بن جرير واشتهر بالشَمَّاخ ، تَظاهر بالتشيع لآل على بن أبى طالب ، فأكرمه إدريس ، وقربه إليه ، ثم دس الشماخ له السم ، فمات فى سنة ٧٩١/١٧٥ ، وهرب الشماخ إلى مصر ، وكافأه الرشيد بأن أسند إليه بريدها .

كان إدريس - لدى مقدمه - وحيداً منقطعًا عن أهله بالمشرق ، وكادت الدولة التى بدأها تنهار لدى رحيله المفاجئ ، وعالج راشد الموقف ، بأن أعلن أن كنزة مولاة الإمام الراحل حامل منه ، وانتظر البربر ما يسفر عنه حملها ، فولدت ولداً دعى أيضًا بإدريس ، كفله راشد وعلمه الشعر والأدب وفنون الحرب ، ثم بايعه إمامًا فى ربيع الأول ٨٠٢/١٨٦ .

تعرض إدريس - وهو ما يزال صبيًا - لدسائس الأغالبة أصحاب إفريقية ، فقد مات راشد بعد يسير ، وأشيع إن لهؤلاء يداً فى موته ، ثم إنهم لم يتوقفوا عند هذا الحد ، فقد استمالوا إسحق زعيم قبيلة أوربة ، لكن إدريس قتله فى سنة ٨٠٨/١٩٢ ، واستقرت فى يديه كل السلطات .

يعد إدريس بن إدريس هو المؤسس الحقيقى للدولة الإدريسية ، وقد رأى من

اللازم عليه أن ينتقل من وليلى إلى مدينة أخرى ، يؤسسها بعيدةً عن قبيلة أوربة ، خصوصاً وقد توافت إليه قبائل عربية ـ قيسيةً ويمنيةً ـ ومال إدريس إلى هذه القبائل ، وأجزل صلاتها وجعل منها وزيره عمير بن مصعب الأزدى الملقب بالملجوم .

إختار الوزير لأميره موضعًا على أحد فروع نهر سبو بين جبلين ، يدعى بوادى فاس ، ومنه اشتق اسم المدينة ، التى صارت فى واقع الأمر مدينتين ، إحداهما على الضفة الشرقية للنهر ، ودعيت بعدوة الأندلسيين (نسبةً إلى المهاجرة من أهل الأندلس) والأخرى على الضفة الغربية للنهر ، ودعيت بعدوة القرويين (نسبةً إلى المهاجرة من أهل القيروان) .

أحسن إدريس اختيار موضع مدينته ، لتوافر المياه به ، وتوسطه بين سهول المغربين الأقصى والأوسط ، ولا يخفى أيضًا كونه على الطريق التجارية الواصلة بين طنجة فى قاصية الشمال وسجلماسة فى قاصية الجنوب .

فى سنة ٨١١/١٩٦ ـ ٨١٢ انتقل إدريس وسائر أجناده ـ عربًا وبربر ـ إلى مدينته فاس ، وانتقل بانتقاله تجار وصناع وسوقة ، بل انتقل إليها عدد من اليهود ، واستقلوا بحى خاص بهم ، وقد نمت هذه المدينة ، وتطورت عبر العصور . ويصفها اليعقوبى لدى زيارته لها بالمدينة العظمى والمدينة الجليلة ، ورغماً عن انتقال العاصمة ـ فى عصور تالية ـ إلى مدن أخرى غيرها ، إلا إنها ظلت دائمًا من المدن الأساسية فى المغرب الأقصى ، بل إن بنى مرين اتخذوها عاصمةً لهم ، وكذلك فعل بعض سلاطين الأشراف العلويين .

بعد أن انتهى إدريس الثانى من إنشاء مدينته والاستقرار بها ، بدأ فى سنة ٨١٢/١٩٧ سلسلةً من الحملات ، لتأمين حدود دولته ، فغزا السوس الأقصى، وأخضع قبيلة مصمودة ، كما غزا تلمسان ، حيث أقام ثلاث سنوات ،

وأخضع قبيلتي نفزة الموالية للرستميين وزناتة ، وأصلح أسوار المدينة ، وجدد جامع أبيه بها ، ثم عاد إلى فاس في سنة ٨٠٨/٢٠٢ ، ليستقبل جالية الأندلس ، الذين هاجروا إلى فاس ، بعد ثورتهم الشهيرة بالرَّبض ، وسمح لهم بالإقامة في عدوة الأندلسيين .

في سنة ٨٢٨/٢١٣ مات إدريس بن إدريس ، وخلفه ولد محمد الذي استن تقليداً جديداً ، هو أن يقسم أقاليم دولته بين إخوانه الثمانية ، واكتفى هو بفاس وحدها . ويقال إن جدته كنزة كانت وراء هذا التقسيم ، لأن إدريس كان وحيداً ليست له عزوة ، فأرادت باشراك ولده جميعهم في حكم الدولة أن تتحقق هذه العزوة . على إنه مما لا شك فيه إن هذا التقسيم أدى إلى مشكلات عديدة عانت منها الدولة الإدريسية ، فيما يلي ذلك من سنين ، فقد ثار بعض هؤلاء الإخوان ، ورأى محمد بن إدريس أن يضرب الواحد منهم بالآخر ، واستعان في ذلك بأخيه عمر ، الذي ضم إلى أعماله أعمال إخوانه الثائرين ، وأضحت هذه الأعمال ، تضم نحو نصف مساحة الدولة ، ولدى وفاة عمر بن إدريس ، خلفه في أعماله ولده على بن عمر بن إدريس .

في سنة ٨٣٦/٢٢١ مات محمد بن إدريس ، فخلفه ولده على ، وكان صبيًا صغيراً ، لكنه ما كاد يشتد عوده ، حتى مات وهو في سن الشباب ، ليخلفه في سنة ٨٤٩/٢٣٤ أخوه يحيى ، الذي بلغت الدولة في عهده شأناً كبيراً ، فقد ازداد عمران فاس ، وقصد إليها الناس من أنحاء المغرب والأندلس ، حتى ضاقت بسكانها ، فابتنى يحيى عدة أرباض خارجها ، واهتم بتزويدها بالحمامات والفنادق .

وإلى عهد يحيى هذا يعود إنشاء جامع القرويين المشهور الذي أضحى ـ فيما بعد ـ جامعةً إسلاميةً مرموقة ، وينسب هذا الجامع إلى سيدة قرشية ، تدعى فاطمة الفهرية ، ورثت مالاً جسيمًا ، فأرادت أن تنفقه في وجوه الخير ،

بأن تبنى هذا المسجد فى سنة ٨٦٠/٢٤٥ ، وكان فى بدايته صغيراً ، إذ احتوى على أربع بلاطات أى أروقة عريضة ، موازية لحائط القبلة وصحن صغير ،لكنه اتسع مع الزمن ، خصوصًا فى عهد سيادة أموية الأندلس ، وصار من المساجد الجامعة المشهورة .

توفى يحيى بن محمد بن إدريس فى تاريخ غير معروف ، وخلفه ولده يحيى ابن يحيى ، ولم يكن له شىء من الفضل الذى كان لأسلافه ، إذ انهمك فى ملذاته ، فثارت العامة ضده وعزلوه ، ومات فى ظروف غامضة ، وبموته انتقلت الإمامة من بيت محمد بن إدريس إلى بيت عمر بن إدريس .

واجه على بن عمر بن إدريس ـ وهو الإمام السابع من أئمة الأدارسة ـ ثورةً قام بها الصفرية من قبيلة مديونة ، بزعامة أحد المهاجرين الأندلسيين ، يدعى عبد الرزاق الفهرى ، وقد استطاع أن يستولى على عدوة الأندلسيين ، لكن استعصت عليه عدوة القرويين ، وكان الموقف المتخاذل للإمام وهربه من العاصمة ، عندما أحدق بها الخوارج ، حافزاً لأهلها إلى خلعه ، وتوليتهم يحيى ابن القاسم بن إدريس ،فتمكن من القضاء على الثورة ، واستطالت إيامه إلى سنة ٩٠٥/٢٩٢ . وبعد وفاته خلفه يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس ، ويصفه ابن خلدون (ت١٤٠٦/٨٠٨) بأنه « أعلى بنى إدريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً ، وكان فقيهاً عارفًا بالحديث ، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » .

فى سنة ٩١٧/٣٠٥ زحف الفاطميون بقيادة مصَالة بن حُبوس المكناسى إلى فاس فخرج له يحيى بن إدريس ، والتقى به على مكناسة الزيتون ،فهزم هزيمةً شديدةً ، وارتد إلى فاس ، حيث حاصرها مصالة ، ثم صالحه على مال يؤديه ، ومبايعة عبيد الله المهدى ، ثم عاود مصالة غزو فاس فى سنة

٩٢١/٣٠٩ ودخل المدينة ، وأنهى حكم يحيى بن إدريس وحبسه ، ثم أطلقه ليموت بعد سنوات فى منفاه بالمهدية .

صار موسى بن أبى العافية المكناسى واليًا على المغرب الأقصى من قبل الفاطميين ، لكن الأدارسة عاودوا الثورة وأيدتهم أوربة وغمارة وغيرهما من المصامدة والصنهاجيين ، وظفروا بموسى فى بعض المعارك ، لكنهم هزموا فى نهاية الأمر ، وعاود موسى اقتحام فاس فى سنة ٩٢٥/٣١٣ ، وأمر بنفى من تبقى من الأدارسة إلى قلعة بجبال الريف ، تدعى بحَجَر النَّسْر ، ليبدأ الأدارسة تاريخًا جديدًا لهم .

فى مستقرهم بشمالى المغرب اندمج الأدارسة فى البربر المحيطين بهم ، حتى فقدوا الكثير من خصائصهم العرقية ، وصاروا يعدون فى جملتهم ، ولم يلبثوا أن عادوا إلى مسرح الأحداث من جديد ، ويرتبط دورهم هنا بالصراع بين الخلافتين الأموية والفاطمية على المغرب الأقصى ، كما إن بعض الأدارسة ويدعون بالحموديين ، استطاعوا أن يصلوا إلى كرسى الخلافة فى قرطبة ، عندما اضطرب أمر بنى أمية فى مطالع القرن الخامس / الحادى عشر .

مما تجب ملاحظته أن الدولة الإدريسية ، رغمًا عن انتمائها إلى البيت العلوى الحسنى ، لم تكن دولةً شيعيةً بالمعنى المتداول ، إذ كان لمذهب مالك حضوره الواضح فى هذه الدولة ، وإدريس الأول نفسه يقول عن مالك « نحن أحق بإتباع مذهبه وقراءة كتابه » . والراجح لدينا ما يذهب إليه العروى من أن دولة إدريس كانت دولةً زيديةً ، وللإمام الأول رسالة تعد فى أدبيات المذهب الزيدى ، والمعروف أن هذا المذهب هو أقرب مذاهب الشيعة إلى مذاهب أهل السنة .

مما تجب ملاحظته كذلك أن الأدارسة ـ فى جملتهم ـ ساروا فى رعاياهم

سيرةً طيبةً ، ونهجوا فى حكمهم نهج الشورى ، ولم يرهقوهم بجبايات ثقيلة ، كما إنهم عاشوا حياةً بسيطةً بعيدةً عن الترف ،ولم تكن لهم عصبية تسندهم ، ولا أجناد مرتزقة يعتزون بهم ، واختلطوا بأهل البلاد وأصهروا إليهم ، حتى فشا نسلهم ، وما يزال أحفادهم يحظون بمكانةً عاليةً فى نسيج المجتمع المغربى حتى أيامنا هذه .

أخيراً فإن الأدارسة بمقدمهم إلى المغرب الأقصى ، وإقامة دولة لهم هناك ، أعانوا على تعريب المغرب ، بتشجيعهم اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية ، وازدهار هذه العلوم بالمساجد الجامعة خصوصاً القرويين .

ويجب ألا نغفل استقدامهم لقبائل عربية قيسيةً ويمنية ، واشتغال بعض أبناء هذه القبائل أجناداً للدولة ، وإذا كان الأدارسة قد أخفقوا فى القضاء على زندقة برغواطة التى عادت تطل برأسها منذ العام ٢٢٧/٨٤١ ، فإن ذلك سوف يكون شأن المرابطين فى مرحلة لاحقة .

الفصل الرابع

الفاطميون وخلفاؤهم

١ ـ الفاطميون :

الأصل فى مذهب الشيعة أن عليًا رضى الله عنه أحق بالخلافة (أو الإمامة) من معاوية ، ثم امتد هذا المذهب إلى أنه أحق من غيره إطلاقًا ، ومادام قتل ، فإن هذا الحق يمتد إلى عقبة ، ثم إنه مادامت الإمامة وريثة النبوة ، يصير الإمام معصومًا وطاعته ملزمة .

تراوحت فرق الشيعة بين الاعتدال والتطرف ، وأهم الفرق المعتدلة الزيدية والإمامية ، وتذهب الفرقة الأولى إلى أن الإمام معين بالوصف وليس بالشخص، ويجوز ولاية المفضول مع وجود الأفضل ، وتذهب الفرقة الأخرى إلى أن الإمام معين بالشخص وليس بالوصف ، فعلى عين بوصية من النبى ﷺ ، والأوصياء بعده ولداه الحسن ثم الحسين ، ثم على زين العابدين بن الحسين ، ثم محمد الباقر بن على زين العابدين ، ثم جعفر الصادق بن محمد الباقر .

يختلف الإمامية فيمن تلا جعفر الصادق من الأئمة ، فيذهب بعضهم إلى أن الإمام هو ولده موسى الكاظم ، واحتفظ هؤلاء باسم الإمامية ، ودعوا بالإثنى عشرية (أو الجعفرية) ، ويذهب البعض الآخر إلى أن الإمام هو ولده الآخر إسماعيل ، ودعى هؤلاء بالسبعية (أو الإسماعيلية) .

يشارك الإسماعيلية الجعفرية فى معظم ما يدعون ، وبخاصة فكرة العصمة وفكرة المهدوية ، لكنهم ـ بعد ذلك يغالون ، ويضيفون أفكارًا أخرى ، ليس هنا مكانها ، ولم يكن غيرهم من المسلمين ـ سنةً وشيعةً ـ راضين عنها تمام الرضا واعتبرها بعضهم أفكارًا غير إسلامية .

تتسلسل الإمامة عند الإسماعيلية ، فتنتقل من إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ولده محمد المكتوم بن إسماعيل ، ثم جعفر المصدق بن محمد المكتوم ، ثم محمد الحبيب بن جعفر المصدق ، ثم عبيد الله بن محمد الحبيب ، وهو أصل الدولة الفاطمية .

حرص الأئمة الإسماعيلية على نشر دعوتهم سراً ، فكان الإمام من مستقره بتسلَمْيَة من أعمال حمص ، يرسل الدعاة إلى مختلف الأنحاء يروجون للمذهب الإسماعيلى ، ويبشرون باقتراب يوم المهدى المنتظر ، وركز هؤلاء الدعاة على الأمصار النائية ، ومنها بلاد اليمن .

استطاع ابن حوشب الداعية الفاطمى فى اليمن أن يحقق نجاحات كبيرة للدعوة ، وامتدت سيطرته إلى معظم أنحاء اليمن ، ودخلت صنعاء فى حوزته ، ولما علم الإمام الإسماعيلى بذلك لقبه بالمنصور ، وأذن له بأن يرسل دعاةً من قبله إلى أمصار أخرى خارج اليمن .

تطلع الإمام محمد الحبيب إلى أن تمتد دعوته إلى بلاد المغرب ، وإذا كانت هذه البلاد قد تفردت ـ شأنها شأن اليمن ـ بالتنائى عن مركز الدولة الإسلامية فى بغداد ، وتفردت أيضاً بوعورتها ، مما يسهل معها أن تحتضن دعوةً مطاردةً فى المشرق ، إلا أن بلاد المغرب كانت أرضاً غريبةً بالنسبة للشيعة ، فقد تسربت إليها الفرق الخارجية والإباضية ، وسيطرت على أنحاء متفرقة منها ، كما إن مذهب مالك تحقق له الانتشار ، حتى عند الأدارسة العلويين فى قاصية البلاد .

الرأى عندنا أن الدعاة الإسماعيلية نفذوا إلى هذه البلاد من منفذ القبيلة لأن الدول التى طال بها العهد فى بلاد المغرب ، لم تستطع أن تقضى على العصبية القبلية ، وأحياناً ما كانت تستند فى حكمها إلى قبيل واحد تتعصب

له، كما إن هؤلاء الدعاة بترويجهم لفكرة المهدى المنتظر الذى يأتى آخر الزمان، ليملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت ظلمًا وجوراً ... هذه الفكرة كانت تجد استجابةً كبيرةً عند قوم بسطاء ، يأخذون بأسباب البداوة ، أكثر مما يأخذون بأسباب الحضارة .

كان الحسين بن أحمد الذى عرف ـ بعد ـ بأبى عبد الله الداعى أو الشيعى يمنيًا من أهل صنعاء ، عرف بالتشيع منذ صباه ، والتقى بالإمام محمد الحبيب الذى أعجب به ونباهته ، فأرسله إلى ابن حوشب فى بلاد اليمن ليتلقى على يديه أصول الدعوة وأسرارها قبل أن يتوجه إلى بلاد المغرب .

بعد أن أقام أبو عبد الله الشيعى سنوات فى بلاد اليمن ، توجه حاجًا إلى بيت الله الحرام ، وهناك التقى ببعض رجال من قبيلة كتامة ، فأخذهم بحلو حديثه ، وما أظهره من عبادة ونسك ، ونشأت علاقة طيبة بينهم وبينه ، ورحبوا به وافداً إليهم يفقههم فى شئون دينهم .

أحسن أبو عبد الله الشيعى باستمالة هؤلاء الرجال من كتامة ، فقد كانت قبيلةً جبليةً شديدة المراس ، تتحين الفرصة لأن تساهم بدور لها فى الحياة العامة التى سبقتها إليها قبائل أخرى من البربر .

فى سنة ٢٨٠/ ٨٩٣ وصل أبو عبد الله إلى إيكجان فى بلاد كتامة بجبال أوراس ، وتنافس أبناء القبيلة فى إكرامه ، فبدأ بتعليم الصبيان ، وصار يخطب فى الناس ويؤمهم ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويظهر التقشف والزهد ، ثم شرع يبشرهم باقتراب موعد المهدى فصدقوه ، ولم يلبث أن ناظر بعض علمائهم الذين راودهم الشك فى دعوته فغلبهم ، ثم أسفر فى النهاية عن مقصده فقال : « أنا لا أدعوكم لنفسى ، وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت » .

انتشرت دعوة أبى عبد الله سريعًا فى إقليم الزاب ، حيث بلاد كتامة ، وأعان على ذلك سوء سيرة الأغالبة الأواخر ، وبدأ الصدام بينه وبينهم فى سنة ٢٨٩/ ٩٠٢ ، وبعد ثلاث سنوات حقق أبو عبد الله أول نصر كبير له فى وقعة كينونة ، وظفر بمغانم طائلة ، وأرسل بخبر هذه الوقعة إلى عبيد الله المهدى ـ خليفة محمد الحبيب ـ بسلمية ، فتنكر هذا بدوره فى هيئة تاجر ، وارتحل ومعه ولده أبو القاسم محمد إلى مصر ، ومنها إلى القيروان فقسنطينة ، ثم استقر به المقام عبد بنى مدرار فى سجلماسة بالمغرب الأقصى .

خلال السنوات التالية لوقعة كينونة استولى أبو عبد الله على طبنة عاصمة الزاب ، كما استولى على توزر عاصمة الجريد ومدن غيرها ، وجرت الوقعة الفاصلة بينه وبين الأغالبة فى الأربس فى ٢٣ من جمادى الآخرة ١٨/٢٩٦ من مارس ٩٠٩ ، وعلى أثر ذلك فر زيادة الله الثالث إلى مصر ، واقتحم أبو عبد الله رقادة ، ثم دخل القيروان ، وأسقط اسم الخليفة العباسى من الخطبة والسكة .

ما كاد أبو عبد الله يستقر بمدينة القيروان ، حتى علم بأن اليسع بن مدرار ٨٨٣/٢٧٠ ـ ٩٠٩/٢٩٧ صاحب سجلماسة قد تغير على سيده عبيد الله المهدى وحبسه ، فاستخلف أبو عبد الله على القيروان أخاه أبا العباس ، وزحف إلى سجلماسة ، وفى طريقه اجتاز بتاهرت ـ حاضرة الرستميين ـ وأدخلها فى حوزته ، ولدى وصوله إلى سجلماسة كان ابن مدرار قد زال عنها إلى حيث هلك فى ظروف غامضة ، وحرر أبو عبد الله سيده ، وسار معه إلى أن دخل رقادة فى ٢٠ من ربيع الآخر ٢٩٧ / ٧ من يناير ٩١٠ ، ليبدأ عهداً جديداً فى بلاد المغرب .

كان دخول المهدى رقادة يعنى إن هناك خلافة ثانية أعلنت هى الخلافة

الفاطمية ، ومثلما بطش المنصور العباسى بأبى مسلم الخراسانى ـ وهو صاحب دولته ـ فإن المهدى الفاطمى بطش بأبى عبد الله الشيعى ـ وهو أيضًا صاحب دولته ـ وفى الحالين ، فقد تحددت الأسباب فى أن صاحب الدولة صارت له سلطة واسعة وعصبية وشوكة ، تحد من سلطة صاحب الدعوة ، وقد تم للمهدى ما أراد بعد عام من ولايته ، ولما أبدى بعض زعماء كتامة استياءهم من قتل أبى عبد الله وتحركوا ضده وتنادوا إلى مهدى آخر ، لم يتردد المهدى فى البطش بهم ، وبدأ انحرافه عن كتامة إلى صنهاجة ، كما بطش بأهل طرابلس الذين ثاروا عليه وأيدتهم قبيلة هوارة .

شعر المهدى بحاجته إلى مدينة يحفظ بها دولته ، ولم تكن رقادة بالداخل (ولا القيروان) بالمدينة المناسبة بحكم كونها قلعةً للمذهب المالكى ، ولأن موقعها لا يدفع عنها الغزاة ، فآثر أن يتخذ عاصمته على الساحل بين سوسة وصفاقس ، على رأس بارز فى البحر ، وجعل فى الأرض بين السور والبحر مرفأً محصنًا بسلاسل حديدية ، وأجرى قناة لتزود مدينته بالمياه ، كما زودها أيضًا بمواجل وصهاريج وأهراء قمح ، وابتنى قصوراً ومساجد ودار صناعة ، وعندما اكتمل عمران المدينة ، انتقل المهدى إليها فى سنة ٣٠٨/ ٩٢١ ، وقد اطمأنت نفسه ، وقال : « اليوم أمنت على الفاطميات » .

أحسن المهدى بإنشائه المهدية ، لأنها سوف تستعصى على الغزو سنوات طويلة ، من قبل النورمان والعرب الهلالية ، وصارت قاعدةً كبيرةً للجهاد فى بحر الروم .

كان من الطبيعى بعد أن استقر الفاطميون فى إفريقية والمغرب الأوسط أن يتطلعوا إلى المغرب الأقصى ، ومع أنهم فقدوا سجلماسة ، بعد قليل من مغادرة المهدى لها ، وعاود المدراريون حكمها ، إلا أنهم تكرروا بحملاتهم عليها ،

وأدخلوها فى حوزتهم على فترات متقطعة ، ثم هم تمكنوا بالفعل من إزالة دولة الأدارسة ، ودخل قائدهم موسى بن أبى العافية المكناسى فاس فى سنة ٣١٣/ ٩٢٥ ، وبدا أن بلاد المغرب جميعها صارت فاطمية .

فى فترة باكرة تعود إلى سنة ٣٠١ / ٩١٤ بدأ المهدى فى توجيه حملاته إلى مصر ، وللعروى فكرة ، ربما تبدو مقبولة ، هى إن عبيد الله المهدى سعى ، بعد أن استقرت دولته فى بلاد المغرب لأن تصير هذه الدولة دولةً عامةً ، شأنها شأن الدولة العامة الأخرى ، وهى الدولة العباسية ، وراوده الأمل فى أن تحل محلها ، وهو الذى يفسر ابتناءه المهدية على ساحل البحر ، وفى حملاته المتكررة إلى مصر ، بله سياسته المالية المتعسفة التى نعرض لها بعد .

كانت مصر إذ ذاك تعيش مرحلة الانتقال بين الدولتين الطولونية والإخشيدية ، ودارت حرب بين الجيشين العباسى والفاطمى فى برقة ، أسفرت عن ضمها إلى المهدى ، ثم سارت حملة بقيادة أبى القاسم بن المهدى ، فدخل الإسكندرية ، وتقدم منها إلى الفيوم على أنه اضطر إلى الانسحاب ، أمام القائد العباسى مؤنس الفتى ، وعاد أدراجه إلى المهدية ، ثم انتقضت برقة على الفاطميين ، وقتل أهلها من كان بها من الكتاميين ، غير أن ثورتهم لم يلبث أن تم إخمادها .

خرج أبو القاسم فى حملة ثانية إلى مصر فى سنة ٣٠٦/ ٩١٩ ، وعاود الاستيلاء على الإسكندرية ، ثم استولى على الفيوم والأشمونين ، فرد العباسيون بأن بعثوا باسطولهم من الشام ، فاقتتل مع الأسطول الفاطمى ، وأحرق كثيراً من سفنه ، ثم استعاد الإسكندرية ، واضطر أبو القاسم إلى الارتداد مرة أخرى .

قام الفاطميون فى سنة ٣٢١/ ٩٣٣ بحملة ثالثة ، وتصدى لهم هذه المرة محمد بن طغج الإخشيد ونجح فى هزيمتهم فى الجيزة وبلبيس ، وعاود

الفاطميون ارتدادهم ، وعدلوا عن مشروعهم الطموح فى ضم مصر ولكن إلى حين .

شغل الفاطميون فى المرحلة التالية بمشاكلهم فى بلاد المغرب ، وظلت هذه المشاكل تصاحبهم طيلة وجودهم فى هذه البلاد ، ثم صاحبت خلفاءهم من بنى زيرى بعد ذلك . وللعروى تفسير طيب لهذه المشكلات ، فالدولة الفاطمية قامت على أساس دعوة مذهبية متميزة عن غيرها ، ساندتها كتامة أولاً ثم صنهاجة ، لكنها بعد أن اتسع مدى هذه الدعوة لدى تحولها إلى دولة ، فإنها فقدت طابع التميز هذا ، وبدأ المغاربة مستعدين لتقبل دعوة أخرى غيرها .

رافق هذا الإطار الفكرى ظروف عامة ، تتصل بالتوسع الفاطمى – يستطرد العروى – فالفاطميون لدى توسعهم غرباً ، واستيلائهم على مدن تجارية هامة كتاهرت وسجلماسة ، فإنهم قطعوا طريق التجارة الواردة عبر الصحراء ، مما كان له أثره الفادح فى القبائل التى كانت تفيد من هذه الطريق ، وتقوم على حراستها ، وهم من زناتة ، كما كان له أثره الفادح كذلك على الدولة التى تنتهى إليها هذه الطريق وهى الأندلس .

ترتب على ذلك أن نشب صراع امتد سنوات طويلة بين الفاطميين وأوليائهم من كتامة وصنهاجة وبين الأمويين وأوليائهم من زناتة .

ترتب على هذا الصراع كذلك أمران هامان ، أولهما أن الصورة العامة له بدت كأنها صراع بين الحضر (كتامة وصنهاجة) والبدو (زناتة) ، وهو ما يروج له جوتييه ، والأمر الآخر أن زناتة باختيارهم الولاء لبنى أمية ، تدافعت أعداد كبيرة منهم بهجرتها إلى المغرب الأقصى ، مما أفضى إلى تغيير للتركيبة السكانية لهذا القطر .

إذا نحن تتبعنا الخريطة السياسية لبلاد المغرب ، بعد أن دخل الفاطميون

فاس فى سنة ٣١٣/ ٩٢٥ وأعلنوا نهاية الدولة الإدريسية ، نلاحظ أن أمراء هذه الأسرة لاذوا بقلعة حجر النسر فى جبال الريف ، وحاولوا لمدى طويل أن يستعيدوا ملكهم الضائع ، فوالوا فى أحيان بنى أمية ، ووالو فى أحيان أخرى خصومهم الفاطميين ، واستمروا على هذه الحال ، حتى انتهى أمرهم على يدى المنصور الأندلسى .

يهمنا على نحو أساسى موقف القبائل الزناتية ـ خاصة مكناسة ومغراوة وبنى يَفْرَن ـ من الدعوة الفاطمية ، فقد صادفت هذه الدعوة بعض القبول لديها، لكنها بعد سنوات قليلة طرحت هذا القبول ، واتخذت على نحو عام موقفاً مناهضاً من الفاطميين .

كان أهم زعماء زناتة فى هذا الإبان موسى بن أبى العافية المكناسى ، محمد بن خزَر المغراوى ، يعلى بن محمد اليفرنى . وقد استطاع هؤلاء وبنوهم على فترات متقطعة أن ينشؤا لهم كيانات مستقلة بدرجة أو بأخرى فى المغربين الأوسط والأقصى ، ودارت بينهم وبين الفاطميين ثم خلفائهم الزيريين صدامات دامية ، ولم يقدر لهذه الصدامات أن تنتهى إلا مع مقدم المرابطين .

أما عن بنى أمية ، فإن الفاطميين جاهروهم بعدائهم منذ البداية ، فأعانوا عمر بن حفصون الثائر فى جنوبى الأندلس ، مما حفز عبد الرحمن الناصر (٣٠٠/ ٩١٢ ـ ٣٥٠/ ٩٦١) إلى أن يعنى بأسطوله ، ليؤمن مياهه منهم ، ثم استولى على مليلة فى سنة ٩٢٦/٣١٤ وسبتة فى سنة ٩٣١/٣١٩، وجعلها قاعدة بحرية له ، وعقد الخناصر مع قبيلة زناتة ، وأعلن موسى بن أبى العافية طاعته للناصر ، فسير المهدى حملة إليه فى سنة ٣٢١/ ٩٣٣ ، لكنها هزمت ، واتسع مدى السيادة الأموية فى بلاد المغرب .

ترتب على صراع المهدى مع بنى أمية وأنصارهم من المغاربة أن انتهج مع

رعاياه سياسةً ماليةً ، صاحبها قدر من التعسف ، فاستكثر من الغرامات والمصادرات ، يأخذها من الناس غصبًا ، واستحدث ضرائب لم تكن البلاد تعرفها قبله ، مثل الضريبة التى فرضها فيما يقال على الحج إلى بيت الله الحرام ، إلى جانب أنه تشدد فى نشر المذهب الإسماعيلى ، وأمر بأن تكون الفتاوى به ، وبطش بمن تصدى له من الفقهاء المالكية ، بل إنه درج على أن يرتهن لديه أبناء الزعماء ، بزعم إعدادهم لخلافة آبائهم ، وكان من شأن هذا كله أن يشتعل الغضب بين البربر ، وبدأت القلاقل تنتشر فى أنحاء البلاد .

ما كاد المهدى يموت فى سنة ٣٢٢/ ٩٣٤ ، حتى ضجت بلاد المغرب بثورة كبيرة عمت إفريقية كافة ، واستغرقت عهد ولده أبى القاسم القائم بأمر الله (٣٢٢ / ٩٣٤ _ ٣٣٤ / ٩٤٦) وبعض عهد حفيده إسماعيل المنصور (٣٣٤ / ٩٤٦ _ ٣٤١ / ٩٥٣) .

ينتمى أبو يزيد مَخْلد بن كَيْداد _ ويعرف أيضاً بصاحب الحمار _ إلى بنى واسين وهم بطن من يفرن ، ونشأ فى قسطيلية من بلاد الجريد ، على مذهب الأباضية النكارية ، ثم ارتحل إلى تاهرت ، وشهد سقوط الدولة الرستمية فى سنة ٢٩٦/ ٩٠٩ فغادرها إلى تَقْيوس من مدن قسطيلية ، وابتاع ضيعةً أقام بها ، وانصرف إلى تعليم الصبيان ، وشرع فى سنة ٣١٦ / ٩٢٨ يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر .

بعد وفاة المهدى ارتحل أبو يزيد إلى جبال أوراس ، وانضم إليه جمع كبير من البربر الساخطين على الفاطميين ، وما أن قوى أمره ، حتى هبط من الجبال ، واقتحم إفريقية فى سنة ٣٣٢/ ٩٤٣ ، وسقطت فى يديه عدة مدن أهمها الأربس ، ثم دخل تونس ورقادة ثم القيروان ، حيث أبطل رسوم الفاطميين ، ودعا إلى جهادهم ، فلقى استجابةً من أهلها وعلمائها ، وتلقب بشيخ المؤمنين .

أرسل القائم إلى أبى يزيد جيشًا ، يقوده ميسور الفتى ، على أن فريقًا من الجيش انضم إلى الثائر ، ودارت معركة شديدة ، انتهت إلى هزيمة ميسور وقتله، فأمر أبو يزيد بأن يطاف برأسه فى القيروان ، وبعث بطاعته إلى الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر .

بعد هزيمة ميسور ، تأهب الخليفة القائم لحصار مرير فى المهدية فحفر حولها خنادق ، شحنها بالمؤن والزاد ، وبعث فى طلب العون من زيرى بن مَناد زعيم قبيلة صنهاجة ، وعلى بن حمدون (المعروف بابن الأندلسى) عامل المسيلة (فى الزاب) فى كتامة .

أحسن القائم التصرف ، لأن صنهاجة كانت مواليةً للفاطميين ، وعلى حال من العداء مع زناتة ، وهم أكثر أجناد أبى يزيد ، وصبرت المدينة على الحصار الذى دام ثمانية شهور ، واضطر الثائر إلى التخلى عنها ، كما إن ابن الأندلسى استرد الزاب ، وهزم هوارة الموالية لأبى يزيد .

ترتب على صمود المهدية أن خرجت سوسة على أبى يزيد ، فسار إليها وحاصرها ، وأعانها القائم بحراً ، فتقوى أهلها ، وألحقوا الهزيمة بخصمهم ، وفر إلى القيروان ، ومنعه أهلها من دخولها ، ثم دارت معارك عنيفة بين المنصور - الذى ولى بعد وفاة أبيه القائم - وأبى يزيد ، تبادلا خلالها النصر والهزيمة ، إلى أن تحقق النصر للفاطميين ، ودخلوا القيروان فى سنة ٣٣٥/ ٩٤٧ .

عندما اضطرب أمر أبى يزيد ، طلب عون عبد الرحمن الناصر ، لكن هذا العون لم يصل إليه ، فارتد إلى إقليم الزاب ثم إقليم الجريد ، والمنصور فى أثره ، إلى أن اعتصم بجبال أوراس ، حيث لحقت به الهزيمة فى قلعة كيانة ، وحمل جريحاً إلى المنصور فى المحرم ٣٣٦/ ٩٤٧ ، ولدى موته سلخ جلده وحشى تبناً، وطيف به فى أنحاء البلاد .

كان وقع الثورة ثم النصر شديداً على المنصور ، وخلد هذا النصر بأن ابتنى فى العام التالى مدينةً إلى جوار القيروان ، هى صبرة التى عرفت بالمنصورية ، وجعلها عاصمةً لدولته ، ولما ولى المعز ، نقل إليها أسواق القيروان وصناعاتها ، وأفل نجم المهدية بانتقال الخلفاء عنها .

عكف المنصور بعد قضائه على الثورة على تهدئة البلاد وتدعيم سلطة الدولة ، خصوصًا وأن خصمه الناصر أفاد من ثورة أبى يزيد ، فى أن يفرض سيادته على أنحاء واسعة من المغربين الأوسط والأقصى ، وصار يخطب له من تاهرت إلى طنجة .

اتبع المنصور سياسة الملاينة مع رعاياه ، حتى يأمنوا إليه ، ونجح فى استمالة بعض زعماء زناتة ، ومنهم محمد بن خزر المغراوى ، كما استعاد مدنًا هامة ، ومنها تاهرت وإن إلى حين ، وحظى بقبول عند جمهور المسلمين ، حين نجحت مساعيه مع القرامطة [١] ، فأعادوا الحجر الأسود إلى مكانه وكانوا قد اقتلعوه لدى غزوهم الأراضى المقدسة فى سنة ٣١٧/ ٩٢٩ .

مات المنصور فى سنة ٣٤١/ ٩٥٢ ، وخلفه ولده مَعَد الذى تلقب بالمعز لدين الله .

كان الشغل الشاغل للمعز هو إعادة المغرب الأقصى إلى طاعة الدولة ، ووقعت اشتباكات بحرية بين الأسطولين الفاطمى والأموى ، وخربت فى هذا الإبان قواعد بحرية مغربية وأندلسية ، وأغرى المعز الحسن بن قنون (أوكنون أو جنون) زعيم الأدارسة بالخروج على الخليفة الناصر فى سنة ٣٤٣ / ٩٥٤ .

---

(١) طائفة من الشيعة الإسماعيلية غلاة ، نجموا فى البحرين وروّعوا الأقطار الإسلامية المجاورة بغاراتهم ، وظلوا كذلك طيلة القرن الرابع / العاشر ، إلى أن ذهب أمرهم على مراحل فى القرن الخامس / الحادى عشر .

على أن الأهم من هذا كله هو الحملة البرية الكبيرة التى قادها فى سنة ٣٤٧/ ٩٥٨ جوهر الصقلى ، وأعانه فيها زيرى بن مناد وجعفر بن على بن حمدون ، فاخترقت بلاد المغرب ، واستردت تاهرت (وكانت قد خرجت على الفاطميين) وسجلماسة وفاس ومدناً غيرها .

لم يقف الأمويون مكتوفى الأيدى إزاء هذه التطورات ، وترددوا بحملاتهم على المغرب الأقصى ، وعاودوا استمالة قبائل زناتة ، وإذا كان محمد بن خزر قد استسلم للفاطميين ، وقضى بقية حياته فى المهدية إلى أن مات ، فإن ولده عاودوا مناهضة الفاطميين ، كما بدل جعفر بن على بن حمدون ولاءاته ، فتحول إلى بنى أمية ، وأتى فى سنة ٣٦٠/ ٩٧٠ برأس زيرى بن مناد الصنهاجى إلى الخليفة الأموى المستنصر ٣٥٠ / ٩٦١ - ٣٦٦/ ٩٧٦ ، وعلى ذلك حاقت الهزيمة بالحسن بن قنون زعيم الأدارسة فى سنة ٣٦٣/ ٩٧٤ على يدى غالب الناصرى ، كما تمكن زيرى بن عطية المغراوى صنيعة الأمويين من الاستيلاء على فاس .

كان الخليفة المعز لدين الله - شأنه أسلافه - يتطلع إلى مصر باعتبارها قطراً مستقراً وافر الخيرات ، وكانت أحوالها قد صارت مهيأةً لمعاودة غزوها ، بسبب ما ألم بها من اضطرابات فى أواخر عهد الدولة الإخشيدية ومجاعات وقحط ، فضلاً عن موت كافور فى سنة ٣٥٧/ ٩٦٨ .

أعد الفاطميون عدتهم لهذا الغزو وأرسلوا عدداً من الدعاة ، ليمهدوا لهم الأمر هناك ، وفى سنة ٣٥٥ / ٩٦٦ أمر المعز بحفر الآبار على الطريق من إفريقية إلى برقة ، وأقام المنازل لدى كل مرحلة ، وعندما اكتمل استعداده ، أرسل قائده جوهر فى جيش كبير ضم مائة ألف ، كتلته الأساسية من كتامة ويدعمه أسطول كبير سار بمحاذاة الساحل .

استطاع جوهر أن يدخل مدينة الإسكندرية فى سنة ٣٥٨/ ٩٦٩ ، وتقدم منها إلى الفسطاط ، حيث انتصر على الجيش الإخشيدى ، ودخل المدينة فى ١٧ من شعبان / ٦ من يوليو ، واختط جوهر إلى جوارها مدينةً جديدةً ، دعاها المنصورية ، ودعيت بعد سنوات بالقاهرة ، ثم شرع فى ابتناء مسجد جامع وهو المعروف بالأزهر .

فى سنة ٣٦٢/ ٩٧٣ ارتحل المعز لدين الله إلى مصر ، وقد حمل معه أمواله وتوابيت آبائه ، وكان قد استخلف على المغرب أبا الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصهناجى ، أول أمراء المغرب من بنى زيرى .

يذهب حسين مؤنس إلى أن النتيجة العامة للمرحلة الفاطمية فى بلاد المغرب سلبية ، وهو يطلق على هذه المرحلة تعبير (عصر العواصف) فالفاطميون لم يعمروا مدناً سوى المهدية ، ولم يبتنوا جامعًا سوى جامعها ، وكانت سياستهم تقوم على الجشع وجباية الأموال بأى طريق ، بتعبير آخر سرقتها ، وأججوا الصراعات بين قبائل وضربوا بينها ، مما أسفر عن خسارتها جميعًا ، وكانت كتامة أشد القبائل ولاءً للفاطميين أشدها خسارة ، وصار هؤلاء فى عصور تالية يبرءون من هذا الولاء .

لم يقف الفاطميون عند هذا الحد ، إنما سعوا إلى نشر مذهبهم ، بأية وسيلة وأيًا كانت ، وأصابوا الفقهاء المالكية بأذى كبير ، وفى سعيهم لفرض سيادتهم ، سفكوا دماءاً كثيرة ، بعضها بمبرر وغالبها بغير مبرر ، وكانت آخر سوءاتهم قبيل رحيلهم ، نكوصهم عن عون أهل إقريطش ، حين غزاهم الروم، مما أسفر فى النهاية عن ضياع ثغر عزيز من ثغور المسلمين .

2 ـ الزيريون :

كانت مغادرة المعز لدين الله إفريقية إلى مصر أمراً له دلالته القصوى ، فهو يعنى ـ كما حدث بعد ـ أن بلاد المغرب صارت تحكم عن طريق أهلها ، ففى الفترة السابقة كانت الأسرات الحاكمة ـ بوجه عام ـ مشرقيةً عربيةً بالدرجة الأولى ، ومنذ سنة ٣٦٢/ ٩٧٣ صارت هذه الأسرات مغربيةً بربريةً بالدرجة الأولى ، وكان بنوزيرى طليعة هذه الأسر .

على إنه مما تجب ملاحظته أن بنى زيرى مع بربريتهم ، كانوا عرباً فى حضارتهم وسياستهم ونظام حياتهم ، وهو ما ننوه إليه بعد .

ينتمى بنوزيرى إلى قبيلة صنهاجة ـ كبرى قبائل البرانس ـ وكانت ـ وكتامة ـ سناد الفاطميين فى بلاد المغرب ، ولعب زيرى بن مناد دوراً أساسياً فى قمع ثورة أبى يزيد وفى الحرب ضد محمد بن خزر المغراوى ، وابتنى لقومه مدينة أشير حاضرةً لهم قرب مدينة الجزائر الحالية ، كما ابتنى مدناً أخرى غيرها ، وفقد حياته دفاعاً عن الدولة فى صراعها مع الأمويين وأنصارهم من زناتة . كما كان ولده بُلُقِّين (أو بلكين) من كبار رجال الدولة ، وقبل أن يرحل المعز إلى مصر أعطاه اسماً عربياً هو يوسف وكناه أبا الفتوح ، وصار أميراً لإفريقية وبلاد الزاب وسائر أنحاء المغرب الأوسط ، وأضاف إليه بعد سنوات طرابلس .

كان رحيل الفاطميين إلى مصر يعنى أن يوسف ، قد ورث المشكلات التى جهد هؤلاء فى حلها ، والتى كانت عنصراً أساسياً فى رحيلهم ، ونعنى بها على نحو خاص قبائل زناتة التى انتقلت زعامتها إلى زيرى بن عطية المغراوى .

قاد يوسف حملة كبيرة اجتاحت المغربين الأوسط والأقصى فى سنة ٣٦٨/ ٩٧٨ واستطاع أن يدخل تاهرت وتلمسان وفاس وسجلماسة ، بل إن

خيله تطرقت إلى برغواطة فى إقليم تامسنا ، وأمعنت القتل فيهم ، لكنه أخفق فى الاستيلاء على سبتة التى أحسن الأمويون الدفاع عنها .

مات يوسف بن زيرى فى سنة ٣٧٣/ ٩٨٤ بعد عودته من حملته الكبيرة، وخلفه ولده المنصور ، فعاود مغاورة الزناتيين ، لكنه لم يوفق فى هذه المغاورة ، وعاد خزرون بن فلفل الخزرى إلى سجلماسة ، وانتزع زيرى بن عطية المغراوى فاس فى سنة ٣٧٧/ ٩٨٧ ، وفرض سيطرته على مساحات واسعة من المغرب الأقصى ، وأفشل الغزوات المتتالية من قبل المنصور وولده باديس (٣٨٦ / ٩٩٦ ـ ٤٠٦/ ١٠١٦) ودعا لبنى أمية .

لدى قاصية المغرب شمالاً كان الأمويون قد أزالوا الأدارسة من قلعة حجر النسر ونفوهم فى سنة ٣٦٣/ ٩٧٤ ، ولما عاود أميرهم الحسن بن قنون الثورة ضدهم أفشلوا ثورته فى سنة ٣٧٥/ ٩٨٥ وقتلوه ، ثم اكتفوا من المغرب الأقصى بسواحله وتركوا دواخله لحليفهم زيرى بن عطية ، وعندما حاول هذا الأخير أن يخلع طاعتهم فى سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ فإنه فقد حياته وأذعن ولده بعده لبنى أمية ، ودامت دولتهم بفاس حتى مقدم المرابطين .

فى هذا الصراع الذى استغرق عهد المنصور وعهد ولده باديس ، لعب حماد بن يوسف بن زيرى دوراً أساسيًا ، وابتنى بالمغرب الأوسط القلعة التى عرفت ـ بعد ـ بقلعة بنى حماد ، وأعلن استقلاله بها ، وبعد حروب بينه وبين باديس وولده المعز بن باديس ، تم الاتفاق فى سنة ٤٠٨ / ١٠١٧ على أن يستقل حماد بالمسيلة وطبنة وأشير وتاهرت ، مع الاعتراف بالتبعية للقيران ، على أن هذا الاستقلال أضحى تامًا فى سنة ٤٣٢/ ١٠٤٠ ، وبذا صارت دولة بنى زيرى دولتين .

يذهب بعض الباحثين إلى أن دولة بنى حماد فى المغرب الأوسط هى ـ فى

الحقيقة ـ امتداد لدولة بنى رستم فى الإقليم ذاته ، وبذا تكون هاتان الدولتان قد مهدتا لأن تكون للمغرب الأوسط (الجزائر الحالية) طريقها المستقلة فيما بعد، يؤيد ذلك أن بنى حماد نبذوا الطاعة للخلافة الفاطمية فى فترة باكرة تعود إلى سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ .

أسفر الصراع الفاطمى (ثم الزيرى) الطويل مع الأمويين وزناتة عن تفتت واضح للمغربين الأوسط والأقصى ، وأصاب الدمار مساحات واسعة من هذين القطرين ، وخاصة المدن التى تقع على الطرق التجارية عبر الصحراء ، ومنها سجلماسة وتاهرت وتلمسان .

أما عن إفريقية ولمدى يصل إلى مائة عام ، فقد ازدهرت أحوالها ، وهو ما نستدل عليه من وصف الأدباء والرحالة المعاصرين والجغرافيين كالبكرى (ت ٤٨٧ / ١٠٩٤) فينوهون إلى نشاطاتها الاقتصادية المتنوعة والرخاء العام الذى سادها والثراء الذى عاشه حكامها ومن لاذبهم وسخائهم . ولا يخفى أن عنصراً أساسيًا فى هذا الرخاء ـ يذهب العروى ـ يعود إلى تحول الجانب الأكبر من التجارة الصحراوية إلى الشرق .

فى هذه المرحلة جرى تطور هام للحياة العقلية فى إفريقية ، فبعد أن كانت هذه البلاد خلوًا من شعراء نابهين وأدباء ، عرفهم إخوانهم فى المشرق والأندلس ظهر شاعر كابن شرف (ت ٤٦٠/ ١٠٦٧) وشاعر وناقد كابن رشيق (ت ٤٥٦ أو ٤٦٣/ ١٠٧٠) ولم يكن بنوزيرى بعيدين عن المساهمة فى هذه النهضة ، فكانوا يعقدون مجالس علمية وأدبية ، يحضرها الجلة من علماء عصرهم وأدبائه ، كما إن أحدهم وهو تميم بن المعز بن باديس كان شاعراً ، وله ديوان من الدواوين المعدودة .

فى الوقت نفسه عاودت المالكية انتعاشها ، وظهر بين أهلها علماء بارزون وفقهاء أشهرهم أبو عمران موسى الفاسى (ت حول ٤٤٠/ ١٠٤٨) ، وكان

إلى جانب كونه فقيهًا إمامًا فى علم الحديث وفى علم الأصول ، تتلمذ على يديه علماء وكبراء ، منهم يحيى بن إبراهيم الجدالى من زعماء صنهاجة ، ويأتى الحديث عنه بعد .

وإذا كان بنوزيرى قد شغلوا بمشاكل المغرب عن الفاطميين ، فإن هؤلاء شغلوا عنهم بمشاكلهم فى مصر وفى دولتهم الواسعة بالمشرق ، ولم تعد أمور إفريقية والمغرب تهمهم كثيراً ، لأن مصر بوقعها وموقعها استغرقت كل جهودهم ، ثم إنها بمواردها المالية الكبيرة ، جعلتهم فى غنى عن مال يأتى من خارجها ، وعن رجال تستعين بهم فى حروبها ، فقد كان للفاطميين جنودهم المغاربة الذين نزحوا معهم إلى مصر ، ثم أضيف إليهم أجناد من العرب والأتراك والصقالبة والأرمن والسودان .

من هنا بدأت الخطوات الأولى لانفصال المغرب عن مصر . صحيح إن الفاطميين لم يسعوا إلى أن ينفصل عنهم الزيريون ، إلا إنهم عندما بدأ هؤلاء يسعون إلى الانفصال على نحو وئيد انزعجوا ، لكن هذا الانزعاج أتى أيضًا على نحو وئيد .

مضت العلاقات طبيعية بين الفاطميين والزيريين فى عهد أبى الفتوح يوسف ، أى إنها كانت علاقات بين خليفة وبين أمير تابع له ، ولا نعلم بالضبط حدود هذه التبعية عدا ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقشه على السكة، ومع أن عامل الخراج فى المنصورية كان تابعاً للخليفة فى القاهرة ، ولدينا أخبار عن أموال كان يرسلها إليه ، لكن هذه الأخبار ليست متواترةً . على أن المنصور بن يوسف أعلن عقيب توليته أن ملكه ورثه عن آبائه ، وإنه ليس ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، وفى هذا تعريض بالخليفة الفاطمى .

عندما وصل الخبر إلى العزيز بالله (٣٦٥/ ٩٧٥ ـ ٣٨٦ / ٩٩٦) فى القاهرة أرسل فى سنة ٣٧٦ / ٩٨٦ داعيًا من قبله ، يدعى أبا الفهم

الخراسانى، قام بتأليب قبائل كتامة على المنصور الذى استجاب لهذا التحدى ، ومضى بجيشه إلى هذه القبائل ، فخرب مدنها وحصونها وأحرق دورها ، وقتل أبا الفهم ومثل به ، كما قتل معه جماعة من رؤساء كتامة ، واضطر الخليفة إلى السكوت عما حدث ، ولاطف المنصور وهاداه ، وعاود ولده الحاكم بأمر الله (٣٨٦/ ٩٩٦ _ ٤١١ / ١٠٢١) مهاداته فى سنة ٣٨٨/ ٩٩٨ بمناسبة توليته الخلافة .

أراد الحاكم فى سنة ٣٩٠ / ١٠٠٠ أن يمارس سلطاته كخليفة ، فأمر واليه على برقة بالاستيلاء على طرابلس _ وكانت تابعة لباديس بن المنصور _ لكن هذا الأمير لم يتردد فى محاربة هذا الوالى وقتله ، فأوعز الحاكم إلى قبائل زناتة بالثورة ، لكنها أخفقت فى ثورتها ، وعاد الحاكم إلى سياسة التودد إلى باديس وأرسل إليه هديةً فى سنة ٤٠٣ / ١٠١٢ .

عندما ولى المعز بن باديس فى سنة ٤٠٦/ ١٠١٦ وقع تحت تأثير عدد من الفقهاء المالكية ، وبدأت حملات منظمة ضد الشيعة ، قتل فيها عدد كبير منهم ، ولم يتحرك المعز لنجدتهم ، ولما علم الحاكم بذلك تغاضى عما علم ، بل إنه هادى المعز ، وفعل الأمر نفسه الظاهر (٤١١/ ١٠٢١ _ ٤٢٧/ ١٠٣٦) ودعا أمير إفريقية بشرف الدولة .

حاول الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧/ ١٠٣٦ _ ٤٨٧/ ١٠٩٤) أن يضع حداً لاضطهاد الشيعة بإفريقية ، لكنه لم ينجح فى محاولته ، وفى سنة ٤٤٠/ ١٠٤٨ نبذ المعز الطاعة للفاطميين ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وأزال فى السنة التالية أسماءهم عن العملة والرايات والطرز ، وخطب للخليفة العباسى فى بغداد، وفى سنة ٤٤٣/ ١٠٥١ صار السواد وليس الخضرة هو شعار الدولة .

فى أعقاب القطيعة النهائية بين مصر الفاطمية وإفريقية الزيرية ، بدأ ما يعرف تاريخياً بالغزوة الهلالية وشعبياً بتغريبة بنى هلال .

3 - الهلالية :

والإتجاه العام بين المؤرخين إنهم يجعلون الغزوة الهلالية نتيجةً طبيعيةً لما أقدم عليه المعز بن باديس من فك العلاقة الشرعية بين القاهرة والمنصورية ، فأقدمت الحكومة الفاطمية ممثلةً فى وزيرها أبى محمد اليازَوْرى ، وحثت بنى هلال وبنى سليم وغيرهم من القبائل العربية على غزو ولاية إفريقية ، انتقامًا من حاكمها المشاغب .

نحن نذهب من جهتنا إلى إن هذه المقولة غير صحيحة علميًا ، أو إنها على قدر محدود من العلمية لأن مصر منذ سنوات طويلة لم تكن تأخذ شيئًا من إفريقية ، بل إنها كانت تعينها فى أحيان بأموالها ، واكتفت بالولاء الشكلى من خطبة وسكة ، ونرجح أن السبب الحقيقى للغزوة الهلالية ، هو ما كان يفعله هؤلاء الأعراب الجفاة فى صعيد مصر ، وما قاموا به من فساد ، ضج منه المحكومون قبل الحكام ، فإراد اليازورى أن يتخلص منهم بتحريضهم على غزو إفريقية ، وأعطاهم الحجة الشرعية لذلك .

الهلالية حلف قبلى كبير ، يضم قبيلتى هلال بن عامر وسُلَيْم بن منصور ومجموعة قبائل أخرى تنتمى إلى قيس عيلان ، مثل فَزارة وأشجع وجُشَم وسَلول وعَدْوان ، بل تضم أيضًا قبائل يمانية ، وكانوا جميعهم يسكنون بلاد الحجاز وأطراف نجد ، يمارسون حياة البادية ، وأخصها الإغارة على الحجيج ، وأخفقت الدولة العباسية فى أن تضع حدًا لهذه الإغارات ولدى نهضة القرامطة فى بلاد البحرين ، انضم إليهم جماعات منهم ، شاركتهم حروبهم المدمرة ، التى وصل بعضها إلى الشام ، ووصل بعضها الآخر إلى مصر .

بعد أن هدأت فئة القرامطة ، وانكسرت شوكتهم ، مال حلفاؤهم من الهلالية إلى الفاطميين ، فنقلهم العزيز بالله إلى مصر ، وأنزلهم بالعدوة الشرقية

من النيل جنوبى الصعيد ، حيث عاودت هذه القبائل أسلوبها القديم فى الإغارة على الفلاحين والمستقرات الزراعية ، ووقعت فى الوقت نفسه حروب بين بعضهم ضد بعض « وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم » كما يقول ابن خلدون . وأخفقت الدولة فى أن تضع حداً لهذا كله ، إلى أن اقترح اليازورى على الخليفة المستنصر أن يصطنعهم ، ويوليهم أعمال إفريقية ومحاربة الصنهاجيين .

اقتنع الخليفة باقتراح وزيره ، وأعطى كل واحد من هؤلاء الأعراب فيما يقال بعيراً وديناراً ، وقبيل رحيلهم قال لهم اليازورى : « قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى العبد الآبق فلا تفتقرون » ثم كتب إلى المعز: « أما بعد ... فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولا ، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً » .

اقترب الهلالية من برقة فى سنة ٤٤٢/ ١٠٥٠ فوجدوها سهلة المنال ، لأن الزيريين أهلكوا سواد أهلها من زناتة ، فنزلوها ، وانضم إليهم إخوان كانوا قد استقروا فيها منذ الفتوح ، ومنهم بنو قرة ، وأهمل المعز شأن الغزاة ، فاجتازوا برقة إلى إفريقية ، وحطوّا عليها « كالجراد المنتشر ، لا يمرون بشىء إلا أتوا عليه » كما يقول ابن خلدون ، فسعى المعز إلى استئلافهم وأصهر إلى أحد قوادهم ، وفكر فى أن يستعين بهم ضد أقربائه من بنى حماد .

خيب العرب أمل المعز فيهم ، وازداد عيثهم ، فخرج إليهم فى ثلاثين ألفًا من صنهاجة وزناتة والعبيد والعرب البلديين ، ودارت بين الجانبين جملة وقائع، كان آخرها لدى حَيْدَران من قابس فى ذى الحجة من سنة ٤٤٣/ إبريل ١٠٥٢ وفوجئ المعز بأن العرب البلدية انضموا إلى بنى جلدتهم الهلالية ، كما خذلته صنهاجة وزناتة ، وانهزم هزيمةً شديدة ، وفر وخاصته إلى القيروان ،

وحاصر العرب المدينة عدة سنوات ، استولوا خلالها على قابس وتونس وسوسة وقسطيلية ، وعاود المعز مصاهرتهم ، ولكن على غير طائل .

في شعبان ٤٤٩/ أكتوبر ١٠٥٧ فارق المعز بن باديس القيروان إلى المهدية، فدخلها العرب واستباحوها ، وأحدثوا بها دماراً شديداً ، فتفرق أهلها في مختلف الأنحاء ، وقضى المعز بقية حياته بالمهدية حزيناً إلى أن مات في سنة ٤٥٣/ ١٠٦١، ولم يكن بحـــوزة ولده تميم (٤٥٣/ ١٠٦١ ـ ٥٠١ / ١١٠٨) لدى ولايته سوى شريط ضيق من الساحل مجاور للمهدية وجزيرة جربة .

اجتاز الهلالية في مرحلة تالية إقليم إفريقية إلى إقليم الزاب ، وما يليه من أقاليم المغرب الأوسط ، وكانت لهم وقائع مع بني حماد ، واضطروهم في سنة ٤٥٧/ ١٠٦٥ ، لأن ينتقلوا من قلعتهم بالداخل إلى بِجاية البعيدة لدى الساحل .

لما كان الهلالية قد كسروا صنهاجة ، فقد عادت زناتة إلى مسرح الأحداث ودارت بينها وبين الهلالية وقائع من جملتها وقائع وزيرها أبي سعدى خليفة اليفرني (وهو الزناتي خليفة في الملحمة الشعبية) ، وقد انتهت هذه الوقائع إلى قتله في سنة ٤٥٠/ ١٠٥٨.

استمر للهلالية حضور واضح في تاريخ المغرب ، حتى مطالع العصور الحديثة ، فقد اصطدموا بالمرابطين ، ثم اصطدموا على نحو واضح بالموحدين وخلفاء الموحدين ، كما اصطدموا ببعضهم البعض ، ولم تتكسر شوكتهم إلا في مرحلة متأخرة ، وهم في هذا الإبان نشروا الخراب في كل مكان حلوا به .

يعد عبد الرحمن بن خلدون هو المؤرخ العمدة ، فيما يتصل بالغزوة الهلالية ، وروايته عنها صحيحة إلى حد كبير ، فهو مغربي في أصله (تونسي)

واعتمد فى كتابته على مصادر مكتوبة ، كما اعتمد على مصادر مروية ، وألم بطرف من السيرة الشعبية ، كما كانت رائجةً فى زمانه (القرن الثامن / الرابع عشر) ، ويصل فى تحليله النهائى لهذه الغزوة إلى إنها الخراب الأكبر للمغرب، بل إنه يصدر أحكامًا عامة لا على هؤلاء العرب وحدهم ، بل على العرب جميعهم ، الأمر الذى نستغربه ، لأن ابن خلدون عربى (حضرمى) ، والراجح عندنا أن مفهوم العرب عنده هو البدو ، وكان الهلالية منهم .

أسفرت الغزوة الهلالية على نحو مباشر عن تحول بلاد المغرب إلى مجموعة من الدول الصغيرة ، أشبه بدول الطوائف المعاصرة بالأندلس ، وسعت بعض هذه الدول إلى أن تستعين بالهلالية أو بعض الهلالية فى صراعاتها مع غيرها أو مع بعض الهلالية .

يأتى فى طليعة هذه الدول دولتا بنى زيرى فى المهدية وبجاية ، وبطبيعة الحال فإن ذلك أدى إلى أن تعيش بلاد المغرب مرحلةً من القلق ، سادت معظم أنحائها ، فى وقت بزغت النزعة الصليبية ، وكان هم الأوربيين المتعصبين فى أقطارهم كافة ، أن يبيدوا الإسلام والمسلمين فى أقطارهم كافة .

كانت جزيرة صقلية بعد رحيل الفاطميين قد صارت فى ملك بنى أبى الحسين الكلبيين ، مع طاعة إسمية للقاهرة ، وفى سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م تعرضت للغزو من جهة النورمان ، ولم يستطيع المعز بن باديس ولا ولده تميم أن يساعد أهل هذه الجزيرة التاعسة ، كما تقاعس الفاطميون عن نجدتها وتهاوت قلاعها الواحدة بعد الأخرى فى أيدى أعدائها ، وفى سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م اقتحم النورمان قَصْرِيانة Castrogiovanni ، وهى آخر المعاقل الإسلامية فى صقلية .

تطلع النورمان إلى أن يمتدوا بسيطرتهم إلى إفريقية نفسها ، فناوشوها مرةً

ومرة ، وفى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م استولوا على المهدية ، وأزالوا آخر أمرائها من الزيريين ، وهو الحسن بن على بن تميم بن المعز بن باديس ، وأضحت المدن الساحلية الهامة فى إقليمى طرابلس وإفريقية فى أيديهم ، وظلت هذه المدن كذلك إلى أن أزالهم عنها الموحدون فى عهد أول خلفائهم عبد المؤمن ابن على فى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م.

أما عن دولة بنى حماد الزيريين فى المغرب الأوسط ، فإنها دخلت فى صراعات مع المرابطين ومع العرب الهلاليين ، إلى أن تمكن الموحدون من دخول عاصمتهم بجاية فى سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م .

رافقت هذه الفوضى السياسية فوضى أخرى حضارية ، فخربت مدن كثيرة كصبرة والقيروان وتونس وطبنة والمسيلة وقلعة بنى حماد ، وترك هذا كله آثاره المدمرة فى الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية فى أنحاء المغرب كافة . ويفسر العروى ذلك بأن الهلالية (وزناتة أيضًا) بدو ، ولما كان البدو يحتاجون إلى مراع ، صارت هذه المراعى تمتد على حساب الحقول ، مما أضر بالزراعة وما يتصل بها من نشاطات ، وجعل المدن تذوى ، وتنحاش إلى الساحل الذى صار بدوره تحت رحمة النورمان .

وإذا كانت إفريقية قد شهدت نشاطًا تجاريًا واضحًا فى صدر دولة الزيريين ، أفضى إلى نهضة واسعة على الأصعدة كافة ، فإن هذا النشاط خفت بعد أن صار الساحل كما نوهنا تحت رحمة النورمان .

لا يخفى أيضًا أن تناقص الموارد كان يزيد من حدة الصراع ، وهذا بدوره يؤدى إلى تناقص الموارد وهكذا .

على أن الغزوة الهلالية ، وإن كانت لها آثارها السلبية المدمرة فى وقتها إلا أن بنى هلال شاركوا فى دفع الهجمات الصليبية عن سواحل المغرب ، كما

شاركوا فى الجهاد ببلاد الأندلس مع المرابطين ، ثم - على نحو واضح - مع الموحدين ، فشاركوا فى تأخير ضياعها .. والأهم من هذا كله أن الغزوة الهلالية كانت لها على المدى البعيد آثارها الإيجابية ، فقد قام بنو هلال بالدور الأوفى فى تعريب المغرب عرقًا ولغةً ، وبفضلهم تحول إقليم برقة وإقليم الزاب وإقليم الجريد وأقاليم أخرى فى المغربين الأوسط والأقصى إلى أقاليم عربية ، بعد أن استوطن هؤلاء الهلالية بها ، وخالطوا أهلها وجاوروهم ، وتزاوجوا معهم، ولولاهم ما جاوز نصيب المغرب من العروبة ، نصيب أقطار أخرى غيرها بعيدةَ عن العروبة .

الفصل الخامس
المرابطون

كانت الدعوة الفاطمية هى آخر الدعوات العقْدية (من عقيدة) المشرقية الأصل فى بلاد المغرب ، لأن البربر لم يعودوا بحاجة إلى هذه الدعوات ، بعد أن تمرسوا بالإسلام ، وتمرسوا أيضًا بالحكم ، وإذا كان لهذه الدعوات العقدية أن تعود مرة أخرى ، فإنها ستعود مع المرابطين ، ثم على نحو أوضح مع الموحدين .

ذكرنا أن بلاد المغرب فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، كانت حالها أشبه بحال بلاد الأندلس فى المرحلة ذاتها .

يقول ابن عذارى (ت ٧١٢هـ) : « وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم ، وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم ، إلى أن تغلب كل شخص على موضعه ، كما فعل ملوك طوائف الأندلس » .

فى إفريقية والمغرب الأوسط تعددت القوى المتصارعة على السيادة ، ودخلت مملكتا بنى زيرى ، وتنتميان إلى صنهاجة فى صراع مع زناتة ، ومع العرب الهلالية والنورمانديين ، ومرتا بمرحلة احتضار طويلة ، حتى مقدم الموحدين .

أما فى المغرب الأقصى ، ففى الريف قريب من تِطْوان ، أقامت قبيلة من قبائل مصمودة تدعى غُمارة دولةً ، انحرف أصحابها عن صحيح الإسلام والسنة الثابتة ، وظهر بينهم متنبؤن وأصحاب ضلالات ، وإلى الغرب منها جنوبًا ، أقامت قبيلة مصمودية أخرى تدعى برغواطة ، دولةً فى إقليم تامسنا ، ظهر بينها أيضًا متنبؤن وأصحاب ضلالات ، ومع أن هؤلاء وأولئك تعرضوا

لحملات متوالية من الأدراسة والفاطميين والزيريين والزناتيين ، أسفرت عن ذهاب أمر غمارة ، ولكن ما يعرف بزندقة برغواطة ، استمرت بل امتدت إلى قبائل أخرى ، وإلى بلاد بعيدة فى السوس الأقصى .

فيما عدا ذلك سيطرت زناتة على أنحاء متفرقة من المغرب الأقصى وبعض المغرب الأوسط ، فاستبدت مغراوة بفاس ، وبنو يفرن بتلمسان وسلا وتادلة ، وبنو خزر بسجلماسة ودرعة ، بينما تقلبت الحال بسبتة (وطنجة) وآلت فى بعض السنوات إلى الحموديين ، وهم من عقب الأدارسة .

فى أنحاء أخرى عديدة ، انتشر الرافضة ، وهم قوم من غلاة الشيعة ، فضلاً عن الوثنيين فى المناطق المجاورة للصحراء .

١ - المرابطون وعبد الله بن ياسين :

إلى الجنوب من المغرب الأقصى فى الصحراء التى تنتهى ببلاد السودان ، أقامت فروع من قبيلة صنهاجة ، أهمها لَمطة ، جَزولة ، لَمتونة ، مَسوفة وجَدالة ، وكانوا بخلاف غيرهم من الصنهاجيين أهل بداوة ، يعيشون حياة شبيهةً بحياة العرب قبل الإسلام ، لذلك دعوا بصنهاجة الصحراء ، ولأنهم كانوا يتخذون اللثام دعوا بالملثمين أو صنهاجة اللثام .

يختلف الباحثون حول أصل اللثام ، الذى كان يرتديه الرجال دون النساء ، وربما أخذوه عن جيرانهم السودانيين ، وربما كذلك أن كانت له صلة بالرياح الرملية العنيفة ، التى كانت تهب على صحرائهم ، ولا يزال اللثام موجوداً حتى اليوم عند الطوارق ، وهم من بقاياهم .

درجت هذه القبائل على الرحلة فى الصحراء ، لنقل التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، وأكسبتهم هذه الحياة خشونةً ، ظهرت آثارها فيما بعد

، عندما شرعوا فى القيام بدورهم التاريخى ، وقد انتشر الإسلام بينهم فى فترة متأخرة ، بسبب تنائيهم فى الصحراء البعيدة عن كتلة المغرب ، كما إنه كان إسلامًا سطحيًا ، به شوائب وثنية ، ولم يكونوا فى جملتهم يحسنون اللغة العربية، أو إنهم كانوا يجهلونها .

فى أوائل القرن الخامس آلت الزعامة فى قبيلة جدالة إلى يحيى بن إبراهيم وهو من تلامذة أبى عمران موسى الفاسى الفقيه الكبير ، وتطلع يحيى هذا إلى أن يتزعم صنهاجة الصحراء جميعها ، ويخلصها من استبداد زناتة ، ولكنه وجد عليه أن يعمق التزامها بالإسلام أولاً ، ويخلصه من الشوائب التى علقت به ثانياً .

فى سنة ٤٤٠/ ١٠٤٨ وجد يحيى بن إبراهيم ضالته فى فقيه ينتمى إلى قبيلة جزولة هو عبد الله بن ياسين ، فأسند إليه مهمة تثقيف قبائل صنهاجة وتعميق إسلامها ، وأسند إليه فى الوقت نفسه سلطاته ، وتحول إلى تابع له يأتمر بأمره .

بدأ عبد الله بن ياسين بقبيلة جدالة ، وواجه مشكلات مع زعمائها الذين وقف معظمهم ضد دعوته الإصلاحية ، فشكل قوة من أتباعه أهل الحق ، وانتقل بهم من جدالة إلى لمتونة ، وانتقلت الرئاسة من يحيى بن إبراهيم الجدالى إلى يحيى بن عمر اللمتونى ، على نحو غامض ، ربما لوفاة الأول ـ يذهب سعد زغلول عبد الحميد ـ ، أو تنازله عن هذه الرئاسة للأخير .

فى لمتونة عاود عبد الله بن ياسين مواجهة المشكلات التى واجهها فى جدالة ، واضطر إلى أن ينحاش وصحبه فى سنة ٤٤٣/ ١٠٥١ ـ ١٠٥٢ إلى رباط ، أقامه بجزيرة تقع عند مصب نهر السنغال حيث دعى ـ وصحبه ـ بالمرابطين .

عاش ابن ياسين وصحبه فى هذه الرباط حياة زهد وعبادة ، وتوسع فى دعوته ، إلى أن قوى أمره ، فنهض فى العام التالى مجاهداً إلى قبيلة جدالة ، فأدخلها فى هذه الدعوة ، ثم أدخل لمتونة فمسوفة وغيرها من القبائل ، وبدأ الإسلام الصحيح يجد طريقه إلى صنهاجة الصحراء .

بتوحيد هذه القبائل فى سنة ٤٤٤/ ١٠٥٢ بدأت تتحدد معالم دولة إسلامية ناهضة بدأت تطرق أبواب المغرب الأقصى ، وكانت سجلماسة بموقعها الهام على الطريق التجارية الواصلة إلى بلاد السودان ، هى المحطة التالية لعبد الله بن ياسين ، وكانت وإقليم درعة المجاور لها غرباً ، تحت حكم مسعود بن وانودين الخزرى من قبيلة مغراوة الزناتية ، وقد نجح ابن ياسين فى إزالة دولة مغراوة هذه وقتل أميرها .

بعد فتح سجلماسة ارتد ابن ياسين جنوباً ، وفتح فى سنة ٤٤٦/ ١٠٥٤ مدينة أَوْدَغَسْت البعيدة ، وكانت تحت سيادة مملكة غانة الوثنية ، وصار لهذا الفتح أهمية عظمى بالنسبة للمرابطين ، فبفضله صارت لهم السيادة على تجارة الصحراء جميعها ، وتهيأت لهم موارد مالية وافرة أعانتهم على توطيد دولتهم .

انتهز أهل سجلماسة الفرصة التى أتاحها لهم شغل عبد الله بن ياسين بحربه فى الجنوب ، فخلعوا الطاعة للمرابطين ، ومع أن هؤلاء تمكنوا من استعادة سجلماسة إلا أن الخلافات دبت بين قبيلتى جدالة ولمتونة ، ويغلب أن كانت وراء هذه الخلافات منافسات على الصدارة ، داخل الدولة الناشئة ، ونشبت حرب بينهما ، أسفرت عن مصرع يحيى بن عمر فى سنة ٤٤٨/ ١٠٥٦ ، فخلفه فى مكانه أخوه أبو بكر بن عمر .

2 - أبو بكر بن عمر :

استطاع أبو بكر بن عمر - بعد جهد كبير - أن يعيد الوحدة إلى قبائل المرابطين ، ونهض إلى المهمة الكبرى التى حفزه إليها عبد الله بن ياسين ، وأعانه فيها ابن عمه يوسف بن تاشفين .

زحف المرابطون إلى السوس الأقصى ، مبتدئين بجبال دَرَن ، وقتلوا من كان بها من روافض (إسماعيلية) وأعادوها إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، ثم استولوا على أغمات ، وكانت بها بقية من مغراوة ، واتخذوها عاصمةً لهم .

بعد أن استقر المرابطون فترةً فى أغمات ، عاودوا فى سنة ٤٥٠/ ١٠٥٨ فتح السوس الأقصى ، وتساقطت فى أيديهم مدنه الواحدة بعد الأخرى ، وكانت أولها تادلة ، ودانت لهم قبائل مصمودة .

كانت الخطوة التالية فتح إقليم تامِسْنا ، حيث قبيلة برغواطة التى طال العهد بزندقتها ، فقد اعتصمت بإقليمها الوافر الخيرات البعيد المتحصن بجبال درن شرقًا وبحر الظلمات غربًا ، وظلت بمنأى عن القوى السياسية التى توالت على بلاد المغرب ، وإن ربطتها علاقات قوية مع أمويى الأندلس .

قاد عبد الله بن ياسين جيش المرابطين إلى برغواطة ، حيث دارت حرب دامت ثلاث سنوات ، انتهت فى سنة ٤٥٣/ ١٠٦١ إلى انتصار المرابطين ، ونهاية دولة برغواطة وعودتها إلى صحيح الإسلام .

ترتب على هذه الحرب أن امتدت السيادة المرابطية إلى الشطر الجنوبى من المغرب الأقصى ، وهرعت قبائله إلى طاعة المرابطين والخدمة فى جيشهم .

ترتب على هذه الحرب كذلك أن انفرد الأمير بالسلطة ، دون مشاركة من

الفقيه ، لأن عبد الله بن ياسين استشهد فى معركة من معاركها ، دارت قرب موقع الرباط الحالية ، وقبره موضع إجلال عند المغاربة حتى اليوم .

بينما كانت انتصارات أبى بكر تتوالى فى الجنوب ، كان ابن عمه يوسف ابن تاشفين ، قد تطرق إلى السوس الأدنى ، حيث بلاد زناتة ، وامتدت الدولة امتداداً واسعًا ، وظهرت الحاجة إلى ابتناء مدينة جديدة ، بعد أن ازدحمت أغمات بساكنيها والوافدين إليها من أنحاء شتى ، فاختار أبو بكر موضعاً ، لدى أحد سفوح جبال درن يدعى مَرَّاكُش ، وبدأ فى سنة ٤٦٣/ ١٠٧١ تأسيس مدينة ، دعيت أيضًا بمراكش ، صارت ـ فيما بعد ـ كبرى حواضر المغرب ، كما صارت قاعدة للحكم فى معظم ما تلى ذلك من عصور .

لم تستقر الحال بأبى بكر فى مراكش ، فقد وافته الأخبار بأن الفتنة تجددت فى الجنوب بين قبيلتى جدالة ولمتونة ، فاعتزم المسير مع قطيع من جيشه ، لقمع هذه الفتنة ، وأناب عنه فى غيابه ابن عمه يوسف بن تاشفين .

فى عهد نيابته استكمل يوسف انتباه مراكش ، وأعاد تنظيم جيشه ، واتخذ لنفسه حرساً من السودان والبيضان ، وأسس عدداً من الدواوين ، كما أسس داراً للسكة ، وغزا بلاد غمارة ، ودانت له مكناسة ، وتردد بهجماته على فاس .

فى سنة ٤٦٥/ ١٠٧٢ عاد الأمير أبو بكر من الجنوب ، ليجد أن نائبه قد استفحل أمره ، وصارت له هيئة ورئاسة ، وفى الوقت نفسه ، فإنه وهو الزاهد المجاهد كان حريصاً على دماء المسلمين ، فتنازل عن الإمارة لابن عمه وأوصاه: « يا يوسف وليتك هذا الأمر ، وإنى مسئول عنه ، فاتق الله فى المسلمين ، واعتقنى واعتق نفسك ، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئًا ، فإنك مسئول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح ... وهو خليفتى عليك وعليهم » .

عاود أبو بكر المغادرة إلى الجنوب ، وقد باع نفسه من الله ، فعبر الصحراء وغزا ممالك السودان ، ومنها مملكة غانة ، وفتح - فيما يروى - مسيرة ثلاثة شهور ، ونشر الإسلام حيث ذهب ، ولم يلبث أن دب الوهن فى هذه المملكة .

لم يعد الأمير أبو بكر من حملته الجهادية هذه ، فقد كانت الشهادة من نصيبه ، وانفرد يوسف بن تاشفين بزعامة المرابطين .

3 - يوسف بن تاشفين :

يعد يوسف بن تاشفين أكبر الزعماء المرابطين وأعلاهم ذكرًا ، وكان يتسم بسمات عديدة من الإيمان العميق والتقوى والشعور بالانتماء إلى أمة إسلامية واحدة ، مهما تباعدت أقطارها ، وكان يرى أن عليه رسالةً فى الجهاد واجبة الأداء .

انصرف يوسف عقيب ولايته إلى استكمال فتح المغرب الأقصى ، فأكد سيادته على مكناسة ، وأزال دولة مغراوة من ولد زيرى بن عطية فى فاس فى سنة ٤٦٧/ ١٠٧٤ ، ثم نفذ فى العام التالى إلى المغرب الأوسط ، فأجهز على ما تبقى من سلطان لزناته به ، ودخلت جيوشه تلمسان فى سنة ٤٦٨/ ١٠٧٥ ، ثم دخلت وجَدة وتَنَس ووهران وجزائر بنى مَزَغَنّة (مدينة الجزائر) حيث ابتنى يوسف جامعًا بها (ما يزال باقيًا) وانتهت خيل المرابطين فى سنة ٤٧٥/ ١٠٨٢ إلى حيث تبدأ مملكتا بنى زيرى .

لم يتبق أمام المرابطين من أجل أن يستكملوا سيطرتهم على المغرب الأقصى جميعه سوى مدينتى طنجة وسبتة وما جاورهما من بلاد الريف ، فاستولوا فى سنة ٤٧٠/ ١٠٧٧ على طنجة ، واستولوا بعد ثلاث سنوات على

مليلة ، واستعصت عليهم سبتة إلى أن دخلوها فى سنة ٤٧٧/ ١٠٨٤ فى سياق جهادهم بالأندلس .

شغل يوسف فى السنوات التالية بأحداث الأندلس وأهمها واقعة الزلاقة فى سنة ٤٧٩/ ١٠٨٦ التى انتصر فيها المسلمون المتحدون ـ أندلسيين ومرابطين ـ على أذفونش السادس ملك ليون ، كما شغلوا بوقائع أخرى بعدها ، وفى جوازه الثالث ١٠٩٠/٤٨٣ ثم جوازه الرابع ٤٨٤/ ١٠٩١ أزال يوسف ممالك الطوائف ، فيما عدا مملكة سرقسطة (جرى ضمها فى عهد ولده على بن يوسف) وأوضحت الأندلس جزءاً من الدولة المرابطية الكبيرة .

امتدت الدولة المرابطية امتداداً واسعًا فى عهد يوسف بن تاشفين ، من مدينة الجزائر شرقًا إلى قاصية السوس غربًا ، ومن تخوم السودان جنوبًا ، إلى أحواز طليطلة بالأندلس شمالاً . لكن هذا المجاهد الكبير لم يتخذ من ألقاب الملك سوى « أمير المسلمين » و « ناصر الدين » ولما أحرز انتصاره العظيم على الإسبان فى واقعة الزلاقة ، كتب إلى الخليفة العباسى المستظهر بالله (٤٨٧/ ١٠٩٤ ـ ٥١٢/ ١١١٨) يطلب التقليد ، فأجابه وأرسل إليه بالخلع والرايات السود .

لم تتبدل الحال بيوسف بعد بنائه هذه الإمبراطورية ، إنما ظل يعيش حياته الأولى منذ كان بدويًا ، يرتدى الصوف الخشن ، ويقتصد فى طعامه على القوت الضرورى من الشعير ولحوم الإبل وألبانها ، وساس هذه الإمبراطورية بمنهج العدل ، فأحسن اختيار ولاته ، وأبطل الضرائب والمكوس الغير الشرعية ، واكتفى بالزكاة والأعشار وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة ، واجتهد فى نشر الإسلام الصحيح بين القبائل البعيدة ، فكان يرسل الفقهاء إليها ، ويأمرهم بابتناء المساجد وتحفيظ القرآن .

إلى جانب ذلك كان يوسف معظمًا للعلماء مقدمًا لهم ، يأخذ بما يشيرون به عليه ، وعندما وصلت أخباره إلى الإمام أبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥هـ) بالمشرق صار يوسف موضعًا لثنائه ، حتى إنه اعتزم الرحلة إليه ، ولكنه عندما وصل إلى الإسكندرية علم بموته ، فعاد من حيث أتى .

4 ـ على بن يوسف بن تاشفين :

لدى وفاة يوسف بن تاشفين فى سنة ٥٠٠ / ١١٠٦ عن عمر يناهز المائة عام ، خلفه ولده على بن يوسف وكان بخلاف أبيه الشيخ شابًا فى أوائل عشرينياته ، أمه إسبانية الأصل ، لكن الأحوال لم تتبدل فى صدر ولايته فسار على نهج أبيه ، وكان ـ كما يقول عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٧هـ) «حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم ، كان إلى أن يعد فى الزهاد المتبتلين أقرب منه إلى أن يعد فى الملوك والمتغلبين ، واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين» .

استمر تطور الدولة المرابطية فى عهد على بن يوسف ، فقد اتسعت مدينة مراكش ، وابتنى لها سوراً عظيمًا فى سنة ٥٢٠/ ١١٢٦ ، وتوسع فى جامع أبيه بتلمسان ، كما أجرى زيادة لجامع القرويين بفاس ، ونهض بجيشه واستعمل الروم (الإسبان) حرسًا له ، كما استعمل الأغزاز (الأتراك) ، وازدهرت الأحوال الاقتصادية خصوصًا وأن دولته كانت تضم الطريق التجارية الواصلة بين عدوتى البحر والواغلة فى أعماق الصحراء ، حيث مناجم الذهب ، وأضحى الدينار المرابطى عياراً صحيحًا ، تم تداوله فى أوربا نفسها ، حيث دعى بـ El Maravedi .

وفى الوقت نفسه سار على بن يوسف على نهج أبيه ، فعبر البحر إلى الأندلس مرتين برسم الجهاد ، وأحرزت جيوشه انتصارات رائعةً ، منها انتصار

أُقليش فى سنة ٥٠١/ ١١٠٧، وانتصار إفراغة فى سنة ٥٢٨/ ١١٣٢، وإن حاقت بها الهزائم أحياناً ، مثل فقدها سرقسطة فى سنة ٥١٢/ ١١١٨ ، كما إنه عندما اشتد عيث النورمان بسواحل إفريقية ، نهض أسطوله فى سنة ٥١٦/ ١١٢٢ بالإغارة على صقلية فنهب وسبى .

فى عهد على بن يوسف وضح تأثير الأندلسيين الحضارى فى دولته وهو نفسه كان نصف أندلسى باعتبار أمه الإسبانية ، فتدفق أهل الأندلس على مراكش وغيرها من الحواضر المغربية ، وكان كتابه جميعهم أندلسيين ، ومنهم أبو بكر بن القصيرة (ت ٥٠٨/ ١١١٤) وأبو القاسم بن الجد (ت ٥١٥/ ١١٢١) وأبو بكر بن القَبْطُرْنُه (ت ٥٢٠/ ١١٢٦) وعبد المجيد بن عبدون (ت ٥٢٠/ ١١٢٦) ومحمد بن أبى الخصال (ت ٥٤٠ / ١١٤٦).

لم يقف الأمر عند هذا الحد فإن سائر الأعلام فى الحياة الفكرية كانوا من الأندلسيين ، كابن رشد (الجد ت ٥٢٠/ ١١٢٦) الفقيه ، وابن السِّيد (ت ٥٢١/ ١١٢٧) عالم اللغة ، وابن باجة (ت ٥٣٢/ ١١٣٨) الفيلسوف ، وابن خفاجة (ت ٥٣٣/ ١١٣٨) الشاعر ، والرُّشاطى (ت ٥٤٢/ ١١٤٧) المؤرخ ، وابن بسّام (ت ٤٥٢/ ١١٤٧) الأديب ، وابن قُزْمان (ت ٥٥٤/ ١١٦٠) إمام الزّجالين ، وابن زُهْر (ت ٥٥٧/ ١١٦٢) الطبيب ، والغافقى (ت ٥٥٩/ ١١٦٤) عالم النبات والطبيب .

امتد تأثير الأندلسيين إلى الفنون والعمارة ، وإليهم يعود الفضل فى ابتناء عمائر كثيرة فى تلمسان والجزائر ومراكش ، وبين هذه العمائر قلاع وأسوار وقصور ، كما إن الحضور الأندلسى كان واضحًا فى أسطول المرابطين ، ونهضت أسرة بنى ميمون الأندلسية بدور وافر فى قيادة سفن المرابطين (ثم الموحدين) ، وفى جهادهم البحرى ضد القطالونيين بإسبانيا ، وضد النورمان بصقلية .

5 - سقوط الدولة المرابطية :

على أن الضعف بدأ يتسرب إلى الدولة فى عهد على بن يوسف نفسه ، وذلك لأن زهده وتقواه وورعه ، جعل للفقهاء سطوةً عليه ، فكان لا يقطع أمراً إلا بمشورتهم ، كما يقول عبد الواحد « ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء - كما ذكرنا - وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم » .

لم يكن هؤلاء الفقهاء فى معظمهم على درجة عالية من العلم ، واقتصروا فى فقههم على الفروع ، وأهملوا علم الأصول ، وزينوا للأمير البطش بمن يخوض فى علم الكلام ، مما كان له أثره الفادح فى النهضة الفكرية . ولما دخلت كتب الغزالى إلى بلاد المغرب ، أمر الأمير فى سنة ٥٠٣/ ١١٠٥ بإحراقها ، وخاصة كتابه الجليل « إحياء علوم الدين » وكان الغزالى يحمل على الفقهاء وحرصهم على الدنيا ومتاعها .

من ناحية أخرى فإن رجال الدولة من المرابطين ، وقد فارقوا حياة البادية وتمرسوا بحياة الحضر ، بدأت تزول عنهم خشونتهم التى اشتهروا بها ، واتخذ بعضهم أسلوب حياة معاصريهم من الأندلسيين ، وتأثروا بترفهم ، مما أفقدهم بعض خصائصهم الأصلية وفضائلهم . ويذهب مؤرخون ينتمون إلى الموحدين إلى أن نساء المرابطين شرعن فى التحكم فيهم ، وهذه مقولة نتعامل معها بحذر شديد .

كذلك فإن الجهاد الذى طال أمده فى بلاد الأندلس أرهق هؤلاء المحاربين الشجعان ، ولأنهم سبق أن تعاملوا مع أهل الأندلس بجفاء ، فإنهم لم يحظوا منهم بالمعاونة الكافية فى هذا الجهاد ، بل إن الإندلسيين ثاروا ضدهم عدة مرات ، وكانت ثورتهم فى سنة ٥١٤/ ١١٢١ عارمةً ، وبلغ الأمر ببعض

ثوارهم ، لأن يتحدوا مع نصارى الشمال ضد إخوانهم فى الدين المرابطين .

ولابد للجهاد من مال ورجال ، وكان المرابطون فى عهد إقبالهم يلتزمون بالضرائب الشرعية ، ويعرضون عن سواها ، لكنهم بعد أن طال الأمد بحروبهم، وتحولوا فى هذه الحروب إلى الدفاع ، فقد تقطعت الغنائم ، فانصرفوا إلى النوائب والمغارم ، يفرضونها على رعاياهم فى المغرب والأندلس ، وتعسفوا فى جبايتها ، مما أحقد هؤلاء الرعايا عليهم ، وشرعوا ينصرفون عنهم .

ومما تجب ملاحظته إن المرابطين بدأ يعانون من عدم توافر الأجناد ، بسبب هلاك العديد من فرسان لمتونة ـ وهم عصب الدولة ـ فى الحروب التى لم تنقطع طيلة عهد هذه الدولة ، ثم إن الأندلسيين بدأوا ينصرفون عن الخدمة فى الجيش ، عندما تغيرت علاقتهم بالمرابطين ، فتوسع على بن يوسف فى استقدام الروم والأغزاز (أتراك أتوا من المشرق) ، ولما كان هؤلاء أجانب ، لا يهمهم إلا ما يرضى سيدهم ويرضيهم ، فإنهم انصرفوا إلى التعامل مع أهل البلاد بما لا يرضيهم ، وأمعنوا فى سلبهم ونهب أموالهم .

على أن العنصر الأهم فى إضعاف دولة المرابطين ـ وكانت ماتزال فى روعة شبابها ـ هو الحملة الظالمة التى شنها الموحدون ومهديهم المزعوم على المرابطين وقد تحولت هذه الحملة ، بعد وفاة على بن يوسف فى سنة ١١٤٢/٥٣٧ إلى حرب ضروس ، شملت عهد خلفائه ، وانتهت إلى انقراض دولة إسلامية عظيمة .

* * *

من حسنات دولة المرابطين ، إنها كانت أولى الدول الجامعة بالمغرب الأقصى ، الذى كان يشكل مع صحرائه وشطر المغرب الأوسط نحو نصف مساحة المغرب الكبير ، صحيح أن الأدارسة ، سبقوهم إلى محاولة تحقيق هذه الوحدة ، لكنهم نجحوا فى قسمه الشمالى فحسب ، وما عدا ذلك كان

دويلات صغيرةً أو كيانات قبليةً ، لا تخضع لسلطة دولة .

كذلك فإن المرابطين نجحوا فى القضاء على حركات متطرفة وهدامة ، انتسب بعضها إلى الإسلام ، ودعموا قواعد المذهب المالكى ، بحيث صار هذا المذهب هو مذهب سكان المغرب الأقصى جميعهم وسكان الصحراء .

بطبيعة الحال ، فإن امتداد الإسلام وتعميقه فى نفوس المغاربة ، كان خطوة هامة وأساسية فى تعريب المغرب الأقصى الذى كان بعيداً إذ ذاك عن العروبة ، ولم تعد اللغة العربية غريبةً فى هذه الأصقاع ، ولم تلبث أن صارت اللغة الأم أو اللغة التوأم للغات المحلية ، وبعد أن كان يوسف بن تاشفين يفهم العربية بصعوبة ، صار ولده وبعض أهل دولته على علم واسع بها .

من حسنات المرابطين أيضاً أنهم قاموا بالدور الأوفى فى الجهاد بالأندلس وتأخير ضياعها ، بعد أن تمزقت إلى عشرين دولة أو نحوها من دول الطوائف ، وأحدق بها النصارى من كل وجه ، وأضحت مدنها تتساقط تباعاً فى أيديهم ، وقد هلك فى هذا الجهاد بعض من قادة المرابطين وأبناء يوسف بن تاشفين ، وإذا كان المرابطون قد خسروا معارك عبر البحر ، فهم ربحوا معارك أخرى ، يرد الحديث عنها فى مكانها .

على أن أكبر حسنات المرابطين وأبقاها ، ما قاموا به من جهاد فى بلاد السودان ، فقد أضحت أقدام المسلمين راسخةً هناك ، خصوصاً بعد أن أقاموا - أو أعادوا إقامة - مدينة تنبُكْت (تمبكتو) فى سنة ٥٠٥ / ١١١١ ، وأوضحت هذه البلاد امتداداً حضارياً إلى جانب كونها امتداداً سياسياً للمغرب الأقصى . وبعد الحملات العسكرية التى قادها المرابطون ، وفد فى أعقابهم قوافل التجار ، وهاجرت نخبة من علماء المغرب والأندلس ، بحيث إنه لم تمر سنوات قليلة على ذهاب المرابطين ، حتى بزغت مملكة مالى الشهيرة فى غربى إفريقية .

الفصل السادس

الموحدون

قامت دولة المرابطون على أساس دعوة عبد الله بن ياسين الجزولى ، وهى دعوة بسيطة فى جوهرها ، تهدف إلى تنقية الإسلام من الشوائب التى علقت به ، ودفع حركة الجهاد ، ومساندة المسلمين فى أقطارهم كافة . وقامت دولة الموحدين على أساس دعوة محمد بن تومرت الهَرْغى ، وهى دعوة تسير على نحو مشابه ، وإن جنحت إلى قدر من التعقيد الفكرى والغموض ، ليس هنا مجاله . على أن الذى يهمنا هنا أن صاحب الدعوة ادعى المهدوية ، ولقيت مهدويته تأييداً من قبيلته مصمودة التى صارت سناده وعصبيته ، وكانت تتوق إلى مكانة سبقتها إليها صنهاجة .

١ - المهدى بن تومرت :

ولد محمد بن عبد الله بن تومرت الهرغى بقرية إيجيليز ببلاد السوس ـ موطن المصامدة ـ وتلقى فى صباه تعليمًا تقليديًا بمكتب قريته ، ولما اشتد عوده، ارتحل فى طلب العلم من منابعه بالمشرق ، حيث قضى سنوات ، تنقل خلالها بين أقطار عدة أهمها مصر ، وصاحب جملةً من العلماء بينهم ـ كما يدعى ـ الإمام أبو حامد الغزالى .

تأثر ابن تومرت بفكر الأشعرية ـ وهم متكلمو أهل السنة ـ كما تأثر بفكر المعتزلة ـ وهم أهل العدل والتوحيد ـ ولهم وجود سابق فى بلاد المغرب ، وتأثر أيضًا بفكر الظاهرية ـ وابن حزم (ت ٤٥٦هـ) على نحو خاص ـ وهو فكر مناهض لفكر المالكية ، وفقهائهم الذين جنحوا إلى التقليد . وكان ابن تومرت يصوغ أفكاره ـ على تناقضها أحيانًا ـ فيما يوافق مصلحته وأهدافه السياسية ومراميه .

شاهد ابن تومرت فى رحلتى الذهاب والعودة منكرات ، حاول أن يغيرها بالقوة ، وهو ما فعله فى المهدية وتونس وبجاية ، وأكسبه ذلك شهرةً ، عند عامة الناس وخاصتهم ، وفى الوقت نفسه فزعت السلطة الحاكمة منه ، فأبعده صاحب بجاية عن مدينته إلى ضيعة يقال لها ملاَّلة ، حيث أقام مسجداً ، وتوافد إليه الطلاب من كل صوب ، وكان بينهم عبد المؤمن بن على من قبيلة كُوميَّة الزناتية ، وقد صار فيما بعد أخص الناس به ، ولازمه بقية حياته .

بعد فترة ارتحل محمد بن تومرت إلى تلمسان ثم فاس ، حيث جعل مجلسه فى أحد مساجدها ، وبدأ طلبته يهاجمون الحوانيت التى تبيع آلات الطرب ويكسرونها ، ولما وصل خبره إلى والى المدينة ، جمع الفقهاء لمناظرته ، ولما كان هؤلاء على دراية بالفروع ، وليست لهم دراية بالأصول ، فإن خصيمهم غلبهم ، ولم يجد الوالى إلا أن يطرده من فاس ، فمضى إلى حاضرة البلاد مراكش ، وهناك عاود فقهاؤها مناظرته فغلبهم أيضًا ، وهم الأمير على ابن يوسف بن تاشفين بحبسه فى سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م ، ثم اكتفى بطرده من المدينة ، فغادرها إلى أغمات ، ثم إلى قريته بالسوس ، حيث دخلت دعوته فى طور جديد .

ركز ابن تومرت فى دعوته هذه المرة على التوحيد ، ومن هنا أتى المسمى الذى عرف به أتباعه ، وشن حملةً ظالمةً على المرابطين ، ورماهم بالتجسيم ، وهو نقيض التوحيد ، وأخذ على فقهائهم جملة مسائل ، من بينها قولهم بالقياس والإجماع ، وادعى - كذبًا - أن الغزالى يؤيده فى دعوته ، وكان للإمام الجليل مكان جليل فى نفوس المغاربة .

لم يلبث ابن تومرت أن أسفر عن مقصده النهائى ، فادعى النسبة إلى أهل البيت ، كما ادعى العصمة وإنه المهدى المنتظر ، وهو هنا أفاد من التجربة

الفاطمية ، وأفاد كذلك من تنظيماتها المعقدة ، فجعل أصحابه طبقات ، فى مقدمتهم (أهل عشرة) ، وهم أصحابه الأوائل ، ومنهم عبد المؤمن بن على ، يليهم (أهل خمسين) ويمثلون قبائل البربر ، بخاصة مصمودة ، المنافسة للمتونة قبيلة المرابطين ، ووضع كتبًا باللغتين العربية والبربرية ، شرح فيها أصول عقيدته ، وأهمها (أعز ما يطلب) و (المُوَطَّأ) .

عندما ذاعت دعوة ابن تومرت ، وبدأت الدولة تتوجس منه ، انتقل فى سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م إلى قرية نائية بالسوس تدعى تِينمُلّل ، وسرعان ما قويت شوكته ، وبدأت الاشتباكات الأولى مع المرابطين ، انتصر الموحدون فى بعضها وهزموا فى بعضها الآخر . وفى سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠ اعتزم غزو المرابطين فى عقر دارهم مراكش ، فأرسل إليهم أربعين ألفًا من أصحابه يقودهم عبد المؤمن ابن على ، ودار قتال شديد لدى موقع يدعى بالبحيرة فى ظاهر المدينة ، أسفر عن هزيمة الموحدين ، وهلاك عدد كبير منهم ، كما أصيب قائدهم بجراحات، وعاد بمن تبقى من جيشه إلى تينملل .

بعد شهور قليلة من موقعة البحيرة مات المهدى ، وكتم أصحابه خبر موته ثلاث سنوات ، شنوا خلالها غارات على المرابطين ، ثم أعلنت وفاة إمامهم فى سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م ، وبويع عبد المؤمن بن على الكومى أميرًا للمؤمنين وخليفة للموحدين .

كان المهدى بن تومرت مؤسس الدعوة الموحدية ، يختلف عن عبد الله ابن ياسين مؤسس الدعوة المرابطية فى جملة أمور ، أهمها إنه كان أكثر منه علمًا ، وأوفر ذكاءً ودهاءً ، وهنا تكمن خطورته ، سيما إذا عرفنا إنه كان يمارس دعاوته بين جموع بربرية شبه أمية ، تميل إلى تصديق الخوارق والأساطير ، فاندفعوا إلى مجالدة الدولة المرابطية ، وهى فى أوج قوتها ، كما كان إلى ذلك

عنيفاً فى توجيه هذه الجموع وقيادتها ، وكان يبطش ببعض أفرادها ، لأسباب تبدو أحياناً غير مفهومة ، وهو ما نلاحظه - على نحو خاص - فى المذبحة التى تدعى بمذبحة التمييز ، أى تمييز أعوانه المخلصين من غيرهم ، وقد أهلك فى هذه المذبحة التى وقعت فى سنة ٥١٩/ ١١٢٥ عدة آلاف ، يفترض إنهم أصحابه ، وربما نفسر عنفه - يذهب عنان (ت ١٩٨٦م) - فى ضوء إنه كان حصوراً لا يأتى النساء .

2 - عبد المؤمن بن على :

لم تمنع هريمة البحيرة ولا موت المهدى نفسه أن يواصل الموحدون نضالهم ضد المرابطين ، وخلال السنوات العشر التالية ، دارت بعض المعارك بين الجانبين ، لكنها لم تكن حاسمة ، وفى سنة ٥٣٧/ ١١٤٣ مات على بن يوسف بن تاشفين ، ودب خلاف بين قبيلتى لمتونة ومسوفة - وهما سنادا المرابطين - وانضمت هذه الأخيرة إلى الموحدين ، فمضى عبد المؤمن شرقًا ، وأخضع قبائل زناتة ، ودخل وهران وتلمسان ، ثم عدل إلى فاس حاضرة الشمال ، ففرض عليها حصاره فى سنة ٥٤٠/ ١١٤٥ ، واشتد فى هذا الحصار إلى أن سقطت فى يديه ، وسقطت بسقوطها مكناسة ، واتخذ عبد المؤمن طريقه إلى مراكش .

فى طريقه إلى عاصمة المرابطين ، انضمت إلى عبد المؤمن بعض قبائلهم فاعتز بها ، وأحكم حصاره على المدينة ، وحاول المرابطون أن يكسروا هذا الحصار ، فبادروا بالهجوم على أعدائهم خارج الأسوار ، لكنهم هزموا ، واقتحم الموحدون المدينة ، فامتنع إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين بالقصبة ، وبعد قتال عنيف ، استولى الموحدون عليها ، وقتلوا أمير المرابطين الشاب ، واستقرت الحال بعبد المؤمن فى مراكش فى ١٨ من شوال ٥٤١/ ٢٤

من مارس ١١٤٧ وجعلها عاصمته .

قبل قليل من دخول عبد المؤمن مراكش ، أذعنت سبتة لطاعته ، وبذا صارت دولته ، تضم المغرب الأقصى كله وشطر المغرب الأوسط ، وهو إقليم تلمسان ، ولم يلبث أن استقبل وفد أهل إشبيلية من بلاد الأندلس ، وعلى رأسه القاضى أبو بكر بن العربى المعافرى (ت ٥٤٣/ ١١٤٨) يدعوه لأن يملأ الفراغ الذى حدث بذهاب دولة المرابطين ، واضطراب حبل البلاد .

وجه عبد المؤمن جهوده فى السنوات التالية لمد سيطرته إلى بلاد الأندلس ، وقد واجهته صعوبات من قبل الأمراء المتغلبين على مدنها ، والذين كانت طاعتهم له قلقةً ، فضلاً عن حملات النصارى ـ خصوصًا نصارى ليون ـ الذين استولوا على المريّة وهى القاعدة البحرية الكبيرة ، على أن الموحدين استطاعوا استردادها فى سنة ٥٥٢/ ١١٥٧ ، وبعد ثلاث سنوات عبر عبد المؤمن إلى الأندلس ، وقد هدأت أحوالها على نحو ما ، وأمر ببناء حصن على جبل طارق الذى دعاه بجبل الفتح .

فى الوقت نفسه لم يغفل عبد المؤمن أمر المغربين الأوسط والأدنى ، وكان بنو هلال من ناحية ، والنورمان من ناحية أخرى ، قد أنهكوا دولتى بنى زيرى ، ونشأت حال من الفراغ شبيهةً بالحال التى كانت بالأندلس ، مما هيأ الفرصة لعبد المؤمن ، فقاد فى سنة ٥٤٦/ ١١٥١ حملةً أسفرت عن الاستيلاء على الجزائر والقلعة وبجاية ، وبذا زالت دولة بنى حماد ، ثم قاد حملة أخرى بعد سبع سنوات ، استغرقت سنتين ، استرد خلالها المهدية ، واستولى على إقيم إفريقية ، وأقمع العرب الهلالية ، ثم استألفهم ، ورحّل بعضهم إلى المغرب الأقصى ، واتخذ منهم جنوداً ، شاركوا الموحدين حروبهم فى الأندلس خاصةً .

تعد سنة الأخماس ٥٥٥ سنةً فاصلة فى تاريخ المغرب ، لأنه فى هذه السنة، صارت بلاد المغرب جميعها دولةً واحدة ، تمتد من طرابلس شرقًا إلى بحر الظلمات غربًا ، ومن الصحراء جنوبًا إلى موسطة الأندلس شمالاً ، وبذا تكون الدولة الموحدية أول دولة ، تضم بلاد المغرب جميعها والأندلس ، منذ زمن الفتوح الأولى ، وكان عبد المؤمن بسبيله إلى معاودة الغزاة بالأندلس ، حين وافاه أجله فى سنة ٥٥٨ / ١١٦٣ ، ودفن إلى جوار المهدى بتينملل .

3 - المنصور :

عندما مات عبد المؤمن خلفه ولده أبو يعقوب يوسف ، وقد واجهته المتاعب الناشئة عن حكم دولة كبيرة ، لكنه استطاع أن يتغلب على هذه المتاعب جميعها ، وصرف معظم جهوده إلى بلاد الأندلس ، حيث قام محمد بن سعد ابن مردنيش بثورة فى شرقى البلاد ، واستعان فى ثورته بالنصارى ، فدارت الحرب سجالاً بينه وبين الموحدين ، إلى أن خمد أمره فى النهاية ثم مات وأذعن ولده بعده للموحدين .

على أن الذى أهم الموحدين ما بلغهم عن تحرك ملك البرتغال ، لأخذ غربى الأندلس ، فعبر أبو يعقوب إلى هناك مرتين فى سنة ٥٦٦/ ١١٧١، وفى سنة ٥٨٠/ ١١٨٤ ، وفى هذه المرة الأخيرة ، أصيب بجراحات فى معركة له مع البرتغاليين بالقرب من شَنْتَرين ، ثم وافاه أجله ، فحمله أصحابه فى تابوت ، وعبروا به البحر إلى العدوة ، حيث دفن إلى جوار أبيه .

فى عهد أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف تكون الدولة الموحدية قد عاشت أزهى سنوات عمرها ، رغمًا عن أن حركة الاسترداد ، اشتد ساعدها فى بلاد الأندلس ، كما أن أنصار المرابطين بها ، حالوا أن يبعثوا دولتهم من جديد ، وقادهم فى ذلك بنو غانيّة فى جزيرة ميورقة ، وقد عبر بعضهم البحر

إلى إفريقية ، ودخل على بن إسحق بن غانية بجاية ، وعقد الخناصر مع بنى هلال وبعض الأغزاز (الاتراك) القادمين من مصر ، ودعا للخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥/ ١١٨٠ ـ ٦٢٢/ ١٢٢٥) وسقطت فى يديه معظم أنحاء إفريقية والمغرب الأوسط .

الحقيقة إن ما أقدم عليه ابن غانية كان إهداراً لقوة المسلمين فى مواجهة عدوهم النصرانى المتربص بهم فى بلاد الأندلس ، لأن ابن غانية شاء أن يضرب الموحدين فى إفريقية ، وهى بلاد واسعة ، تمتد إلى حدود مصر ، وكان بها كثرة من العرب الهلالية ، الذين لم يكونوا يعرفون انتماءً إلى وطن غير قبائلهم، ويتنقلون بولاءاتهم بين معسكر ومعسكر آخر .

ومع أن الموحدين تنبهوا لخطر بنى غانية منذ البداية ، ولم يترددوا فى إرسال جيوشهم الواحد تلو الآخر لحربهم ، إلا إن هؤلاء كانوا يجدون فى الصحراء الواسعة ملاذهم ، وقد استطاع أبو يوسف أن يوقع بهم هزيمة كبيرة فى سنة ٥٨٣/ ١١٨٧ ، واسترد قابس وتوزر وقفصة ، وهرب على بن غانية إلى الصحراء ، حيث هلك فى العام التالى ، وخلفه أخوه يحيى ، فاستقر ببسكرة ، وعاود ـ والأغزاز ـ مغاورة الموحدين ، وكان أبو يوسف بسبيل حربه ، حين وصلت إليه الأنباء بضرورة الانتقال إلى الساحة الأندلسية .

كان البرتغاليون قد حققوا بعض التقدم فى غربى الأندلس ، واستولوا على عدة مدن بينها شلب ، ومع أن الموحدين استردوها فى سنة ٥٨٧/ ١١٩١، إلا أنه فى ذلك الحين بزغ خطر جدير ، فقد انتهز أذفونش الثامن ملك قشتالة شغل أبى يوسف ببنى غانية ، وغزا الأراضى الإسلامية ، ورد أبو يوسف بأن قام بحملته الكبيرة التى أسفرت عن انتصار المسلمين فى الأَرَك فى سنة ٥٩١ ١١٩٥ انتصاراً يعدل انتصارهم فى الزلاقة فى سنة ٤٧٩/ ١٠٨٦، وعقب المعركة اتخذ أبو يوسف لقب المنصور .

أقام المنصور بالأندلس ثلاث سنوات استطاع خلالها أن يثبت النصر الذى أحرزه ، ثم عاد إلى مراكش فى سنة ٥٩٤/ ١١٩٨ ، ووافاه أجله فى العام التالى .

يعد المنصور أعظم خلفاء الموحدين ، ولا تعود العظمة هنا إلى انتصاره الكبير فى الأرك فحسب ، إنما تعود كذلك إلى ما كان لديه من سجايا تقوى وإيمان وزهد وعبادة ، وعناية بالعلم وأهله ، وكان يدقق فى اختيار قضائه ، ويحاسب عماله ويراقبهم ، ويفتح أبوابه لرعيته ويسمع منهم ، ولما وصلت أخباره إلى صلاح الدين (٥٦٧/ ١١٧١ـ ٥٨٩/ ١١٩٣) وكان يقارع الصليبين فى المشرق ، خاطبه من أجل أن يتحدا معًا ، لمقارعتهم فى المشرق والمغرب معًا ، ومن أسف لم يتحقق هذا الاتحاد .

4 ـ الناصر :

ما كاد الناصر يلى الخلافة بعد أبيه المنصور ، حتى عاد ابن غانية إلى نضال الموحدين ، وأخفق هؤلاء فى هزيمته ، مما دفع الناصر فى سنة ٦٠٠/ ١٢٠٣ لأن يرسل حملةً بحرية إلى معقله الأصلى بالجزائر الشرقية ، فاستولت عليها ، ثم خرج إليه فى السنة التالية ، والتقى به على مقربة من قابس ، حيث هزمه وجعله يرتد إلى الصحراء ، لكنه استمر فى ثورته حتى موته فى سنة ٦٣١/ ١٢٣٤ .

قرر الناصر بعد هذه المعركة أن يجعل على إفريقية واحداً من خاصة الموحدين ، تكون مهمته الحرب ضد بنى غانية ، فاستعمل أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنّتانى الذى استطاع ـ وولده بعده ـ أن يسدد إلى بنى غانية ضربات موجعة أنهت وجودهم ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يحقق الاستقلال لأسرته فى إقليم إفريقية .

لم ينس ملك قشتالة هزيمة الموحدين له فى الأرك ، فمضى وكون حلفًا من ملوك إسبانيا النصرانية ، وأتى إليه عون من خارجها ، وبذا استطاع أن يزيل عار الهزيمة الكبيرة فى الأرك فى سنة ٥٩١/ ١١٩٥ بنصره الكبير فى العقاب فى سنة ٦٠٩/ ١٢١٢ حيث استحر القتل فى المسلمين وأبيد كثرتهم ، وكاد الناصر نفسه يفقد حياته ، وغادر أرض المعركة بصعوبة شديدة ، ولحق بعاصمة دولته مراكش ، وقد استبد به الأسى فمات بعد شهور .

فى السنوات القليلة التالية لمعركة العقاب ، تساقطت قواعد الأندلس الكبيرة الواحدة تلو الأخرى فى أيدى الممالك النصرانية المنتصرة ، وتحولت الدولة الأندلسية إلى دولة صغيرة ، لا حول لها ولا طول جنوبى شبه الجزيرة .

تحدد معركة العقاب بداية النهاية لدولة الموحدين ، وكانت آثارها فى المغرب تقترب فى فداحتها من آثارها فى الأندلس ... يقول صاحب الروض المعطار (ت أواخر القرن الثامن) « وكانت هذه الوقيعة أول وهن دخل على الموحدين ، فلم يقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة » ، ويحدثنا مؤرخ عاش فى فترة قريبة من هذه المأساة ، أن الإنسان كان يتجول فى بلاد المغرب بعد تلك المعركة ، فلا يصادف شابًا قادرًا على القتال ، لأن القادرين عليه هلكوا فى العقاب .

بعد وفاة الناصر تعاقب على الخلافة ثمانية من أبناء بيته ، شغلوا بالنزاعات بين بعضهم البعض ، وتجددت الثورات ضدهم بالأندلس ، ثم خرجت عن أيديهم جملةً ، وهذا كله هيأ الفرصة للعرب الهلالية ، كى يعاودوا عيثهم فى مختلف الأنحاء ، وهيأ الفرصة أيضًا لخروج قبائل ، هى من صميم الموحدين على دولتهم ، إلى أن انقرضت هذه الدولة فى سنة ٦٦٨/ ١٢٦٩ على أيدى بنى مرين ، وقتل آخر خلفائها الواثق بالله المعروف بأبى دبوس .

5 ـ سقوط الدولة الموحدية :

على مدى تاريخ هذه الدولة تجمعت مجموعة عوامل أعانت على سقوطها، وإن استغرق هذا السقوط سنوات عديدة ، فالموحدون جعلوا أقطار دولتهم وعمالاتها إقطاعات عائلية ، فلا يولى فى هذه الأقطار والعمالات ، إلا من كان من السادة ، وهم بنو عبد المؤمن ، ونادراً ما كانوا يخرجون على هذه القاعدة ، ولم يكونوا جميعهم ذوى كفاءات عالية ، ثم إن هذا الاحتكار أدى إلى تناقض مع إسرة المهدى نفسه ، مما اضطر عبد المؤمن إلى أن يبطش ببعض أبنائها ، على أن هذا البطش كانت له نتائجه السيئة على المدى البعيد .

كذلك فإن الموحدين إذا كانوا قد استقدموا أعداداً كبيرة من الهلالية إلى المغرب الأقصى ، بهدف الاعتزاز بهم ، ومشاركتهم الجهاد بالأندلس ، إلا أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا على رأى واحد فى طاعتهم للموحدين ، فتراوحت مواقف قبائلهم بين الموحدين وخصومهم ، وهم فى الأحوال جميعها ، كانوا ينظرون إلى مصالحهم وحدها ، ولا يهتمون كثيراً بما هو أبعد منها ، اللهم سوى الجهاد فى الأندلس .

الأهم من هذا كله أن حملة الموحدين على المرابطين ، والتعامل معهم على نحو ظالم ، كان لها أثرها الفادح ، فى مناهضة أتباع هؤلاء ونذكر على نحو خاص ثورة بنى غانية التى دامت عشرات السنين ، خربت خلالها أراض واسعة فى إفريقية ، وأرهقت الموحدين ودولتهم ، وأسهمت على نحو مباشر فى سقوطها .

ويرتبط بهذه الحملة ما درج عليه المهدى وبعض خلفائه من عنف فى تعاملهم مع خصومهم وتكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم وسبيهم ، فأفنوا أعداداً كبيرة من المغاربة ، لأسباب تبدو أحياناً واهية ، أو إنه ليس لها ما يبررها ،

ولدينا مثال واضح لدى اقتحامهم مراكش فى أول دولتهم وتقتيلهم لأهلها ، ثم هدمهم لمساجد عامرة بها وإقامة مساجد غيرها .

إلى جانب ذلك ، فإن الأساس الفكرى الذى قامت عليه هذه الدولة تم ضربه بعد عهد الخليفة الناصر ، فقد تردد خلفاؤها المتأخرون بين الشك فى مهدوية ابن تومرت ، وبين إلغاء هذه المهدوية تارةً وإرجاعها تارةً أخرى ، وكانت وراء هذه المواقف المتباينة أهداف ومصالح سياسية وأهواء ، وخلفت آثاراً مدمرةً على قبائل مصمودة وغيرها من قبائل الموحدين ، وأعطتها المبرر لأن تثور على الدولة غير مرة .

6 - بعض السمات العامة للدولة الموحدية :

على إن عصر الموحدين يتسم بأن نشأت فيه دولة كبيرة جامعة لكل بلاد المغرب ، ولم يكن المرابطون قد جاوزوا فى زحفهم شرقًا جزئر بنى مزغنّة ، كما يتسم أيضًا بأنه ولأول مرة فى تاريخ المغرب يتسمى بربر بألقاب الخلافة ، وتحايلوا على شرط العروبة ، فادعوا الانتماء إلى قبيلة قيس تحديداً ، وأن ليس لهم من كومية - قبيلتهم الحقيقية - سوى الخئولة ، وعليه فقد اعتبروا أنفسهم الورثة الحقيقيين للخلافة الإسلامية الجامعة ، وإنه لم يعد للعباسيين ولا لغيرهم حق فيها . والغريب أن ادعاءهم هذا صادف قبولاً على نحو ما فى المشرق ، بل إن بعض كتابهم يزعمون أن صلاح الدين نفسه اعترف بخلافتهم .

إلى ذلك يتسم عصر الموحدين فى صدره الأول بنهضة فى مجالات شتى ، فقد عنوا بالإدارة عنايةً فاقت عناية المرابطين ، فكان خلفاؤهم يتابعون سياسة عمالهم ويحاسبونهم ، وأعاد عبد المؤمن تكسير بلاد المغرب (أى مساحتها) من برقة إلى المحيط ، ونظم جبايتها ، وعنى من تلاه من خلفائه بالمياه وشيدوا لها النواعير ، وحفروا الآبار ، وأفادوا من خبرة أهل الأندلس فى هذا الشأن ،

وأشاعوا الأمن على طرق التجارة ، ورغمًا عن حال الحرب المستمرة مع القوى النصرانية ، إلا أنهم عقدوا اتفاقات مع المدن الإيطالية ، خصوصًا جنوة ، ومنحوها عدة امتيازات ، وسمحوا لها ببناء فنادق لإقامة التجار ، وكان لهذا الازدهار انعكاسات تتضح فى أمر المنصور بمضاعفة الدينار الموحدى .

يتسم عصر الموحدين كذلك بنهضة ثقافية كبيرة ، تعد امتداداً للنهضة التى حدثت فى عصر المرابطين ، وإن كانت على نحو أكثر عمقًا ، فلا نشاهد التزمت الذى نشاهده فى عصر المرابطين ، وقد شجع الخلفاء الموحدون الحركة الفكرية ، وكان أبو يوسف يعقوب نفسه يجمع حوله طائفةً من المفكرين والكتاب ، ولا نلاحظ تشدداً ، للدولة تجاه هؤلاء سوى مرتين ، مع موسى بن ميمون اليهودى (ت ٦٠٢/ ١٢٠٤) وابن رشد (الحفيد) المسلم (ت ٥٩٥/ ١١٩٨) .

ولعل أهم عنصر فى هذه النهضة هو هجرة أعداد كبيرة من الأندلسيين إلى بلاد المغرب ، وأحسن الموحدون وفادتهم وشجعوهم ، وهيئوا لهم فرصة العمل فى حكومتهم ، فصار منهم قضاة وكتاب ، وإن لم يمنع ذلك من التضييق عليهم فى بعض الأحيان ، حين ظهرت بينهم أفكار لا تتفق وفكر الإمام المهدى .

من الشخصيات الكبيرة التى ظهرت فى عصر الموحدين وكلهم (أو جلهم) أندلسيون ، ابن صاحب الصلاة (ت ٥٧٨/ ١١٨٢) مؤرخ ، ابن طُفَيل (ت ٥٨١/ ١١٨٥) فيلسوف ، ابن رشد (الحفيد ت ٥٩٥/ ١١٩٨). فيلسوف ، ابن جُبَيْر (ت ٦١٤/ ١٢١٧) رحالة ، ابن عربى (ت ٦٣٨/ ١٢٤٠) متصوف ، ابن البيطار (ت ٦٤٦/ ١٢٤٨) عالم نبات ، عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٧/ ١٢٤٩) مؤرخ ، ابن الأبَّار (ت ٦٥٨/

١٢٦٠) مؤرخ وأديب ، ابن سعيد (ت ٦٨٥/ ١٢٧٤) أديب .

امتد التأثير الأندلسى إلى فنون العمارة والبناء ، ويتضح ذلك فى المساجد والقصبات والقصور التى ابتناها هؤلاء أو شاركوا فى ابتنائها ، ونذكر على نحو خاص جامع القصبة فى مراكش وجامع حسان فى الرباط وجامع الأندلسيين فى فاس .

يقول ابن سعيد ـ وهو شاهد عيان زار مراكش بعيد ذهاب دولة الموحدين ـ « إن حضرة مراكش هى بغداد المغرب ، وهى أعظم ما فى بر العدوة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها ، إنما ظهرت فى مدة بنى عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن » .

الفصل السابع
بلاد المغرب في أواخر العصور الوسطى

١ - ملاحظات أولية :

فى أعقاب السقوط النهائى للدولة الموحدية فى سنة ٦٦٨/ ١٢٦٩، مرت بلاد المغرب بمرحلة طويلة تمتد ثلاثمائة سنة أو نحوها ، هى آخرة مراحل التاريخ المغربى فى العصور الوسطى ، وأولى مراحل التاريخ المغربى فى العصور الحديثة .

رغمًا عن طول هذه المرحلة وقربها (النسبى) من عصرنا الذى نعيشه ، إلا إنها تتسم بالتعقيد والتداخل والغموض ، فأخبارها فى مصادرنا قليلة ، وترتبط على نحو أساسى بنزاعات داخلية وهجمات خارجية وفتن ، تتشابه فى بواعثها ، وتتشابه فى النتائج التى أفضت إليها ، الأمر الذى أهم بعض المؤرخين إلى أن ينصرفوا عنها ، أو إنهم صاروا يشيرون إليها من بعيد .

توزعت بلاد المغرب مجموعة من الدول ، لا تجاوز الواحدة منها فى أحيان إطار المدينة ، ولا تجاوز فى أحيان أخرى إطار القبيلة ، وقد تجاوز إطار المدينة أو إطار القبيلة ، لكنها لا تلبث بعد فترة قصيرة أو طويلة أن تتوزعها مجموعة من السيادات للأسرة الواحدة ، تنزع إلى تعدد دائم أو إلى توحد قلق .

أهم هذه الدولة هى دولة بنى حفص فى إفريقية ، دولة بنى زيّان فى المغرب الأوسط ، دولة بنى مرين (ثم بنى وَطّاس) فى المغرب الأقصى .

يتضح لدينا إن هذه الدول لم تنشأ جميعها دفعة واحدة ، إنما هى نشأت عبر عملية مخاض طويلة ، لأن الدولة الموحدية نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة ، بل إنه يصعب علينا أن نحدد على نحو دقيق تاريخًا نتفق عليه ، بشأن قيام دولة من هذه الدول، وأيضاً بشأن سقوطها .

هناك أمر آخر هام هو إن هاجس الوحدة التى كانت قائمةً فى عصر الموحدين ظل ، ولمدى يصل إلى مائة عام عنصراً أساسيًا فى سياسات الدول المغربية الناشئة ، وبزغت محاولات لتحقيق هذه الوحدة ، كانت نتائجها محدودةً ، ثم أقلع المغاربة عن هذا الهاجس وما يزالون .

جمعت بين الدول المغربية المتعاصرة عوامل مشتركة ، أخصّها إن الأندلسيين والهلالية ، شكلوا عنصرين هامين فى سياسات هذه الدول ، كما إنهم شكلوا عنصرين هامين من عناصر سكانها .

تطرق الأندلسيون إلى بلاد المغرب فى عصور ماضية تجاراً أو مقيمين إقامة عابرة ، ثم بدأوا يتطرقون على نحو واضح فى عصر المرابطين ، وعلى نحو أوضح فى عصر الموحدين ، حيث جمعت الأندلس والمغرب سيادة واحدة ، واستعان هؤلاء وأولئك بهم فى مرافق دولتهم . لكن هجراتهم تدافعت واشتد زخمها مع سقوط الأندلس الكبرى ، وإنحياش الوجود الإسلامى فى زاوية جنوبية صغيرة من شبه الجزيرة ، فملئوا المدن المغربية جميعها من قاصية السوس إلى طرابلس ، بل إنهم جاوزوا فى هجراتهم هذه المدن إلى أنحاء نائية ، وصلت ببعضهم إلى بلاد السودان .

كان الأندلسيون حيثما كانوا فى مهاجرهم يلقون الترحيب من الحكام والمحكومين ، خصوصًا وإن لم تكن لهم عصبية تخشى عاديتها ، كما كانت لديهم حضارة أرقى . وأفاد المغاربة من خبراتهم فى مجال الزراعة ومهاراتهم فى وسائل الرى ، وأفادوا كذلك من خبراتهم فى مجال العمارة ، وهو ما يتضح فيما وصل إلينا من عمائر تعود إلى هذا العصر ، واختص كبارهم بوظائف مرموقة لدى الدولة ــ بينها ديوان الإنشاء ــ وصعد بعضهم إلى مرتبة الوزارة .

لدينا عبارة ذات دلالة ، قالها ابن غالب ونقلها عنه ابن سعيد . يقول ابن

غالب (عاش فى القرن السادس) : « ولا يستعمل بلدى ما وجد أندلسى » .

أما عن بنى هلال ، فهؤلاء ظلوا ولمدى طويل ، يقصرون نشاطهم على إفريقية ، وبعض أنحاء المغرب الأوسط ، ولكنهم انساحوا إلى سائره فى عهد الخليفة الموحدى عبد المؤمن ، ثم فى عهد حفيده المنصور ، بل انتقل عدة آلاف منهم إلى الأندلس ، حيث كان لهم فى الجهاد بلاء مشهود .

صار الهلالية يشكلون قوة عسكرية أساسية (أو القوة العسكرية الأساسية) للدولة المغربية الواحدة ، وهو ما يفسر ـ من إحدى الزوايا ـ نزاعات (وحروبًا) نشبت بين طوائف الهلالية ، بسبب توزع ولاء هذه الطوائف بين الدول المغربية، أو بين المتنازعين من المغاربة ، كما صاروا يشكلون عنصراً هامًا فى الحياة الاقتصادية ، فكانت الدولة تعهد إليهم بالخفارة على طرق التجارة ، بل كانت تعهد إليهم بجباية الأموال من رعاياها ، وكثيراً ما كانت تقطعهم أقاليم بأسرها .

لهذا كله صارت للهلالية مكانة عالية وهيئة وشأن ، وقد نوّه إلى ذلك رحالة مصرى زار بلاد المغرب فى العام ٨٦٨/ ١٤٦٣ ـ ١٤٦٤ .

يقول عبد الباسط بن خليل الحنفى : « من كان معه أمير العربان راج أمره، ومن كان عليه كان فى إدبار وتخوف » .

إذا انتقلنا إلى الحياة الاقتصادية وجدنا الزراعة ـ يذهب العروى ـ قد ركدت حالها ـ بسبب النقص الشديد فى عدد السكان بعد العقاب ، وما نشب من حروب بين الدول التى تنازعت السيادة فى بلاد المغرب ، ولم يستطع بنو هلال أن يملئوا هذا الفراغ السكانى ، لأنهم فى أصلهم رعاة لا زراع .

على أن التجارة ـ على العكس ـ تحسنت أحوالها فقد أحيا عرب المعقل

الطرق التجارية الغربية ، وكانت هذه الطرق قد أصابها الركود فى العصر الموحدى ، وترتب على ذلك أن ازدهرت تلمسان لصلتها بهؤلاء العرب ، كما إن الحفصيين فى تونس انفتحوا على المشرق والمغرب معًا ، وعقدوا اتفاقات مع المدن الإيطالية ، وصار للتجار الأجانب فنادق يعيشون فيها وقناصل ينظمون أمور حياتهم .

أما عن الحياة الثقافية ، فقد تعددت وجوهها ، ومع أن الأندلسيين كانوا أهم هذه الوجوه وأكثرها خطرًا ، إلا أننا نجد وجوهًا مغربية ، أو إذا شئنا الدقة بربريةً ، صارت عربية التفكير واللغة والمزاج ، ووصلت الحال بالبربر إلى أن ولى بعضهم القضاء ، وهو منصب كانت العادة أن يليه من كان عربى الأرومة أو أندلسييها ، والأهم أن صدرت كتب فى علم التاريخ لمؤلفين من البربر ، كسروا احتكار الأندلسيين (والمشارقة) لهذا العلم .

بيد إنه مع كثرة هذه الوجوه وتعددها ، فإن من صعد منها إلى مكانه عالية عدد يسير ، بينها ابن الخطيب (ت ٧٧٦/ ١٣٧٤) وهو أندلسى قبل أن يكون مغربيًا ، وابن خلدون وله من الأندلس أصله البعيد ، ثم إنه قضى الشطر الأخير والأهم من حياته بالمشرق ومصر على نحو خاص .

ليس لدينا من تفسير لهذه الظاهرة ، سوى أن الثقافة العربية الإسلامية فى ذلك الزمان (أواخر العصور الوسطى) كانت قد توقفت عن النمو وأصابها الركود ، بعد أن فارقت عصورها الزاهرة ، ثم إن الأندلس وهى العنصر المؤثر فى ثقافة بلاد المغرب وحضارتها توقفت ثقافتها عن النمو كذلك وأصابها الركود، ولا نشاهد فى مملكة غرناطة عبر تاريخها الطويل (٢٦٢سنة) ما يتناسب وهذا التاريخ من أسماء .

2 - بنو حفص :

ينسب بنو حفص إلى أبى حفص عمر بن يحيى الهِنْتانى (هنتانة من مصمودة) وهو أحد العشرة الذين ناصروا محمد بن تومرت فى بداية دعوته وبايعوه ، وصار بنوه بعده يمثلون الطبقة الثانية من الموحدين وعرفوا بالشيوخ ، فى حين كان بنو عبد المؤمن يمثلون الطبقة الأولى وعرفوا بالسادة .

إبان الصراع مع بنى غانية فى إفريقية برز دور أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص فى التصدى لهم ، مما دفع الخليفة الموحدى الناصر إلى أن يعهد إليه بولايتها فى سنة ٦٠٣/ ١٢٠٧ فظل عليها حتى وفاته فى سنة ٦١٨/ ١٢٢١ .

انتهز أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الفرصة التى أتاحها اضطراب أمر الموحدين ، وما قام به الخليفة المأمون من ضرب للفكرة المحورية للدعوة الموحدية، وهى مهدوية ابن تومرت ، فادعى ميراث هذه الدعوة ، وأعلن خلع الطاعة للدولة فى سنة ١٢٢٩/٦٢٦ ، وتسمى بالإمارة فى تونس ، وقضى على البقية الباقية من بنى غانية ، واستولى على قسطنطينة وبجاية ودخل تلمسان ، وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسجلماسة ، كما أتته بيعة بنى مرين فى سياق صراعهم ضد الموحدين ، ودعا له عدد من ثوار الأندلس ، ووجه إليه ابن الأبَّار قصيدته السينية المشهورة ، ، يستصرخه لنجدة أهل بلنسية وأولها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

أرسل أبو زكريا سفنه إلى المدينة الأندلسية مشحونة بالزاد والعتاد ، لكنها لم تستطع أن تنجد المدينة المحاصرة التى ما لبثت أن سقطت فى أيدى نصارى أرَغونة فى سنة ٦٣٦/ ١٢٣٨ . على أن أبا زكريا فتح أبواب دولته للمهاجرة من الأندلسيين ، وعلى نهجه سار من أتى بعده من الحفصيين .

قبل وفاة أبى زكريا فى سنة ٦٤٧/ ١٢٤٩ كانت دولته تمتد من أحواز طرابلس شرقًا إلى مدينة الجزائر غربًا ، وبدا كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب، وهو ما يؤكده ابن خلدون .

ولى بعد أبى زكريا ولده أبو عبد الله محمد ، فتسمى بالخلافة نافيًا لحق بنى عبد المؤمن فيها ، وأتته بيعة بنى مرين بفاس وبنى زيان بتلمسان وبنى الأحمر بغرناطة . وبعد سقوط بغداد فى سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ أتته بيعة شريف مكة ، وربما كان إعلان السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨/ ١٢٦٠ ـ ٦٧٦/ ١٢٧٧) الخلافة العباسية فى القاهرة رد فعل على ما قام به أبو عبد الله ، وليس مصادفةً ـ يذهب العَبَّادى ـ أن كان لقب هذا الخليفة العباسى هو اللقب ذاته الذى اتخذه السلطان الحفصى وهو المستنصر بالله .

استطاع المستنصر أن يحقق مكانة كبيرةً بين حكام عصره ، وجاءته سفارات من أنحاء قاصية ، بعضها من السودان ، وبعض آخر من أوربا ، وعنى بعاصمته تونس ، وابتنى بها عمائر عديدة ، وازدهرت الأحوال العامة فى أيامه ، بحيث صارت هذه الأيام « أعز أيام الدولة الحفصية » كما يقول ابن خلدون .

تعرضت دولة المستنصر لهزة قوية ، بسبب غزو لويس التاسع ملك فرنسا لتونس فى سنة ٦٦٨/ ١٢٧٠ أى بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر ، وكان من حظ المستنصر أن أخفقت هذه الغزوة هى الأخرى ، بسبب الوباء الذى عصف بجنودها وعصف بحياة الملك نفسه .

مات المستنصر فى سنة ٦٧٥/ ١٢٧٧ ، وامتدت الدولة بعده ثلاثمائة سنة ، حتى سنة ٩٨١/ ١٥٧٣ . وعبر هذا التاريخ الطويل احتفظ الحفصيون بلقب الخلافة ، وادعوا فى ولد أبى حفص عمر رضى الله عنه ، لكنهم فى بعض فترات حكمهم ، وخاصة فى شطره الأخير تخلوا عن هذا اللقب .

كان الحفصيون يعتبرون أنفسهم ورثة الموحدين أو إنهم إمتداداً لهم ، وأفادوا من عدول بعض بنى عبد المؤمن عن فكرة المهدوية ، ليتلمسوا أساسًا شرعيًا لقيامهم ، وعلى هذا استمرت رسوم الدولة الموحدية ونظامها موجودة عندهم ، ومنها مشيخة الموحدين ، وكان شيخها ذا مكانة كبيرة ، تعدل مكانة رئيس الوزراء ، وكان أفرادها جميعهم ، يتقاضون رواتب وأعطيات ، فضلاً عما كان لهم من إقطاعيات ، وحرص الأمراء من بنى حفص ، لدى نشوب نزاعات بينهم ، على أن يتجه الواحد منهم إلى طلب العون من هذه المشيخة .

كان الحفصيون غرباءً وافدين على إفريقية ، إذ كانوا ينتمون إلى مصمودة التى تنتمى إلى بلاد السوس ، فكانوا يفتقرون إلى عصبية تقوم بهم ، لذا فتحوا أبواب دولتهم لاستقدام الغرباء ، ومنهم أقرباؤهم من مصمودة ، ومع أن هؤلاء المصامدة كانوا قليلين ، إلا أنهم اقتعدوا مناصب كبيرة ومنها مشيخة الموحدين .

استقدم الحفصيون كذلك أعداداً كبيرة من الأندلسيين ، وأتاحوا لهم الفرصة لأن يشاركوا فى النهضة العامة بمرافق دولتهم ، ومنها الحجابة والوزارة والقضاء ، وكان لتصاعد نفوذهم فى عهد الخليفة الثالث الواثق أثره فى ثورة الموحدين عليه وعزله فى سنة ٦٧٨ ـ ١٢٧٩ .

كذلك برزت أسماء كبيرة من الأندلسيين فى الحياة الأدبية ، بينها ابن الأبّار (ت ٦٥٨/ ١٢٦٠) وحازم القرطاجنى (ت ٦٨٤/ ١٢٨٥) وابن سيد الناس (ت ٧٣٤/ ١٣٣٣) وابن عميرة .

يدخل فى جملة هؤلاء من يدعون بالعلوج ، وهو فى أصلهم أسرى نصارى ، أو رقيق مجلوبون بالشراء ، وكان يطلق على الواحد منهم فى بعض الأحيان تعبير قائد ، ونيطت بهم ـ لدى إسلامهم ـ مهام عسكرية ، مثل حراسة الخليفة أو الأمير .

على أن الأهم من هؤلاء جميعهم هم بنو هلال (سُلَيمْ ورِياح على نحو أساسى) الذى طال بهم العهد فى البلاد ، وخاصة فى إقليم الجريد ، وصاروا أقرب ما يكونون إلى البلديين ، وعلى خلاف ما كان عليه أقرباؤهم بالمغرب الأقصى ، فإن الحفصيين اختصوا بهم ، وجعلوا منهم قوةً أساسية (أو القوة الأساسية) فى جيوشهم ، ومنحوهم اقطاعات ورواتب ، وكانوا يغضون الطرف كثيراً عن انتزائهم وإنشائهم دولا (أو دويلات) مستقلة ، مثل دولة (أو دويلة) بنى جامع فى قابِس . وقد حفظ الهلالية للحفصيين صنيعهم ، فكانوا ينحازون إليهم ، عندما كان يجتاحهم المرينيون ، وإن وقعت صدامات بينهم وبين الدولة فى بعض الأحيان ، أو توزع ولاؤهم بين المتنازعين على السلطة .

درج الخلفاء الحفصيون على أن يعهدوا بحكم الولايات التى تنتظمها دولتهم إلى عدد من أبناء بيتهم ، مما أفضى إلى مشكلات كثيرة ، ولم تعد الدولة بعد انقضاء الصدر الأول من عمرها دولةً واحدةً فى غالب الأحيان فقد نازع أمراء طرابلس وبجاية وقسنطينة الأمير (أو الخليفة) الحفصى فى تونس ، وكان الواحد منهم يدعى لنفسه فى بعض الأحيان الإمارة العامة ، لذا أضحى صعباً على المؤرخين أن يتفقوا على تسلسل محدد لهؤلاء الأمراء .

تحقق للبلاد فى الشطر الأول من تاريخ هذه الدولة قدر من الازدهار ، خصوصاً فى مجال التجارة ، فرغماً عن حال الحرب المتواترة مع نصارى أوربا ، إلا أن هذه الحال لم تمنع من قيام علاقات تجارية بينهم وبين إفريقية ، ولا سيما بعد أن صار الحوض الشرقى من بحر الروم مغلقًا أمام الأوربيين ، بسبب السيادة المملوكية ثم السيادة العثمانية ، ومن ناحيتهم فقد أذن الحفصيون للتجار الفرنج بالإقامة فى بلادهم ، فاتخذوا فنادق أى وكالات تجارية ، يلحق بكل منها نزل لمعيشة التجار ، وكان لكل جماعة من الفرنج قنصل معتمد فى تونس .

أفضت التجارة إلى تدفق الأموال إلى خزينة الدولة ، فقد كانت تتقاضى العشر على الصادر والوارد من هذه التجارة ، وصارت عملتها ذات عيار ثابت ، ويتم التعامل بها فى المرافئ الأوربية .

كان لهذا الرواج أثر الواضح فى المنشآت التى قام عليها بنو حفص ، وأضحت تونس قصبة البلاد ، واتسعت لتضم الأرباض المجاورة لها ، وأدير حولها سور ، وأنشئت دار صناعة بمينائها ، كما أنشئت مدارس عديدة وجوامع ، وجدد جامع الزيتونة ، وجعلت عليه أوقاف جليلة ، وأقيمت إلى جواره مكتبة عامة ، بحيث إن هذه المنشآت دينية وغير دينية ، صارت تضاهى المنشآت المملوكية المعاصرة فى مصر والشام .

بعد وفاة الخليفة المستنصر فى سنة ١٢٧٧/٦٧٥ اضطربت أحوال البلاد فى عهود خلفائه ، وتنازعوا على السلطة ، واستعان بعض هؤلاء المتنازعين بخصومهم التقليديين من بنى مرين ، وترتب على ذلك أن دخل السلطان أبو الحسن المرينى ثم ولده أبو عنان من بعده تونس ، وبدأ عهد من التبعية دام نحو عشر سنوات ٧٤٨/ ١٣٤٧ ـ ٧٥٨/ ١٣٥٧ .

عاد الحفصيون إلى حكم إفريقية ، لدى انسحاب المرينيين ، وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار مع ولاية أبى العباس أحمد المعروف (أيضًا) بالمستنصر ٧٧٢/ ١٣٧٠ ـ ٧٩٦/ ١٣٩٤ ، واستمرت فى عهد ولده أبى فارس عبد العزيز ٧٩٦/ ١٣٩٤ـ ٨٣٧/ ١٤٣٤ وحفيده أبى عمرو عثمان ٨٣٩/ ١٤٣٥ـ ٨٩٣ / ١٤٨٨ ، وفى عهد هذا الأخير بلغت الدولة مكانة عاليةً نوّه إليها رحالة فلمنكى معاصر لدى زيارته تونس فى سنة ٨٧٤/ ١٤٧٠ ، وصارت لأبى عمرو سمعة طيبة بين حكام عصره ، ومنهم لويس الحادى عشر ملك فرنسا ، واعترف أول الوَطّاسيين فى المغرب الأقصى بطاعته .

بعد وفاة أبى عمرو عثمان مرت البلاد وعلى مدى مائة عام بفترة طويلة من الاضطرابات ، تعددت خلالها أسماء الطامعين فى السلطة ، وأضحت مجالاً لصراع طال أمده بين المجاهدين الأتراك وبين الإسبان وتراوحت مواقف الحفصيين بين الجانبين ، إلى أن خلص الأمر فى سنة ٩٨١/ ١٥٧٣ للأتراك، وصارت تونس إيالةً عثمانية .

3 - بنو زَيَّان(*) :

إذا كان الحفصيون قد استبدوا بالشطر الشرقى من المغرب العربى ، فإن الشطر الغربى صار مجالاً لنشاط قوتين تنتميان إلى زناتة ، هما بنو زيان وبنو مرين .

يقع إقليم تلمسان إلى الغرب من نهر شلف ، وتمتد واجهته البحرية إلى مجرى نهر ملوية ، وتمتد واجهته القارية إلى أعماق الصحراء ويعد هذا الإقليم من أوفر أقاليم المغرب خيراً ، فتتخلله سهول ، تجرى بها وديان ، تحمل بالأمطار شتاءاً ، كما يعد محطةً هامةً للتجارة العابرة بين الشرق والغرب ، ثم بين البحر والصحراء .

نتيجةً للغزوة الهلالية ، تدافعت القبائل الزناتية من إقليم الزاب والأقاليم المجاورة له فى اتجاه المغرب الأوسط ، الذى صار يعرف بوطن زناتة ، واستقر بعض هذه القبائل فى إقليم تلمسان ، ودانت بالطاعة للموحدين .

إبان الفوضى العامة التى اجتاحت بلاد المغرب عقيب معركة العقاب استطاع يَغْمُراسن بن زيان أن يقتعد مع قومه بنى عبد الواد مدينة تلمسان ، واستقل بها عن الدولة الموحدية ، وإن أبقى على الطاعة الشكلية لها ، وحكم

(*) أو بنو عبد الواد وهى القبيلة التى تنتمى إليها هذه الأسرة .

فترةً تقارب الخمسين سنةً (٦٣٣/ ١٢٣٥- ٦٨١/ ١٢٨٢) ، سيطر خلالها على إقليمها ، ونفذ منه إلى مدينة سجلماسة الهامة ، وظلت هذه المدينة فى حوزته سنوات طويلة .

كان يغمراسن يدرك صعوبة الموقف الذى كان عليه ، باعتبار دولته صغرى دول المغرب وأهونها قوةً ، واستشعر الخطر من بنى مرين الذين تصاعد نجمهم بالمغرب الأقصى ، لذا شرع فى مصانعة خصومهم الموحدين ، وعليه فقد تحالف مع الخليفة الموحدى السعيد ، وأعانه على التصدى للمرينيين ، لكنه انقلب عليه ، عندما سعى هذا بدوره إلى أن يعيد الوحدة إلى الدولة الموحدية ، ونشب بين الاثنين معركة ، انتهت إلى مصرع هذا الخليفة فى سنة ٦٤٦/ ١٢٤٨ .

عندما استقرت الحال بالمرينيين فى فاس تطلعوا إلى أن يخلفوا الموحدين فى مراكش ، وتطلعوا إلى أن يضعوا أيديهم على سجلماسة ، فعاود يغمراسن مصانعة الموحدين ، ونشبت عدة وقائع بينه وبين المرينيين .

لدى الصراع الأخير بين الموحدين والمرينيين ، اتخذ يغمراسن جانب الخليفة الموحدى أبى دبوس ، وأعانه فى حربه ضد الأمير المرينى أبى يوسف ، لكنه بعد أن حاقت به الهزيمة فى سنة ٦٦٦/ ١٢٦٧ بوادى ملوية ، وفقد أحد أولاده ، انسحب من هذا الصراع ، وترك الموحدين لمصيرهم الذى تحدد نهائيًا بدخول أبى يوسف مراكش بعد عامين .

بعد أن استقرت الحال بأبى يوسف فى مراكش شرع فى تأمين حدوده الشرقية ، وأصاب يغمراسن بهزيمة كبيرة فى سنة ٦٧٠/ ١٢٧١ على مقربة من وَجْدَة ، وسار منها إلى تلمسان ، وشدد فى حصارها عامًا كاملاً ، ثم رفع الحصار ، ليتفرغ للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى .

كان من حظ يغمراسن أن شغل أبو يوسف فى السنوات التالية بالجهاد فى بلاد الأندلس ، ولم يشارك هو فى هذا الجهاد ، بل إنه انقاد إلى بنى الأحمر ، عندما انقلبوا على حليفهم المرينى ، وتردد بهجماته على حدود الدولة المرينية ، مما دفع أبا يوسف إلى أن يعاود حربه فى سنة ٦٧٩/ ١٢٨٠ ، ويعاود هزيمته لدى قريب من تلمسان .

رغماً عن الهزائم التى حاقت بيغمراسن فى صراعه الدائب والدائم مع بنى مرين ، إلا أنه بعد كل هزيمة ، كان يجد ملاذه فى الصحراء الواسعة ، يعاود بعدها حكمه لتلمسان ، وظلت هذه حاله حتى وفاته فى سنة ٦٨١/ ١٢٨٢ .

كان بنو زيان يشعرون بأن لا قبل لهم ببنى مرين ، لذا جنحوا إلى تحاشى الصدام بهم ، وأفادوا من النزاعات التى كانت تنشب أحياناً داخل الأسرة الحاكمة ، فيناصرون فريقًا على حساب آخر ، كما أفادوا من التناقضات التى كانت تنشأ أحيانًا بين فاس وغرناطة ، وكانوا يحظون فى هذه الأحيان بمساندة غرناطة .

من ناحية أخرى ، فإن بنى زيان وجدوا أن مجال التوسع بالنسبة لهم إنما هو فى اتجاه الشمال والشرق ، لذا فقد توسعوا بحدود دولتهم على طول ساحل المغرب الأوسط ، وكانت هذه الحدود تتفاوت بين مرحلة وأخرى لكنها كانت تضم على نحو أساسى الجزائر ووهران والمرسى الكبير وهُنَيْن ومستغانم وشرشال وتنس .

وعليه فقد نشب صراع ، وإن كان أخف درجة بين بنى زيان وبنى حفص، لكن هذا الصراع كان يحكمه ميل عام لدى الحفصيين للإبقاء على دولة الزيانيين ، باعتبار كونها دولة حاجزة بينهم وبين المرينيين ، وفى ذلك يقول العُمَرى (ت ٧٤٩/ ١٣٤٨) أن صاحب إفريقية كان يرى « إن تلمسان

حجاب بينهما (أى بينه وبين المرينى) وأن لا طاقة له بالمرينى ، ولا قبل له به، ويحق له الخوف فإنه فى قبضته متى أراد » .

لذلك فقد درجت الحال لدى الحفصيين أن يغضوا البصر عن تطلعات الزيانيين شرقًا ، مادامت هذه التطلعات لا تسفر عن تغييرات أساسية فى حدود دولتهم ، لكنها إذا ما جاوزت هذه الحدود ، فإنهم كانوا يقومون بحملات إلى تلمسان ذاتها ، وقد ينزعون عنها صاحبها الزيانى ثم يقرونه ، أو يجعلون مكانه زيانيًا آخر .

على أن الدولة الحفصية ـ بعد انقضاء عصرها الأول ـ توزعتها مجموعة من الإمارات المتنازعة ، وتطلع الزيانيون إلى بجاية ، وغزوها غير مرة ، وكانت غزوتهم لها فى سنة ٧٢٩/ ١٣٢٩ دافعًا لأن يطلب الحفصيون أو بعضهم المساعدة من أبى الحسن المرينى ، فوجد فيها فرصة ، لأن يعيد الوحدة إلى أقطار المغرب جميعها ، وترتب على ذلك أن فقدت تلمسان استقلالها فى سنة ١٣٣٧/٧٣٧ ، وصارت جزءًا من دولة بنى مرين ، ثم استردت هذا الاستقلال على نحو محدود فى سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨ وعلى نحو واضح فى سنة ٧٦٠/ ١٣٥٩ .

ورغمًا عما تعرضت له هذه من المخاطر وتعرضها للإنهيار أكثر من عشرين مرة ـ يذهب مارسيه Marçais ـ إلا إنه قدر لها أن تبقى على الزمن ثلاثة قرون، ومرد ذلك أن أمراءها كانوا يعتمدون على حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها ، وقد صبرت على حصار أبى يعقوب المرينى لها سبع سنوات إلى أن اضطر إلى رفعه ، وعاد أدراجه إلى فاس .

جدير بالذكر أن بنى زيان ، عندما كانوا لا يجدون فائدةً ترجى من المقاومة، فإنهم كانوا ـ شأنهم شأن جدهم ـ يفارقون مدينتهم إلى الصحراء

الواسعة ، يتحينون الفرصة للعودة إليها بعد ذلك .

اعتمد بنو زيان شأنهم شأن بنى حفص فى قوتهم العسكرية على العرب الهلالية (زُغْبَة ثم عرب المعقل) ، ومنحوهم اقطاعات واسعة وجبايات ، ومع الدور الكبير الذى قام به هؤلاء العرب فى حماية الدولة ، إلا أنهم كثيراً ما كانوا يسببون لها مشكلات ، يتحدث عنها ابن خلدون ، فقد راعه ما شاهده فى سنة ٧٨٢/ ١٣٨١من « تغلب العرب على الضواحى والكثير من الأمصار ، وتقلص ظل الدولة عن القاصية ، وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر ، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم ، وإعطاء اليد فى مغالبتهم ببذل رغائب الأموال واقطاع البلاد ، والنزول عن الكثير من الأمصار » .

واعتمد بنو زيان فى إدارة مرافق دولتهم على الأندلسيين ، وكانت لهؤلاء خبرة بمدن الساحل منذ زمان الرستميين حكام تاهرت فى القديم ، فتوافت أعداد كبيرة منهم ، وشغل بعضهم منصب الوزارة ، وكان لهم أثرهم الوافر فى الحياة العقلية ، كما كان لهم أثرهم الآخر الوافر فى العمائر التى تناهت إلينا من هذا العصر .

أفاد بنو زيان من موقع تلمسان على طريق التجارة الواصلة إلى إفريقية المدارية ، وكان يتم التبادل بين سلعها من تبر ورقيق وجلود وأبنوس وعاج ، وبين السلع الواردة من أوربا وأخصها السلاح . ويتحدث الحسن الوزان (ليون الإفريقى ت بعد ٩٥٧/ ١٥٥٠) عن هذا النشاط ، ويثنى على تجار تلمسان وأمانتهم . وكانت الدولة من ناحيتها تعنى بالتجار والأجانب منهم ، وهيأت لهم الأمن ، وخففت عنهم الجبايات ، واكتفت بما تحصله من رسوم ، ولا تجاوزها إلى غير ذلك من أموال .

عاشت الدولة الزيانية مرحلةً من الازدهار ، عمت أقطارها خلال القرن

الثامن / الرابع عشر ، وهو ما نجد صدى له فى كتاب « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » لمؤلفه يحيى بن خلدون (ت ٧٨٠هـ) وهو أخ للمفكر الكبير ، وكان حاجبًا للأمير أبى حمو موسى الثانى (٧٥٣/ ١٣٥٢ ـ ٧٩١/ ١٣٨٩) . وكان هذا الأمير أندلسى النشأة والمزاج ، أحاط نفسه بكوكبة من العلماء والأدباء والشعراء ، وكان هو نفسه أديبًا شاعراً ، وله كتاب اسمه « نظم السلوك فى سياسة الملوك » وأعان غرناطة فى جهادها بالمال والرجال .

فى غضون القرن التاسع / الخامس عشر ، تعرضت دولة بنى زيان للإنشطار بين المتنازعين على السلطة من أبناء الأسرة الحاكمة ، كما تعرضت للغزو من قبل الحفصيين فى عهد أبى فارس عبد العزيز وعهد أبى عمرو عثمان. ونهضت لدى الساحل دويلات مدن قطعت صلاتها بمركز الدولة فى تلمسان.

على أن الأهم من هذا كله هو ما جرى من صدامات مع الصليبيين الجدد ونعنى بهم الإسبان خاصةً ، فقد تسللوا فى مطالع القرن العاشر / السادس عشر إلى السواحل ، واتخذوا قواعد لهم ، يمارسون من خلالها عدوانهم ضد المسلمين ، وأخفق بنو زيان فى التصدى لهم ، بل إنهم كانوا كثيراً ما يسكتون عنهم ، وظهر على الساحة عنصر جديد وافد هو المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى العثمانيين ، وسعى هؤلاء إلى أن يضعوا حداً لعدوان الإسبان ، لكنهم لم يجدوا تعاونًا من بنى زيان ، بل إنهم مالوا إلى أعدائهم ، وانتهت الحال بذهاب دولة بنى زيان فى سنة ٩٦٢/ ١٥٥٤ ، وصار المغرب الأوسط ، أو بالأحرى الجزائر إيالةً عثمانية .

4 - بنو مرين وبنو وَطّاس :

ينتمى بنو مرين ـ شأنهم بنى عبد الواد ـ إلى زناته ، ونزحوا تحت ضغط الهلالية إلى إقليم تلمسان ، ونفذوا منه إلى المغرب الأقصى بعيد معركة العقاب، حيث استقرت بهم الحال على مقربة من نهر ملوية ، وشرعوا منذ سنة ٦١٣/ ١٢١٦ فى شن حرب ضد الموحدين ، استمرت نيفاً وخمسين سنةَ بين سعود ونحوس ، إلى أن تحقق لهم النصر النهائى فى ٩ من محرم ٦٦٨ سبتمبر ١٢٦٩ ، ودخل أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة مراكش ، وقتل أبا دبوس وهو آخر الموحدين ، وقامت دولة جديدة هى الدولة المرينية .

فى السنوات القليلة التالية ، نشب صراع بين أبى يوسف وبين يَغُمْراسن ابن زيان وحلفائه من العرب على سلجماسة ، إلى أن خلصت له فى سنة ٦٧٣/ ١٢٧٤ ، كما امتدت سيطرته إلى طنجة وسبتة ، وبذا استكمل أبو يوسف سيادته على أقطار المغرب الأقصى كافةً .

بعد عودته من فتح سلجماسة أتت إلى أبى يوسف وفود أهل الأندلس ، تدعوه إلى نصرتهم ، بعد أن تكالب العدو عليهم ، ووجد هو من ناحيته أن فى الجهاد دعماً لشرعية كان يفتقر إليها ، وعليه فقد عبر إلى الأندلس أربع مرات، وحقق المسلمون المتحدون ـ غرناطيين ومرينيين ـ عدة انتصارات على الإسبان ، أبرزها الانتصار الكبير فى سنة ٦٧٤/ ١٢٧٥ ، عند إسْتِجَّة جنوبى قرطبة ، حيث مزق الجيش القشتالى شر ممزق ، وبعث أذفونش العاشر ملك قشتالة فى طلب صلحه ، بل إنه بعث بعد سنوات فى طلب عونه ضد بعض ولده ، واستقرت فى غرناطة قوة كبيرة من بنى مرين ، يرأسها شيخ الغزاة ، الذى سوف يصبح من الشخصيات الكبيرة فى المملكة .

على أن هذه الانتصارات أثارت ـ من ناحية ـ مخاوف بنى الأحمر ملوك

غرناطة خصوصاً وإنه صارت لبنى مرين ثلاث قواعد فى الأندلس ، هى رُنْدَة وطريف والجزيرة الخضراء ، فجنحوا إلى مصانعة ملك قشتالة وأمير تلمسان ، واضطر أبو يوسف إلى أن يعاود حربه ضد يغمراسن ويعاود أيضاً هزيمته .

بعد وفاة أبى يوسف يعقوب فى سنة ٦٨٥/ ١٢٨٦ شغل ولده بعده ولمدى يقترب من الخمسين سنة أو نحوها بصراعات مع ولد يغمراسن ، وصراعات أخرى مع ملك قشتالة ، ومع ملك غرناطة الذى كانت تتغير مواقفه بين وقت وآخر ، إلى أن ولى أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق فى سنة ٧٣١/ ١٣٣١ .

يعد عصر أبى الحسن على (٧٣١/ ١٣٣١ ـ ٧٥٢/ ١٣٥١) وولده أبى عنان فارس (٧٥٢/ ١٣٥١ ـ ٧٥٩/ ١٣٥٨) هو ذروة الدولة المرينية ، ففى هذا العصر عادت الوحدة إلى أقطار المغرب جميعها ، وإن كان لمدى قصير .

كانت البداية هى ما جرى من نزاعات على السلطة فى الدولة الحفصية ، وتدخل الزيانيين فى هذه النزاعات ، وسعيهم لضم بجاية إليهم ، مما حفز بعض أطراف الصراع إلى طلب عون السلطان أبى الحسن الذى كانت تربطه بهم صلات من المصاهرة ، وعلى ذلك توجه هذا السلطان بجيوشه شرقاً ، وأزال بنى زيان عن تلمسان فى سنة ٧٣٧/ ١٣٣٧ ، ثم استألفهم وأثبتهم فى الديوان وفرض لهم العطاء ، لكنه توقف عن التوسع لشغله بالجهاد فى بلاد الأندلس ، فلما أصابته الهزيمة هناك ، عاود هذا التوسع فى العام ٧٤٨/ ١٣٤٧ ، ودخل تونس ، لتمتد مملكته من مسراته إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس ، ويبالغ البعض فيذهب إلى أنه طمح لملك المشرق والمغرب معاً . يقول شاعر معاصر :

أجابك شرق إذ دعاك ومغربُ ∴ فمكة هشت للقاء ويثربُ

لم يتعامل أبو الحسن مع أصهاره الحفصيين على نحو طيب ، وأساء إلى

العرب الهلالية ، فحرمهم اقطاعاتهم ، وحرمهم أيضاً الإتاوات التى كانت تؤدى إليهم ، واكتفى بأعطياتهم من الديوان ، مما أسفر عن ثورتهم ، وأصابوه بهزيمة كبيرة على مقربة من القيروان .

فى هذه الأثناء وصلت إلى أبى الحسن الأخبار ، بأن ولده أبا عنان خرج عليه بفاس ، وأعاد بنى زيان إلى ملكهم بتلمسان ، فاتخذ أبو الحسن طريق العودة إلى بلاده ، لكنه أخفق فى حربه ضد ولده ، وأخفق أيضاً فى حربه ضد بنى زيان ، ولم يجد إلا أن يتخلى عن السلطة فى سنة ٧٥٢/ ١٣٥١ ، ثم مات بعد شهور .

سار أبو عنان على سياسة أبيه التوحيدية ، فعدل عن مسالمة بنى زيان ، وغزاهم فى سنة ٧٥٣/ ١٣٥٢ وأزال دولتهم مرة أخرى ، وتابع سيره إلى إفريقية ودخل تونس فى سنة ٧٥٨ ١٣٥٧ ، ولكن الأمور لم تستقر له بها ، بسبب عودة الهلالية إلى الثورة ، وامتناعهم بالصحراء ، ثم بلغه الخبر باضطراب الأمور عليه بفاس ، وطمع بعض أقربائه فى السلطة ، فعاد إلى عاصمته ، حيث وافاه أجله فى العام التالى .

كان بنو مرين يعتمدون فى جيوشهم على قومهم من زناتة ، ويعتمدون أيضًا على أجناد من الأندلسيين الوافدين ، والأغزاز (الأتراك) والروم (النصارى الإسبان) والأهم من هؤلاء العرب الهلالية ، وهم جشم (ومنهم الخلط) فى تامسنا ، ومعقل (ومنهم الأثبج) فى السوس ، وكانوا إلى جانب كونهم فرساناً ، فإن الدولة كانت تعهد إليهم بمهمام الجباية ، على أنها كانت تشتد فى قمعهم ، عندما كانوا يشغبون عليها .

فى صدر دولتهم تلقب بنو مرين بالإمارة ، ثم تلقبوا بالسلطنة ، وتسموا بإمره المؤمنين ، كما تسمى أبو عنان بالخلافة فى بعض سنوات حكمه .

ويتسم العصر المرينى فى صدره الأول بنهضة عمرانية كبيرة ، فأنشئوا عدة مدن ، أهمها فاس الجديدة ، بجوار فاس القديمة ، والمنصور ة بجوار تلمسان ، وتطاوين وهى تطوان ، كما جددوا جامع القرويين ، وابتنوا مساجد ، منها مسجد العباد ، عنه قبر أبى مدين شعيب الصوفى الأندلسى الكبير ، وابتنوا أيضاً مدارس ، منها المدرسة العنانية ، نسبةً إلى أبى عنان فى سنة ٧٥٠/ ١٣٤٩.

يتسم هذا العصر كذلك بنهضة علمية كبيرة ، وخاصة فى عهد السلطان أبى الحسن وولده السلطان أبى عنان ، فقد درج الأول على أن يعقد مجالس للعلم ، ولدى غزوته الكبيرة للمغرب الكبير ، اصطحب معه حشداً وافراً من العلماء ، واستقر بعضهم فى مهجرهم الجديد . أما أبو عنان فشغف بمناظرة العلماء ، وله مساهمات فى علوم شتى كما كان شاعراً .

وعليه فقد برزت أسماء كبيرة فى مناح مختلفة من الثقافة ، وخاصة التاريخ ، ويذكر أن معظم مؤرخى المغرب الكبير ، ينتمون إلى هذا العصر ، ومنهم ابن عذارى (ت ٧١٢/ ١٣١٢) صاحب كتاب « البيان المغرب » أهم كتاب (أو أحد الكتب الأهم) فى تاريخ المغرب .

إلى جانب المؤرخين ظهرت أسماء أخرى فى علوم أخرى ، بينها العبْدَرى (ت أواخر القرن السابع) المقّرى الكبير (ت ٧٥٠/ ١٣٤٩) ، ابن جُزَى الأندلسى (ت ٧٥٦/ ١٣٥٦) ابن بطوطة (ت ٧٧٠/ ١٣٦٨ _ ١٣٦٩) ابن الخطيب (ت ٧٧٦/ ١٣٧٤) .

بعد موت أبى عنان انفرط عقد الوحدة فى بلاد المغرب ، فقد عاد بنو حفص إلى تونس ، وعاد بنو زيان إلى تلمسان ، وأصبح ملك بنى مرين قصراً على المغرب الأقصى ، بل إن الدور الذى كان منوطًا بهم فى بلاد الأندلس انحسر بعدما أصيبوا بعده هزائم هناك ، فتركوا أهل الأندلس لمصيرهم ، وصار

طموحهم أن يحفظوا ثغورهم من عدوان يأتى إليها عبر البحر .

إلى جانب ذلك توالى على الحكم فى دولة بنى مرين عدد من الحكام الضعاف أو من الصبية الذين لم تعم طاعتهم أقطار المغرب الأقصى كافةً ، إذ استبد ببعضها أمراء من الأسرة الحاكمة أو من العرب الهلالية ، كما تحكم فى الحكام وزراؤهم من بنى وطاس ، بل إن سلطان غرناطة تدخل غير مرة فى أمور الدولة ، وكان من شأن هذا كله أن يثير شهية أبى فارس سلطان تونس القوى ، فاعترف المرينيون بالطاعة له ، وفى الوقت نفسه اشتد ساعد النصارى ـ إسبانيين وبرتغاليين ـ فترددوا بغزواتهم على السواحل المغربية .

حاول السلطان أبو محمد عبد الحق ، منذ ولايته فى سنة ٨٣١/ ١٤٢٧ أن يعيد الأمور إلى نصابها ، فأبعد الوزراء الوطاسيين وقتل بعضهم ، لكن الأحداث كانت أقوى منه ، إذ قتل بدوره فى سنة ٨٦٩/ ١٤٦٥ ، وبايع أهل فاس شريفًا من عقب الأدارسة ، ليحكم سبع سنوات ، هى السنوات الفاصلة بين حكم بنى مرين وبين حكم بنى وطاس .

ينتمى بنو وطاس إلى فرع آخر من بنى مرين ، غير الفرع الذى ينتمى إليه بنو عبد الحق ، لذا جاز أن يكونوا عنوانًا لمرحلة جديدة ، تختلف عن المرحلة السابقة فى الملامح والقسمات .

حكم من بنى وطاس أربعة سلاطين فى الفترة ٨٧٧/ ١٤٧٢ ـ ٩٥٦/ ١٥٤٩ ، لكن أخبارهم عندنا قليلة ويشوبها الغموض ، ولم تكن سلطتهم تجاوز فى الغالب حاضرتهم فاس وأحوازها ، فأنحاء عديدة من المغرب الأقصى صارت خارجةً عنهم ، كما إن النصارى وخاصة البرتغاليين وضعوا أيديهم على معظم السواحل المتوسطية والأطلسية .

فى هذه الأثناء بزغت فى الجنوب بالسوس الأقصى قوة ناهضة ، هى قوة

الأشراف السعديين ، الذين نجحوا فى دخول مراكش فى سنة ٩٢٩/ ١٥٢٣ ، وبعد نضال طال أمده مع الوطاسيين ، دخلوا فاس فى سنة ٩٥٦/ ١٥٤٩ ، لتبدأ دولة جديدة هى الدولة السعدية أولى دول المغرب الأقصى فى العصر الحديث .

5 - الحرب الصليبية فى المغرب العربى :

فى سنة ٦٩١/ ١٢٩٠ سقطت عكا - آخرة المعاقل الصليبية فى بلاد الشام - وانتهت الحرب الصليبية فى المشرق ، لتعاود مسيرتها - على نحو أكثر ضراوةً - فى المغرب .

نتيجةً لطرد الصليبيين من بلاد الشام ، تصاعدت لديهم النزعة للانتقام من المسلمين فى أقطارهم كافة ، واتخذوا قواعد لهم فى جزيرتى قُبْرس ورودس ، حيث شنوا هجمات على السواحل الإسلامية والسفن الإسلامية ، ولم تهدأ هذه الهجمات بدخول قبرس فى حوزة المماليك فى سنة ٨٣٠/ ١٤٢٧ ، ودخول رودس فى حوزة العثمانيين فى سنة ٩٢٩/ ١٥٢٢ ، إذ انتقل فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة مالطة ، وجددوا فى المغرب سيرتهم فى المشرق .

زاد من تصاعد هذه النزعة ، ما جرى من تصاعد قوة إسلامية فتية هى السلطنة العثمانية ، التى أزالت دولة الروم ، واستولت على عاصمتها القسطنطينية ، وتطرقت بجيوشها إلى إوربا ، وإلى قلب أوربا ، وحاصرت مدينة فيينا ، وأفشلت حملات صليبية توجهت إليها .

كان على الصليبيين أن يوجهوا جهودهم إلى اضعف حلقة فى الدفاعات الإسلامية ، وهى أقطار المغرب العربى ، وأعانهم على هذا التوجه قرب هذه الأقطار منهم ، وذهاب السيادة الإسلامية عن الحوض الغربى لبحر الروم ، ثم ذهاب أمر الأندلس ، وتحولها إلى مملكة صغيرة ، لا حول لها ولا طول فى

غرناطة ، والأهم من هذا كله ، ما جرى من سقوط مدو للخلافة الموحدية ، ونشوء دول صغيرة ودويلات ، شغلتها صراعاتها الداخلية عن صراعاتها مع عدو خارجى ، يضمر لها جميعها كل سوء ، ويسعى فى إزالتها .

نستطيع أن نتلمس بعض المؤشرات على هذا التوجه فى حملة القديس لويس إلى تونس فى سنة ٦٦٨/ ١٢٧٠ ، وكان جديراً بهذه الحملة أن تحقق ما كان منوطاً بها ، لولا أن عصف الوباء بجنودها ، وذهب الملك نفسه ضحيةً له.

خلال القرنين الثامن / الرابع عشر والتاسع / الخامس عشر طرأ متغيران هامان على مسيرة الحرب الصليبية ، فتحلل الدولة (أو الدول) الجامعة فى بلاد المغرب ، أدى إلى أن تنشأ لدى الساحل ـ وخاصة فى المغرب الأوسط ـ دويلات مدن ، نشطت فى غزو الفرنج وسفنهم ، وتأتى بغنائم وأسرى ، يطلقون بعد افتدائهم ، وكان من شأن هذه الغزوات أن تحفز هؤلاء للرد على هذه الغزوات بمثلها .

المتغير الآخر هو إن الفرنج كانوا يدركون أهمية المغرب ، باعتباره ظهيراً للمسلمين فى الأندلس ، فسعوا إلى أن يمنعوا الدور الفاعل لهذا الظهير ، بأن يستولوا على العدوة المغربية ، فيكتمل الحصار على العدوة الأندلسية ، وعندما تحقق لهم ذلك أضحى سقوط غرناطة مسألة وقت .

رافق هذا كله تطورات خاصة بالأوربيين أنفسهم ، ونعنى بها ما جرى من نهضة Renaissance فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وليس عملنا هنا أن نعرض لهذه النهضة ، إنما نحن نعرض لما يتصل منها بموضوعنا فالنهضة أسفرت عن ظهور (أو بداية ظهور) دول قومية قوية ، وذوى النظام الاقطاعى ، لصالح قوى اجتماعية ناشئة من أهل المدن ، انصرف همها إلى نشاط تجارى ، جاوز شمالى المتوسط إلى جنوبيه . ونشط هؤلاء التجار للسيطرة على طرق

التجارة التى كانت فى أيدى المسلمين وصار عليهم أن يسيطروا ـ بداءةً ـ على السواحل المغربية المفضية إلى هذه الطرق عبر الصحراء إلى بلاد السودان ، ثم فى مرحلة تالية عبر المحيط إلى بلاد الهند .

لا يخفى أيضًا أن النهضة تركت أثرها فى معرفة الأوربيين بالأسلحة النارية وتطويرهم لها ، ولدينا شواهد على أن المسلمين عرفوها قبلهم ، لكن هذه الشواهد لا تتواتر فى بلاد المغرب ، وإن تواترت عند العثمانيين فى بلاد المشرق.

عرفت الأسلحة النارية طريقها إلى أوربا الغربية ، ونشط الأوربيون فى تطويرها، وأضحت سببًا من أسباب ظفرهم بالمسلمين فى الأندلس والمغرب معًا .

كانت البداية الأولى لهذه الصليبيات حملات تأديبية ، أو حملات قراصنة، ترددت خلال القرن الثامن / الرابع عشر إلى السواحل المغربية وكانت تكتفى بنهبها والتقتيل فى أهلها وسبيهم ، وفى مطالع القرن التالى شرع الصليبيون فى الاستيلاء على هذه السواحل .

بدأ البرتغاليون هذا النشاط فى سنة ٨١٨/ ١٤١٥ بأن استولوا على سبتة ، وأتبعوها بالقصر الصغير قرب طنجة ، وظلوا على مدى يصل إلى المائة عام ، يتتبعون السواحل المغربية الأطلسية ، ويستولون عليها إلى أن وصلوا إلى أبعد نقطة فيها عنه أغادير فى سنة ٩١٦/ ١٥١١ ، وأقاموا لدى هذه السواحل مجموعة من القلاع دعوها Frontera أى الثغور .

أما عن الإسبان فإن نشاطهم اتسع ، ليشمل سائر السواحل المغربية ، من طرابلس شرقًا إلى مليلة غربًا ، وأضحت معظم المدن التى تقع داخل هذا النطاق أسيرةً لهم ، وابتنوا بدورهم مجموعة من القلاع Presidios ، ومنها القلعة التى ابتنوها على جزيرة صغيرة ، مقابل مدينة الجزائر ، ودعوها بالپنيون El Pañon

أى الصخرة ، ووجهوا مدافعها إلى هذه المدينة .

ومثلما تقاسم الإسبان والبرتغاليون العالم الجديد ، بمقتضى اتفاقية باركها الباب ، فإنهم تقاسموا أيضًا بلاد المغرب ، بمقتضى اتفاقية أخرى باركها البابا . وبدت الحال ، وكأن الحدود الغربية لدولة الإسلام ، سوف تقف عنه الحدود الغربية لدولة مصر .

يقول كاتب إسبانى معاصر : « إن أوضاع البلاد كلها (يقصد بلاد المغرب) فى حالة يبدو معها ، وكأن الله يريد أن يهديها إلى صاحبى الجلالة» .

مما تجب ملاحظته أن الصليبين الجدد فى تعاملهم مع مسلمى المغرب ، أظهروا قدراً فائقًا من التعصب ، ربما لا نعهده عنه أسلافهم فى المشرق ، فعندما دخل الإسبان وهران فى العام ٩١٥/ ١٥٠٩ أشرف الكردينال الشهير ثيسنيروس على ذبح أربعة آلاف أسير مسلم واسترق ثمانية آلاف ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة جامعة . وعندما دخلوا تونس فى سنة ٩٤٢/ فإنهم استباحوها ثلاثة أيام ، وهدّموا مساجدها وحرقوا كتبها ، وأرغم ملكهم شارلكان أميرها الحفصى على أن يؤدى له نفقات الحرب ، وأن يؤدى جزيةً سنوية ثقيلة ، كما أرغمه على أن يتنازل عن مدن ، ويسمح للنصارى بالتبشير والاستيطان حيث شاءوا ، وابتنى بجوار تونس قلعة ، استقرت بها حامية إسبانية كبيرة . وما جرى فى هذا العام تكرر فى العام ٩٨٠/ ١٥٧٢ ، عندما عاود الإسبان دخول تونس بقيادة دون خوان ــ أخى الملك فيليب الثانى ــ ودنسوا جامع الزيتونة ، وربطوا خيلهم به ، ونهبوا خزائن الكتب ، وشاركوا المسلمين مساكنهم ، وفتنوا بعضهم عن دينه .

كان لا بد من نهاية لهذا الكابوس الذى حط على بلاد المغرب فى هذه المرحلة المظلمة من تاريخها ، وكما كان يحدث كثيراً ، فإن المسلمين فى

أوقات الأزمات ، كانوا يجدون ملاذهم فى دينهم ، بتحديد أدق وجد المسلمون المغاربة ـ فى المغرب الأقصى خاصةً ـ هذا الملاذ فى الطرق الصوفية ، التى صار لها حضورها الواضح فى عصر الموحدين ، وكان الرائد لهذه الطرق أبو مدين شعيب الغوث (ت ٥٩٤/ ١١٩٧) وهو أندلسى الأصل من أهل إشبيليه ، انتقل إلى المغرب ، حيث عاش بقية حياته إلى أن مات ، ودفن بقرية العباد قريبًا من تلمسان ، وصار هذا الضريح محجًا للمغاربة ، ومنهم السلطان أبو الحسن المرينى الذى أقام عدة سنوات بتلمسان ، وكان من عادته أن يزور هذا الضريح مرةً كل أسبوع .

عرفت بلاد المغرب مجموعة من الطرق الصوفية ، عمت أقطارها كافة ، أخصها ثلاث ؛ القادرية والتجانية وأهمها الشاذلية .

درجت الحال بهذه الطرق على أن تكون لها زوايا لكل زاوية مقدم ، يلى قيادة المريدين فى الأذكار والأوراد ، ويليها أيضًا فى الجهاد .

فى غضون القرن التاسع / الخامس عشر ، وجدت الشاذلية طريقها إلى السوس الأقصى جنوبى المغرب ، فى شخص محمد بن سليمان الجزولى (ت ٨٧٠/ ١٤٦٥) ، وقد تزعم المغاربة فى جهادهم ضد البرتغاليين ، وتواصل هذا الجهاد ، إلى أن آلت زعامة الطريق إلى شريف حسنى هو محمد بن القاسم السعدى ، وبويع أميرًا فى سنة ٩١٦/ ١٥١٠ باسم القائم بأمر الله ، فتمكن من طرد البرتغاليين من بعض المواقع على الساحل ، ثم دخل ولده أحمد الأعرج مراكش فى سنة ٩٢٩/ ١٥٢٣ ، ليعلن عن قيام دولة جديدة هى دولة الأشراف السعديين .

فى بداية نهوض السعديين ، جرى قدر من التفاهم بينهم وبين الوطاسيين، لكن هؤلاء توجسوا منهم ، بعد أن انتشر أمرهم ، وكان لابد من الصدام ،

وعدل الوطاسيون إلى محالفة البرتغاليين ، وأضحى على السعديين أن يحاربوا على جبهتين ، إلى أن دخلوا فاس فى سنة ٩٥٦/ ١٥٤٩ ، وأزالوا بنى وطاس عنها ، وحرروا سائر الثغور المغربية من البرتغاليين ، وأصابوا هؤلاء بهزيمة كبيرة فى معركة وادى المخازن فى سنة ٩٨٦/ ١٥٧٨ .

أما فى إفريقية والمغرب الأوسط ، فيعود الفضل فى مناهضة الإسبان إلى نفر من مجاهدى البحر المسلمين ، يأتى فى طليعتهم أخوان من أصل يونانى - نرجح - هما عرُّوج وخير الدين المعروف بذى اللحية الحمراء Barbarossa .

اتخذ عروج من جزيرة جربة معقلاً لنشاطه ، وعندما طلبت مدينة الجزائر فى سنة ٩٢٢/ ١٥١٦ أن يعينها فى نضالها ضد الإسبان الذين يهددونها من قلعتهم البنيون ، فإنه خف إلى نجدتها ، وصد هجمات الإسبان عليها ، واستولى على شرشال والمهدية ومليانة وتنس ، ولم يتأخر عن عون أهل تلمسان، ليخلصهم من أميرهم الزيانى المتحالف مع الإسبان ، ونجح عروج فى دخول المدينة فى سنة ٩٢٤/ ١٥١٨ ، لكنه استشهد بعد يسير ، لدى محاولة الإسبان إعادة أميرها المعزول إليها .

خلف عروج فى جهاده أخوه خير الدين ، فاتجه للإتصال بالعثمانيين ، وأنعم عليه السلطان سليم الأول (٩١٨/ ١٥١٢- ٩٢٦/ ١٥٢٠) بلقب الباشوية وبكلر بك أى أمير الأمراء ، وأعانه بعدة آلاف من أجناده الإنكشارية ، فضلاً عن مدفعية قوية ، فنجح فى اقتحام حصن البنيون فى سنة ٩٣٥/ ١٥٢٩/ ١٥٢٩ ، وبذا صارت مدينة الجزائر آمنة من الغزو ، فتوسع بحدود دولته - أو بالأحرى إيالته - لتمتد من وجدة على وادى ملوية غربًا ، إلى إقليم الزاب شرقًا (ونستثنى مدينة وهران) ، أى إن هذه الإيالة صارت تطابق ما يعرف اليوم بالجمهورية الجزائرية على وجه التقريب .

بعـد أن استـقـرت دولتـه بالجزائر ، تطلع خيـر الدين إلى تونس ، وكـان سلطانها الحفصى مواليًا للإسبان ، فدخل خير الدين هذه المدينة فى سنة ٩٤١ ١٥٣٤ ، ثم دخل بنزرت والقـيـروان ، ولم يجـد السلطان إلا أن يطلب عـون الإسبان وملكهم شارلكان .

كـان شـارلكان (كـارلوس الخـامس) هو أقـوى ملوك أوربا ، وكـان إلى جانب كونه ملكًا لإسبانيا إمبراطورًا للدولة الرومانية المقدسة (ألمانيا) ، وصار يخشى على دولته المترامية الأطراف من خصومه العثمانيين ، فهرع بعد شهور إلى تونس ، ومعه جيش من ثلاثين ألفًا ، واستولى عليـها ، ثم استولى على صفاقس وسوسة والمنستير ، وجعل فى قلعة حلق الوادى المجاورة لتونس حامية إسبانيةً قوية ، وانسحب خير الدين إلى الجزائر ، وعاد السلطان الحفصى تابعًا ذليلاً للإسبان .

رغمًا عن هذه النكسة ، استمر الوجود العثمانى فى مدينة القيروان ، وفى نواح متفرقة من إقليم إفريقيـة ، كـما إن خير الدين عاود غزواته البحرية ضد الإسبـان ، فأغـار على جزائر البليـار ، وعاد بالآف من الأسرى ، ونقلهم إلى قاعدته بالجزائر .

فى سنة ٩٥٣/ ١٥٤٦ مات خير الدين بعد حياة حافلة بالجهاد ، وواصل خلفاؤه مسيرته ، واستمر الصراع سجالاً بينهم وبين الإسبان .

فى سنة ٩٥٨/ ١٥٥١ استطاعت عمارة عثمانية أن تحرر مدينة طرابلس، وفى سنة ٩٨١/ ١٥٧٣ استطاعت عـمارة عثـمانية أخرى أن تقتـحم مـدينة تونس، كـما اقتـحمت القلعة الإسبـانيـة فى حلق الوادى ، وحـمل السلطان الحفصى الخائن محـمد بن الحسن إلى إسلامبـول ، فحبس إلى أن مـات ، وتحولت تونس إلى إيالة عثمانية .

الباب الثانى

الأندلس

تمهيد

إسبانيا شبه جزيرة ، هى ثالثة أشباه الجزر الكبيرة فى بحر الروم دعاها اليونان هسبيريا Hesperia ، ومنها أتى مصطلح إيبريا Iberia (إبارية عند العرب) ، ثم دعاها الرومان هسبانيا Hispania ، ومنها أتى مصطلح إسبانيا España (إشبانية عند العرب) .

فى غضون القرن الخامس الميلادى ، تعرضت هسبانيا لغزوات شعوب جرمانية ، ومنها الفندال Vandali ، الذين طردهم القوط إلى السهل الواقع جنوبى نهر الوادى الكبير Guadalquivír ويدعى بايتيكا Baetica (باطقة عند العرب) ، فأطلقوا اسمهم عليه ، وصار ڤاندالوسيا Vandalusia (ثم أندالوثيا Andalucía)ولدى مقدم العرب ، كان هذا الإقليم أول ما واجههم من أقطار شبه الجزيرة ، فعربوا الاسم إلى الأندلس ، ثم عمموه على شبه الجزيرة بأسرها، على أن هذه التسمية كانت تعنى عندهم فى بعض الأحيان ، ما كان يخضع لسيادتهم فحسب ، وقد تفاوتت هذه السيادة بين عصر وآخر ، ومنذ القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، صارت الأندلس مرادفةً لمملكة غرناطة .

تقع هسبانيا عند الطرف الغربى لبحر الروم ، تفصلها عن أوربا جبال البُرتات Pirineos (التى تعرف خطأً بالبرانس) ، كما يفصلها عن إفريقية مضيق جبل طارق Gidraltar ، وتتكون فى معظمها من هضبة وسطى ، تدعى بالمنضدة La Meseta ، وتحدها سلاسل جبلية عالية تنهض لدى السواحل ، وتكتنفها مرتفعات تفصل بين أقاليمها ، وتتخللها وديان تسرى فيها أنهار ، مثل الإبره Ebro والتاجُه Tagus والوادى الكبير .

ويتميز مناخ هسبانيا بأنه معتدل بوجه عام ، وإن كان قاريًا بالداخل ويسود

الجفاف معظم أنحاء البلاد ، مما كان له أثره فى نقص المياه بها ، رغمًا عن كثرة أنهارها .

فى مطالع القرن الخامس الميلادى كانت جحافل البرابرة تدك أركان الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، وكانت هسبانيا ـ رغمًا عن نأيها عن مناطق الصراع ـ أحد الأقطار التى سقطت فريسةً لهم ، وكانت شعوب البرابرة التى اقتحمت شبه الجزيرة على فترات متقطعة ، هى الفندال والآلان والسويف والقوط الغربيون .

أسفر الصراع بين هذه الشعوب عن هجرة الفندال والألان إلى بلاد المغرب، واستقر السويف فى جلّيقية Galicia وشمالى لُجْدانية Lusitania ، بينما انفرد القوط بسائر البلاد ، وبعد نضال وقع بينهم وبين الفرنجة ، واندحار القوط فى معاركهم ضدهم ، وطردهم من أراضيهم خارج شبه الجزيرة ـ فيما عدا سبتمانيا Septimania ـ تفرغوا لمناهضة السويف ، حتى تمكنوا من قهرهم فى السنوات الأخيرة من القرن السادس ، ثم أحبطوا مساعى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، لاسترداد سيطرتها على البلاد ، بحيث صار لا ينازعهم أحد هذه السيادة .

كان المجتمع ينقسم إلى خمس طبقات ، هى النبلاء ، رجال الدين ، الأحرار ، الأقنان والعبيد ، اليهود . ويتضح لدينا إن هذه الطبقات ـ على نحو عام ـ كانت طبقات مغلقة Estate ، فلم يوجد حراك اجتماعى ، بمعنى إن كل طبقة كان لها عالمها الخاص بها ، وليس لها أن تجاوزه إلا فى أحوال لا يقاس عليها . ثم إن القوط ومنهم معظم النبلاء ـ عاشوا ـ على نحو أو آخر ـ بمعزل عن أهل البلاد ، وهو ما تؤكده الكشوف الأثرية الحديثة ، فقد تركزوا فى شمالى القسم الأوسط من الميسيتا الإسبانية ، أى ما يعرف اليوم بقشتالة

القديمة Castilla La Vieja ، ولم ينتشروا فى سائر شبه الجزيرة .

يخرج البعض من ذلك بأن البناء الاجتماعى فى عصر القوط ، كان به خلل واضح ، عانى الشعب من سوءاته ، وكان أكثره معاناةً من يتحدر من أصول إسبانية - رومانية . والحق إن فى هذا كله مغالاةً لا تصمد أمام الحقائق الثابتة ، فأحوال إسبانيا فى عهدها القوطى ، لم تكن أسوأ من أحوال أقطار أخرى غيره ملكها الجرمان ، بل إنها كانت تفضلها فى غير مساق . والخلل الاجتماعى الذى نشاهده فى إسبانيا تحت حكم القوط ، كان أهون من الخلل الاجتماعى الذى نشاهده فى غاليا (فرنسا) تحت حكم الفرنجة أو الخلل الاجتماعى الذى نشاهده فى إيطاليا تحت حكم البرجنديين . ومنذ أخريات القرن السادس سارت إسبانيا خطوات واسعة نحو الدمج بين القوط ورعاياهم الإسبان ، وكان قميناً بهذه السياسة أن تؤتى ثمارها ، لولا ما جرى من تطورات للمؤسسات الحاكمة فى إسبانيا خلال العقود القليلة السابقة للفتح .

نعنى بهذه المؤسسات ... مؤسسة الملكية ومؤسسة الكنيسة والمؤسسة العسكرية .

درجت الحال عند القوط على انتخاب ملوكهم ، وكانت هذه العملية تقوم على قاعدة الغلبة ، بمعنى إنه كان يلى الحكم أقواهم ، ولم تكن لهذه القاعدة نتائج فادحة فى صدر دولتهم ، مع ما كان يصحبها أحياناً من وسائل عنيفة ، لكن هذه النتائج تبدت طلائعها فى غضون القرن السابع . وسعى بعض الملوك إلى الحد منها ، بأن لجئوا إلى قاعدة الوراثة ، ونجحوا أحياناً، وأصابهم الإخفاق فى أحيان أخرى .

أما عن مؤسسة الكنيسة ، فقد ولى أمورها فى الحقبة الأخيرة رجال لم يتوافر لديهم ما توافر لأسلاف لهم ، من استقامة شخصية وفضائل ، وانصرف

عدد منهم عن شئون دينهم إلى شئون دنياهم ، وامتدت أيديهم إلى الأموال المخصصة للنفقة على الكنائس ، وتدخلوا على نحو سيء فى الصراعات على العرش ، الأمر الذى دفع بعض المؤرخين إلى أن يتهم الكنيسة بالخيانة والغدر ، وإلى أن يصف الدولة القوطية بأنها دولة يمتطيها القساوسة .

أما عن المؤسسة العسكرية ـ وكان ينهض بها القوط ـ فقد فقدت ما كان لديها من روح قوية فى الصدر الأول ، بعد أن انقطع ورود الدماء الجرمانية من مواطنها الأصلية ، ومال رجالها إلى الترف ، بل إن بعضهم هجر الجيش ليلتحق بسلك الكنيسة ، وشارك بعضهم الآخر فى الصراعات على العرش . وفى أواخر عهد القوط فاق عدد الأقنان فى الجيش عدد الأحرار ، وصار واجب الدفاع عن الوطن ـ يذهب دوزى ـ يعهد به إلى جنود يؤثرون التواطؤ مع العدو فى الحرب لا أن يدافعوا عن ظالميهم .

إذا كانت هذه التطورات قد شاركت جميعها فى اضعاف الدولة القوطية فى إسبانيا ، فإن ما أصاب اليهود من اضطهاد أسهم بدوره فى إضعاف هذه الدولة ، لأن هؤلاء لم يسكتوا عما أصابهم من اضطهاد ، وشرعوا يناهضون الدولة ، بأن يشاركوا فى الانتقاض عليها ، بل وصلت بهم الحال إلى أن يتآمروا مع قوى خارجية عبر البحر .

الفصل الثامن
فتح الأندلس

كان العرب يدركون ، لدى استتمام فتح المغرب الصلة الوثيقة بين هذه البلاد والأندلس ، فلا يبدو الاختلاف كبيراً بين جبال الأطلس فى الريف المغربى وبين جبال الثلج Sierra Nevada فى إسبانيا ، فهما سلسلة واحدة ، وجبال الثلج نفسها ، ترى من عدوة البحر ، والفاصل بين العدوتين يسمى المجاز أو الزقاق ، مما يدل على قرب المسافة . وفى كتاب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦/ ٧٠٥ ـ ٩٦/ ٧١٥) حين وجده متخوفًا من عبوره إلى الأندلس : « إنه ليس ببحر ، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر » .

بوجه عام فإن عدوتى المضيق اجتمعتا لدى سلطة واحدة فى معظم عصور التاريخ المنظور ، ففى العصر الرومانى كانت ولاية مرطانية الطنجية Mauritania Tingtana تضم سواحل العدوتين ، وفى الصراع بين البيزنطيين والقوط ، استولى هؤلاء على سبتة ، وإن كان لعهد قصير ، عادت بعده للروم ، ومن المؤرخين العرب من يضيف إلى يليان Julianus صاحب سبتة على العدوة المغربية مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras على العدوة الأندلسية ، وعندما اشتد ساعد الأمويين ، بعد إعلان الخلافة ، استولى الناصر على العدوة المغربية ، وأطاعه بنو إدريس وملوك زناتة ، وفيما بعد سقطت عدة من معاقل المغرب وثغورها البحرية فى أيدى النصارى قبل سقوط غرّناطة Granada نفسها .

تذهب الروايات العربية إلى قيام يليان صاحب سبتة بدور رئيسى فى حفز العرب إلى غزو الأندلس ، وكان يليان هذا مخاصمًا لرُذْريق Rodrigo الذى

اغتصب عرش القوط وقتل الملك غطيشة Witiza وأساء إلى شخص يليان ، باعتدائه على ابنته ، كما تذهب أيضاً إلى أن أبناء غيطشة قاموا بالدور نفسه مع العرب ، حتى ينتقموا من قاتل أبيهم .

ربما كانت هذه الروايات صحيحةً ، لكنها لم تكن العامل الأهم لغزو العرب بلاد الأندلس ، والأرجح إنها ـ في حال صحتها ـ كانت عاملاً مساعداً فحسب .

على أية حال فإن موسى ، استجاب لنصيحة الوليد بن عبد الملك ، فأرسل في سنة ٩١/ ٧١٠ بعثًا استطلاعيًا من البربر ، يقوده طريف بن ملوك ، وقد ضم هذا البعث أربعمائة راجل ومائة فارس . ونزل هؤلاء بقرب من الموقع الذى ستقوم عليه فيما بعد جزيرة طريف Tarifa ، واتصلوا ببعض أصحاب يليان وأبناء غيطشة ، وأصابوا بعض المغانم ثم عادوا .

كان للنجاح الذى أحرزه طريف ورجاله فى هذه الغزوة أثره فى أن يجهز موسى بن نصير حملةً كبيرةً لفتح الأندلس ، يقودها مولاه طارق بن زياد .

ينتمى طارق إلى قبيلة نفزة من البربر ، وقد يبدو غريبًا ، أن يعهد موسى بهذه المهمة الجليلة إلى قائد من الغير العرب ، صحبة جيش من الغير العرب . والحقيقة إن البربر كانوا قد قطعوا شوطًا واسعاً فى الاستعراب ، كما إن بعضهم صار قديم عهد بالإسلام ، لذلك لم يجد موسى غضاضةً من أن يوجههم لفتح الأندلس ، وغير خاف أن البربر بحكم موقع بلادهم وتاريخها ، كانوا أكثر خبرةً بالجزيرة الأندلسية من العرب ، ومع ذلك فقد ضم الجيش الذى بلغ عدده سبعة آلاف عدداً غير قليل من فرسان العرب وأمجادهم .

عبر المسلمون المضيق فى رجب من سنة ٩٢/ إبريل ٧١١ فى بعض سفنهم ، وقيل بل سفن يليان ، ونزلوا بالجبل الذى واجههم وكان يدعى كلبه

Calpe فدعاه المسلمون جبل طارق ، واستولوا على الجزيرة الخضراء ، وبذا أصبح المضيق فى أيديهم . ووقعت اشتباكات بين المسلمين وبين بعض أصحاب رذريق ، وكان إذ ذاك ببنبلونة Pamplona فى الشمال يجالد البَشْكُنْس Vascos فاتخذ طريقه بسرعة إلى قرطبة Cárdoba ، واستعد لقتال المسلمين .

تقدم رذريق من قرطبة فى أربعين ألفًا ، وعسكر عند مدينة شَذونة Medina Sidonia ، فأرسل طارق بخبره إلى موسى ، فأمده بخمسة آلاف من البربر .

إلتقى المسلمون والقوط بموضع من أحواز شذونة ، عرف بوادى لَكُّه Guadalete ، وتذهب الرواية العربية إلى إن طارقًا ألقى فى أصحابه قبل أن تبدأ المعركة خطبته الشهيرة وأولها : « أيها الناس !! أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » .

يراودنا الشك فى صحة هذه الخطبة ـ التى ربما وضعت فى وقت لاحق ـ فطارق ـ رغمًا عن استعرابه ـ يبعد أن كان طلقًا فى العربية ، كما إن الخطبة ترتبط بما يقال عن حرقه لسفن المسلمين ، كى يحفزهم إلى القتال ، وواقعة الحرق هذه لم يثبت بعد إنها واقعة صحيحة .

على أية حال فقد بدأت المعركة فى ٢٨ من رمضان ١٩/٩٢ من يوليو ٧١١، ودامت ثمانية أيام ، وكانت حامية الوطيس ، إلى أن رجحت كفة المسلمين ، بعد أن انحاز إليهم عدد من المخاصمين لرذريق ، وتخلى عنه فرسانه ومالوا إلى المسلمين . ولما تبدت طلائع الهزيمة لرذريق أسرع إلى جواده الأشهب فامتطاه ، وغادر ساحة القتال ، ويقال إن طارقًا اتبعه ، وتمكن منه واحتز رأسه ، ويقال إنه غرق فى النهر المجاور ، ويذهب البعض إلى أنه لم يقتل أو يغرق ، إنما ارتد مع بعض أتباعه ، وصمد لهجمات العرب المتكررة ، حتى

لقى حتفه بعد سنتين ...

بعد ذلك بزمان طويل عثر فى لجدانية بمقبرة إحدى الكنائس الكبرى على شاهد قبر ، مكتوب عليه « هنا يرقد رذريق ملك القوط » Hic Rquiescit Rudericus Rex Gothorum .

أسرعت فلول القوط ــ وقد هزتها وطأة الهزيمة إلى ــ إسْتِجَّة Ecija وجد طارق فى إثرها ، ولقى منهم مقاومةً عنيفة ، إلى أن تمكن من الاستيلاء على المدينة . ولما استقر له الأمر بها ، أشار عليه يليان : « قد فرغت بالأندلس ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى فرق معهم جيوشك ، وخذ أنت إلى طليطلة » ، ففرق طارق جيوشه من إستجة ، وسار أحدها إلى قرطبة ، وسار هو ومعظم الناس يريد طُلَيْطُلَة .

فى الطريق إلى عاصمة القوط ، إنضم إلى طارق عدد كبير من أهل البلاد الذين كانوا ينقمون على القوط ، كما انضم إليه عدد آخر كبير من اليهود الذين صاروا أدلاءً للمسلمين ، وقد أفاد طارق بهم فائدةً كبيرةً ، وصارت عادة المسلمين فى كل مدينة يفتحونها أن يضموا إلى حاميتها عدداً من اليهود .

عندما اقترب طارق من طليطلة علم بأن أهلها فارقوها ، فدخلها دون مقاومة تذكر ، ولما كان الشتاء قد أقبل ، وجد طارق إنه من الأفضل للمسلمين أن يستقروا بعض الوقت بالمدينة .

استطاع الجيش الذى قاده مغيث الرومى أن يباغت قرطبة ليلاً ، ودخلها من ثغرة فى سورها ، واعتصم أميرها وأصحابه فى كنيسة غربى المدينة ، فحاصرها المسلمون إلى أن تغلبوا عليهم وقتلوهم ، وفر الأمير فوقع فى إسار المسلمين ، واحتل مغيث قصر الأمير الذى سيصبح فيما بعد مقاماً للأمراء المسلمين ، وضموا اليهود إلى حامية المدينة .

تذهب الرواية الإسلامية إلى أن موسى بن نصير ، عندما وصلت إليه الأخبار بنجاحات طارق وفتحه لطليطلة ، أكل الحسد قلبه ، ولحق بمولاه ليؤدبه ، ويقوم بفتوح أعظم من فتوحه . ونحن لا نصدق هذه الرواية ، لأن طارقًا إنما قام بهذه الفتوح باسم مولاه ، وكان هذا بدوره يزوده بين حين وآخر بإمدادات، وبعد عبور موسى والتقائه بطارق تعاون الاثنان معًا . ونرجح أن السبب فى مقدم موسى ، هو إن طارقًا تقدم كثيراً داخل البلاد ، إلى أن وصل إلى عاصمتها ، وخلف وراءه مدنًا لم يتم فتحها ، تجمعت فيها فلول القوط ، تناوش المسلمين، وتشكل خطراً على طرق مواصلاتهم .

عبر موسى إلى الأندلس فى رمضان ٩٣/ يونية ٧١٢ وقد صحب معه ثمانية عشر ألفًا من العرب ، ونزل بالجزيرة الخضراء ، وسار منها إلى شذونة ثم قرمونة Carmona وواجه هناك مقاومةً شديدةً ، فاضطر إلى محاصرتها شهراً ، ثم دخلها بحيلة ، إذ أوهم يليان أهل المدينة أنه وأصحابه من فلول القوط التى فرت من وجه العرب ، ففتحوا له وجنده أبوابها ، وفى أعقابهم دخل المسلمون. ثم اتجه موسى إلى إشبيلية Sevilla وكانت الحامية القوطية قد انسحبت إلى لَبْلة Niebla على مصب وادى أنّه Guadiana ، كما هرب نفر من أهلها إلى باجة Béja ، ودخل موسى المدينة ، وأنزل بها فريقًا من اليهود .

سار موسى من إشبيلية إلى ماردة Mérida ، فحاصرها وخرج إليه أهلها وقاتلوه قتالاً شديداً ، فأكمن المسلمون لهم وهزموهم ، فكرُّوا إلى المدينة ، وحاصرهم المسلمون شهوراً ، ثم فكر موسى فى حيلة ، فصنع المسلمون دبابةً احتمى بها نفر منهم ، ونقبوا أسوار المدينة ، وتقاتل الفريقان ، ثم تم الفتح فى يوم الفطر من سنة ٩٤/ ٣٠ من يونية من سنة ٧١٣ ، وظفر المسلمون بالشىء الكثير ، ووقعت فى أيديهم زوج رذريق ، فأنكحها موسى ولده عبد العزيز ،

واستقر المسلمون بالمدينة فترةً ، يستريحون من عناء الحرب ، بيد أن موسى سمع بانتقاض إشبيليه ، واجتمع إليها أهل باجة ، ولبلة الذين كانوا هاربين ، وقتلوا ثمانين من رجال الحامية الإسلامية ، فسير موسى إليهم ولده عبد العزيز ، ففتحها من جديد ، وانتقم للمسلمين من أهلها ، واستولى على باجة ولبلة .

اتضح لموسى أن المقاومة فى غربى الأندلس شديدة ، وعلم بأن فلول القوط، تجمعت في المسالك الجبلية الوعرة لمهاجمة المسلمين ، وخاصة بين وادى آنة ونهر التاجه ، وقادهم ـ فيما يقال ـ رذريق . ولم يكن موسى يستطيع أن يمضى إلى طليطلة ، وهؤلاء يتحينون الفرصة للإنقضاض عليه ، لذا طلب من طارق أن يلتقى به عند موضع يقع فى منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة، بالقرب من مدينة طَلَبيرة Talavera .

استطاع موسى بعد لقائه بطارق أن يقضى على المقاومة فى غربى الأندلس، وعلى نهير صغير حمل اسمه ـ فيما بعد ـ هو نهر موسى Valmuza التقى المسلمون بالبقية الباقية من جيش رذريق ، وتمكنوا من تحقيق الانتصار النهائى عليه ، وقتل رذريق نفسه ـ نرجح ـ على يدى مروان بن موسى بن نصير ، وعقب المعركة دخل القائدان الكبيران طليطلة .

ما كاد موسى يستقر بطليطلة ، حتى سارع بضرب عملة ذهبية ، ليدفع منها رواتب جنده ، وجدير بالذكر إن هذه العملة نقش عليها باللغتين العربية واللاتينية معًا ، وبعث بمغيث الرومى إلى الخليفة الوليد بدمشق ينبئه بأخبار الفتح .

انتظر موسى فى طليطلة حتى انتهى الشتاء ، ثم سار وطارق إلى حوض الإبره ، واقترب من مدينة سَرَقُسْطة Zaragosa ، ففرغ أهلها وأزمعوا الفرار ، لكن موسى أرسل إليهم يبلغهم الأمان ، ودخل المسلمون المدينة دون مقاومة ،

وما كادوا يستقرون بها ، حتى شرعوا فى ابتناء مسجد جامع ، قدر له أن يعيش عدة قرون بعد ذلك .

بعد سَرَقُسْطَة استولى موسى على وَشْقَة Huesca ولاردة Lérida وطرّكونة Tarragona ، وشرع فى الاقتراب من جبال البرتات ، حين أتاه مغيث الرومى عائداً من دمشق ، ومعه كتاب الوليد بالعودة ، لكن موسى تابع سيره فى قشتالة القديمة ، ليؤمن طليطلة ، ثم قسم جيشه إلى قسمين ، فعهد إلى طارق بالسير نحو جبال كنتبرية Cantabria ، حيث استولى على أماية Amaya واسْتُرْقة Astorga وليون León ، وسار موسى بمحاذاة نهر دويره إلى لُك Lugo بالقرب من أُبيط Oviedo ، وفر جنود القوط إلى مكان بعيد يدعى بالصخرة Pico de Europa وانتهى به المسير إلى جيخون Gijón .

كان المسلمون قد نال منهم الجهد ، وقد ابتعدوا مسافات طويلة فى مناطق جبلية نائية ، وكانوا فى الوقت نفسه قد قضوا على المقاومة الرئيسية القوط ، ولم يتبق من هؤلاء سوى عدد يسير ، اعتصم بالجبال الوعرة ، فأهمل موسى شأنهم ، وما كاد يأتيه رسول آخر من الوليد بالعودة ، حتى اتخذ أهبته ، واجتمع بطارق بنواحى ليون ، وسارا معًا إلى طليطلة ، ثم قرطبة وإشبيلية ، وبارحا الأندلس فى ذى الحجة من سنة ٩٥/ سبتمبر من سنة ٧١٤، ووصلا إلى دمشق فى بداية العام التالى ، وكان الوليد مريضاً مرض الموت .

تذكر بعض المصادر أن سليمان بن عبد الملك ، حين أحسن باقتراب أجل أخيه ، أرسل إلى موسى ، يطلب منه أن يبطىء فى عودته ، حتى يصل إلى دمشق ، وقد صار هو خليفة للمسلمين ، فيتصرف فى الغنائم كما يشاء . وربما كانت هذه الرواية صحيحةً ، لأن موسى ـ كما نعلم ـ لم يتلق معاملة طيبةً من سليمان ، ولم يلبث أن يختفى ذكره وطارق ، ولم نعد نسمع عنهما

بعد قليل من عودتهما المظفرة إلى المشرق .

رغمًا عن تغير سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير ، إلا أنه أقر ولده فى حكم المغرب والأندلس ، ولكن إلى حين .

بعد رحيل موسى وطارق افتتح المسلمون بعض المدن التى كانت ما تزال خارجة عن سيطرتهم ، ومنها برشلونة Barcelona وبنبلونة ، ثم توجه عبد العزيز بن موسى بن نصير - أول ولاة الأندلس - ففتح يابرة Evora وشنترين Santarém وقُلُمْرِيَة Coimbra فى أقصى الغرب ، ثم انتقل إلى مالَقَة Málaga وغرناطة ، ومنها إلى إقليم مرسية Murcia فى الشرق ، وكان يحكم هذا الإقليم قائد قوطى يدعى تدمير Teodomiro ، حاصره المسلمون فترةً فى عام ٩٦/ ٧١٤ ، ثم صالحوه على مدنه السبع على أن يؤدى الجزية ، ثم انصرفوا عنه .

على أن هذا الاتفاق بين العرب وتدمير ، كان اتفاقًا يرتبط بشخص تدمير فحسب ، وصارت حال الإقليم بعد سنوات حال غيره من أقاليم الأندلس ، ولم يتبق من ذكريات لتدمير سوى اسمه الذى صار علماً على كورة [1] مرسية .

---

(١) تعنى فى المصطلح الإسلامى ولاية صغيرة ، وتعنى فى أيامنا محافظة .

الفصل التاسع
عصر الولاة

١ ـ المسلمون والفرنجة :

فى أواخر القرن السابع الميلادى ضعفت سلطة الملوك الميروفنجيين من عقب كلوفس Clovis ، وصعدت سلطة أمناء البلاد فى الممالك الثلاث التى انقسمت إليها مملكة الفرنجة ، ودبت النزاعات بين هذه الممالك ، وأفضت عن استقلال أقطانية Aquitania (الشطر الجنوبى من فرنسا الحالية) .

فى سنة ٧٢٠م استطاع كارل Carolus أمين بلاط مملكة أوستراسيا أن يستولى على السلطة فى معظم الأراضى التى خضعت للفرنجة ، وشغل بالصراع مع أودو Audo دوق أقطانية .

فى هذه الأثناء كان المسلمون قد استتموا فتح إسبانيا ، ويروى إن موسى ابن نصير كان يخطط للعبور إلى المشرق عن طريق أوربا ، وربما كانت هذه الرواية صحيحةً ، وتتعاصر مع مشروع الخلافة الأموية الخاص بفتح مدينة القسطنطينية .

بعد أن ولى الحر بن عبد الرحمن الثقفى بلاد الأندلس عبر فى سنة ٩٩/ ٧١٨ إلى غاليا Gallia (فرنسا) فغزا سبتمانيا ، وافتتح مدنها السبع ، بما فيها قاعدتها أربونة Narbonne ويبدو إن المسلمين فقدوها بعد قليل ، إذ أعاد خلفه السمح بن مالك الخَوْلانى فتحها فى العام التالى ، كما زحف إلى مملكة أقطانية ، لكنه أخفق فى الاستيلاء على تولوشة Toulouse واستشهد فى سنة ١٠٢/ ٧٢١ .

ارتد المسلمون خلف البرتات ، واختاروا لقيادتهم عبد الرحمن بن عبد الله

الغافقى الذى استطاع أن ينسحب بهدوء ، حتى أتى الوالى الجديد عَنْبَسَه بن سُحَيْم الكلبى .

فى سنة ١٠٥/ ٧٢٤ عبر عنبسة البرتات ، وثبت سلطان المسلمون فى سبتمانيا ، واستولى على قرقشونة Carcassonne ، وزحف شمالاً مع وادى الرّذانة (الرون) إلى أن اقتحم أوتون Auton وصانص Sens وتقع على مبعدة مائة ميل من مدينة باريس الحالية . على إنه فى عوده دهمته جموع كبيرة من الفرنجة ، مما أسفر عن اصابته بجروح بالغة ، واستشهاده فى سنة ١٠٧/ ٧٢٥ .

توقفت غزوات المسلمين فى فرنسا عدة سنوات ، إلى أن ولى عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى مرة أخرى فى سنة ١١٣/ ٧٣١ .

كان منوسة Munuza من زعماء البربر الذى ينقمون من العرب فوزهم بمواقع الصدارة فى الأندلس ، فانتهز فرصة ولايته لبعض الثغور ، كى يستقل بها ، وتحالف مع أودودوق أقطانية وتزوج ابنته ، وقد أرسل الغافقى جيشًا إلى منوسة ، فتمكن من قتله وأسر زوجه ، وأرسلت - فيما يقال - إلى البلاط الأموى بدمشق .

تحرك الغافقى بجيش كبير فى أوائل سنة ١١٤/ ٧٣٢ ، واخترق جبال البرتات ، وتوجه إلى مدينة آرل Arles على نهر الرون فاستولى عليها ، وألحق بالدوق هزيمةً فادحةً ، ثم استولى على عاصمته برذال Bordaux ، وفر الدوق شمالاً ، بعد أن وجد أقطانية كلها قد سقطت فى أيدى المسلمين .

كانت المعركة فى سهول فرنسا بين الإسلام ويمثله العرب ، والنصرانية ويمثلها الفرنجة ، وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن الغافقى ، فتصل به إلى أربعمائة ألف ، وتقدره الرواية العربية بسبعين ألفًا أو ثمانين ، وهو تقدير معقول .

استنجد أودو بكارل الذى حشد جيشًا ضخمًا التقى بالعرب ، قرب الضفة الجنوبية لنهر اللوار ، فى السهل الواقع بين مدينتى تور Tours وبواتيه Poiti-ers، وكان العرب قد استولوا عليها وأحرقوا كنيستها .

أخطأت طلائع المسلمين فى تقدير عدد الجيش الفرنجى الذى كان يفوق عددهم ، ثم إن الجيش الإسلامى اضطرم بالشقاق بين العرب والبربر الذين تألف منهم معظم الجيش ، كذلك كان المسلمون مثقلين بالغنائم التى حملوها معهم من الجنوب ، وقد أنهكوا من غزواتهم السابقة وتناقصت أعدادهم ، بسبب تخلف حاميات عديدة منهم فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة .

بدأ القتال فى أواخر شعبان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ ، ودام تسعة أيام دون نتيجة حاسمة ، وفى اليوم العاشر وضح أن النصر يميل إلى المسلمين ، لكن حدث أن افتتح الفرنجة ثغرةً فى معسكر الغنائم الإسلامى ، فارتد قسم كبير من المسلمين ، لينقذوا المعسكر ، فدب الخلل فى صفوف سائر الجيش ، ولم يفلح عبد الرحمن فى إصلاح الخلل ، وبينما هو يتنقل بينهم ، يحمسهم ويجمع صفوفهم ، أصابه سهم أودى بحياته ، فعم الذعر واشتدت وطأة الفرنجة على المسلمين ، وتفشى القتل بينهم ، لكنهم صمدوا إلى أن أقبل الليل ، فافترق الجيشان ، وانسحب المسلمون جنوبًا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم ، ولم يشأ كارل أن يطاردهم خوفًا من الكمين .

عرفت معركة تور - پواتييه عند المسلمين بالبلاط أو بلاط الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها منهم ، وهى لا تظفر من مؤرخيهم سوى بسطر أو سطرين ، وهذا دليل على جلالها وفداحة خطبها . من ذلك ما يروى من أن الآذان ظل عصوراً طويلة يسمع فى هذا المكان ، فى حين تغالى الرواية النصرانية فى تصوير نكبة المسلمين ، فتزعم إنه قتل منهم ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألفًا ، وإنه لم

يقتل من الفرنجة سوى ألف وخمسمائة ، وهذه مبالغة ، فالجيش الإسلامى كان أقل من مائة ألف ، وهو لم يصب بهزيمة ساحقة ، لكنه ارتد بعد صمود اليوم الأخير ، وأسطع دليل على ذلك هو إحجام الفرنجة على مطاردة المسلمين ، فلو كان هؤلاء قد نالتهم هزيمة كبيرة ، لما اكتفى الفرنجة بانسحابهم .

مع إن هزيمة المسلمين لم تكن كبيرةً إلا إنها كانت حاسمةً ، وقد دعى كارل بعد المعركة بالمطرقة Mertellus ، ونستطيع أن نقرر إن العرب فقدوا السيادة على العالم بأسره بعد هذه المعركة ، وارتدوا فى الغرب ، مثلما ارتدوا فى الشرق لدى أسوار القسطنطينية ، ثم شغلوا بنزاعاتهم الداخلية .

لا ريب أن العنصر الأساسى فى النكسة التى أصابت المسلمين فى غاليا ، هو إن الفتوح الإسلامية كانت قد وصلت إلى غايتها ، ولم تعد ثم قوة دفع جديدة ، وقد ابتعد المسلمون عن نواتهم النووية بالمشرق ، وهم برغم الوحدة الظاهرية التى جمعتهم كانوا منقسمين ، وكان العرب قلةً بين جنود كثرتهم بربر ، ينقمون عليهم مكانتهم وتميزهم .

لا ريب أيضاً إن دخول المسلمين هذه البلاد من منافذ البرتات الشرقية ، لا يساعد على تحقيق نجاحات كثيرة ، وكان أيسر لهم ـ نظرياً ـ دخولها من منافذها الغربية وهو ما فعله الغافقى ، لكن هذه المنافذ كانت تسيطر عليها قوى معادية من البشكنس ، وغيرهم من الشعوب الهمجية ، ولم يكن إخضاعهم يسيراً ، ثم إنه كان من سوء الطالع أن يواجه المسلمون بعد عبورهم قوة فرنجية ناهضة ، ما تزال فى سورة عنفوانها هى الأسرة الكارولنجية .

كان للهزيمة فى بلاط الشهداء وقع كبير فى خلافة دمشق ، مما دفع هذه الخلافة ، لأن تأمر واليها الجديد على الأندلس عبد الملك بن قَطَن الفهرى ،

بأن يعبر البرتات ، ويحصن مواقع المسلمين فى لانجدوك Languedoc ، ويعيث فى أنحاء أقطانية ، وفى سنة ١١٧/ ٧٣٥ قام عبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى أربونة بغزوات مماثلة ، وكان بعض الحكام المحليين فى جنوبى غاليا يحنون للتخلص من نير الفرنجة ، فتحالف أحدهم ويدعى مورونتوس Mauruntus أمير بروڤانس Provence معه ، وعبرا نهر الرون فى سنة ٧٣٦م واستوليا على أبنيون Avignon وغيرها من المعاقل الهامة.

عندما علم كارل بذلك أرسل أخاه شلدبراند Childprand ، فاسترد أبنيون، وسار هو بنفسه إلى أربونة وحاصرها ، وأصاب مدداً أتى إليها من جهة البحر ، لكن المدينة لم تستسلم ، فاضطر إلى رفع الحصار عنها ، وفى طريقه أصاب معاقل إسلامية أخرى .

شغل كارل بعد ذلك ببعض النزاعات على السلطة فى مملكة الفرنجة فى حين عبر عقبة بن الحجاج السّلولى والى الأندلس جبال البرتات فى سنة ١٢٠/ ٧٣٨ ، وعاود الإستيلاء على أبنيون وغيرها ، كما عاود التحالف مع مورونتوس، لكن الفرنجة شددوا فى القتال ، مما اضطر عقبة للإنسحاب إلى الأندلس ، وولى مورونتوس هارباً .

فى السنوات التالية شغل المسلمون بالفتنة بين العرب والبربر ، ثم بين القيسية واليمنية ، ودامت هذه الفتنة حتى مقدم عبد الرحمن الداخل فى سنة ١٣٨ / ٧٥٥ ، وكان لهذه الفتنة انعكاساتها على النضال بين المسلمين والفرنجة فى غاليا .

خلف پيپين Peppin القصير أباه كارل مارتل كأمين للبلاط الفرنجى ، ثم انتزع العرش لنفسه فى سنة ٧٥١م ، وأصبح أول ملوك الأسرة الكارولنجية ، وتحالف مع أنسيموندوس Ansemundus ، وهو أحد الزعماء المحليين فى الجنوب ، وغزا لا نجدوك فى سنة ٧٥٣م ، ولم تجد الحاميات الإسلامية عوناً

من الوطن الأم بالأندلس ، فاستسلمت له فيما عدا أربونة .

انفـرد يوسف بن عبـد الرحـمن الفـهـرى بولاية الأندلس فى سنة ١٢٩/ ٧٤٦ ، واعتزم انقاذ المدينة ، فأرسل إليها حملة لم توفق فى مسعاها ، كما إن أميرها الشجاع عبد الرحمن بن علقمة اللخمى هلك فى حروب العصبيات، فتهيأت الفرصة للفرنجة لاقتحام أربونة ، وفى سنة ٧٥٥م زحف إليها پيبين وحليفه أنسيموندوس ، وصمد المسلمون لحصارهما أربع سنوات ، قتل خلالها أنسيموندوس . ولما لم يجد پيپن وسيلة لفتحها ، اتفق مع النصارى من أهلها ، فقاموا بثورة داخلية أربكت المسلمين ، وحالت دون تركيز جهودهم لصد هجمات الفرنجة ، مما أسفر عن اقتحام هؤلاء المدينة وفتكهم بالمدافعين عنها ... وهكذا فـقـد المسلمـون أربونة فى سنة ١٤٢/ ٧٥٩ ، بعـد أن تملكوها زهاء نصف قرن .

2 - انتشار الإسلام فى بلاد الأندلس :

يذهب بعض المؤرخين الفرنج إلى أن انتشار الإسلام فى الأندلس يعود إلى أسباب مادية ، فالنبلاء أسلموا من أجل الحفاظ على أملاكهم ، أو هرباً من الجزية التى ترمز إلى المهانة ، أما عامة الشعب من فقراء ورقيق ، فأسلموا من أجل تحسين أحوالهم التى كانت مترديةً كما إن عدداً من النصارى أسلم ، لاعتقاده أن انتصار المسلميـن ، معناه صحة عقيدتهم ، ووهن عقيدة من سواهم.

ليس هناك ما يدل على صحة هذه الأسباب ، فقد حفل تاريخ الأندلس بطائفة كبيرة من المسلمين الذين ينتسبون إلى أصول إسبانية ، وكان عطاؤهم الوافر فى الثقافة الإسلامية يوازى عطاء غيرهم من المسلمين ويضاهيه فى أحيان كثيرة .

كذلك نلاحظ إنه لم تكن ثم ضرورة مادية ملحة ، لأن يفارق أحد من

النصارى دين آبائه ، لأن المسلمين أبقوهم ـ كما نوضح بعد ـ على أحوالهم التى كانوا عليها ، بل إن هذه الأحوال تحسنت إلى حد كبير ، فقد سمح المسلمون لهم بأن ينظموا أنفسهم ، وفق ما تقضى به شرائعهم ، بل سمحوا لهم أحياناً بقدر من الاستقلال فى مناطق الثغور ، وأجازوا لهم تملك الأرض ، ولم يتعسفوا فى جباية ، ولم يفرضوا عليهم قيوداً معينةً فى لباسهم ، ولم نسمع عن كنيسة تهدمت أو حولت إلى مسجد إلا فى أحوال نادرة .

وليس من شك فى أن العامل الدينى هو العامل الأساسى فى إسلام النصارى ، ويضاف إلى ذلك عوامل أخرى ، من بينها المناخ العام الطيب ، الذى صحب مقدم المسلمين ، ثم إن جمهور الوافدين من هؤلاء المسلمين ، عقدوا مع النصارى علاقات تتسم بالمودة ، ودخلوا معهم فى صداقات ومصاهرات ، وخالطوهم وشاركوهم أعيادهم ومناسباتهم الاجتماعية ، وكانوا يقصدون كنائسهم وديارهم ، وصار بعضهم على دراية باللاتينية .

صاحب ذلك عنصر آخر هو التعريب الذى كان ظاهرةً عامة ، تصاحب الإسلام وتسبقه فى بعض الأحيان ، فقد بدأت اللغة العربية تنتشر بين الإسبان ، وتداخلت فى حياة الناس ، حتى أصبحت جزءاً من نسيجها فى مرحلة تالية .

فى الوقت نفسه سعى المسلمون من جانبهم إلى نشر الإسلام ، وكان للتابعين دور واضح فى هذا الشأن ، يعد استمراراً لدورهم فى إفريقية ، ويذكر ابن حبيب (ت ٢٣٨/ ٨٥٣) إنه قدم إلى الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف نحو من عشرين رجلاً . كما يسر فقهاء الأندلس التعريف بالإسلام لمن لا يحسن العربية ، وأجاز بعضهم ـ فيما بعد ـ تفسير القرآن بالأعجمية ، وإن منع من تلاوته بها .

وكان وضع الذين دخلوا الإسلام فى الأندلس ، أفضل من وضع غيرهم

فى أقطار أخرى ، ولم يعرف أن العرب فرضوا الجزية على من أسلم فى الأندلس ، فى حين إنهم حاولوا فرضها أحياناً فى إفريقية والمشرق ، وكان السبب المباشر لثورة البربر الكبرى فى أواخر عهد هشام بن عبد الملك هو سعى عمر بن عبد الله المرادى عامل طنجة إلى تخميس البربر .

ومع أن النصرانية كانت الديانة السائدة فى الأندلس قبيل مقدم المسلمين ، إلا إنه كانت توجد معاقل للوثنية ، أشير إليها فى قرارات المجامع بطليطلة ، من عبادة للينابيع والأحجار والأشجار ، بل وجد أيضاً من يعبد الشيطان ، ورغماً عما ورد فى هذه القرارات من عقوبات ، تتراوح بين المصادرة والجلد والاسترقاق، فإنه لم يتغير من الأمر شىء ، بل إن البشكنس - فيما يرجح - ظلوا وثنيين حتى أوائل القرن التاسع الميلادى .

كان لموقف الكنيسة من الشعب الإسبانى ، واتحادها مع الدولة وانفرادها بالامتيازات ، أثره فى نفور الشعب منها ، ومما زاد من هذا النفور الخلافات العقدية بين الكهنة ، كما إن الأريوسية لم تكن قد اختفت بعد من البلاد ، وكان لما ذهبت إليه من بشرية المسيح عليه السلام ، أثره فى تقريب مسافة الخلف بين النصارى والمسلمين ، ولا شك إنه كان من العوامل التى أعانت على انتشار الإسلام عتق الرقيق ، فكان العبد النصرانى لسيد نصرانى ، يعتق على الفور عند إسلامه ، بل إن العبد النصرانى لسيد مسلم ، كان لا يدفع الجزية عند عتقه . ويقول دوزى إن العبيد لم يكونوا يعرفون الكثير عن النصرانية، وكانت غوامض الإسلام عندهم ، مثل غوامض النصرانية ، ولكن الذى كانوا يدركونه جيداً هو كراهتهم للقساوسة .

كما إن قتل عدد من النبلاء إبان الفتح ، وهرب عدد آخر أزال عقبةً كبيرةً أمام انتشار الإسلام ، بل إن بعضهم أسلم وحسن إسلامه ، ولعب دوراً هاماً فى

الدفاع عن المسلمين فى مناطق الثغور .

لم تمدنا المصادر بمعلومات عن بدء انتشار الإسلام ، على إنه من الثابت إن عدد من دخل فى الإسلام من النصارى كان قليلاً فى البداية ، ولا نلحظ لهم دوراً واضحًا فى حروب العصبيات التى دبت بين العرب والبربر ، ثم بين القيسية (والشامية) وبين اليمانية (والبلدية) .

ويروى الخُشَنى (ت ٣٦١/ ٩٧١) عن عقبة بن الحجاج السلولى والى الأندلس إنه « كان صاحب جهاد ورباط ، وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان إذا أسر الأسير ، لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ، ويرغبه فيه ويبصره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل » .

ومن أوائل من اعتنق الإسلام فى هذه الفترة قَسىٌّ Casius قومس الثغر وهو من النبلاء ، فعبر البحر إلى المشرق غداة الفتح ، وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وأضحى من مواليه ، ويذهب ابن حزم (ت ٤٥٦/ ١٠٦٤) إلى أن عصبية بنى قسى فيما بعد للمضرية ، مصدرها هذا الولاء الأموى .

أما العبيد فيحدثنا دوزى عن خالد بن زيد كاتب يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس ، وأن أباه كان من الأرقاء النصارى ، ثم أسلم وتسمى زيداً ، وأعتقه مولاه وولد خالداً الذى برع فى العربية ، واتخذه يوسف كاتباً له ، وكان ذا تأثير قوى عليه ، أثار حسد العرب أنفسهم ، وأنفذه رسولاً إلى عبد الرحمن الداخل فى بداية الصراع معه ، وصار فيما بعد كاتباً له .

ولم نذهب بعيداً فيليان صاحب سبتة الذى أعان العرب فى فتحهم البلاد ، أسلم ولده ويدعى بلكايش بعد الفتح وحسن إسلامه ، ونبه عدد من أفراد أسرته

وحفدته فى علم الفقه وغيره من علوم المسلمين .

ويذكر الخشنى ضمن قضاة قرطبة قاضيًا يدعى مهدى بن مسلم من مسالمة أهل الذمة ، استقضاه عقبة بن الحجاج والى الأندلس ، فكان أول قضاة الجند بها .

ويقول الخشنى أن مهديًا هذا اشتهر بالعلم والدين والورع ، وجعله عقبة يكتب عهده له بنفسه ، وكان لهذا العهد من الأهمية ، بحيث انتحله بعض بنى الأغلب بإفريقية فيما بعد .

ولما قامت الإمارة الأموية فى سنة ١٣٨/ ٧٥٦م، واستقرت الأحوال فى البلاد ، ازدادت أعداد المسلمين ، وكثر إنشاء المساجد ، وإذا كان المسلمون عقب الفتح قد شاطروا نصارى قرطبة كنيستهم الجامعة ، فإن عبد الرحمن الداخل ، باع منهم نصيبهم ، وأنشأ الجامع الكبير الذى اكتملت عمارته فى عهد المنصور بن أبى عامر .

كذلك قام عدد من الاتقياء ببناء المساجد ، فبنى حنش بن عبد الله الصنعانى (ت ١٠٠هـ) وهو من التابعين مسجد إلبيره Elvira ، وبنى مسجداً آخر فى مدينة سرقسطة ، دعى بالمسجد الأبيض دفن فيه ، وقد تمت توسعة هذين المسجدين فى عهد الأمير محمد من أمراء بنى أمية .

3 ـ عناصر المجتمع الأندلسي :

(أ) العرب :

دخل العرب فى هيئة طوالع ، قاد أولاها موسى بن نصير فى سنة ٩٣/ ٧١٢ ، وشكلت القسم الثانى من جنود الفتح ، وبلغ عدد هذا الطالعة ثمانية عشر ألفًا ، ولما ولى الحر بن عبد الرحمن الثقفى فى سنة ٩٧/ ٧١٦ صحب

معه طالعةً ، بلغ عددها أربعمائة من وجوه أهل إفريقية .

على أن أهم طوالع الأندلس ، هى طالعة بَلْج بن بِشر القُشَيرْى فى سنة ١٢٣/ ٧٤١ ، فقد التجأ بعض العرب ، بعد أن هزمهم البربر فى ثورتهم الكبرى إلى سبتة ، حيث أرسلوا إلى عبد الملك بن قطن الفهرى والى الأندلس يستنجدونه ، فأوجس منهم خيفةً ، ولما اقتدى بربر الأندلس ببربر العدوة ، وانقلبوا على العرب ، سمح لهم بالعبور ، وشرط عليهم الرحيل بعد سنة ، وقد نجح العرب فى التصدى للبربر ، وهزيمتهم بوادى سليط Guadacelete ، على إن ما كان يخشاه ابن قطن وقع ، فنازعه بلج وأصحابه وانتزعوا منه الإمارة وقتلوه .

كانت الطالعة التى قادها بلج تضم نحو عشرة آلاف ، بينهم ألفان من الموالى ، كما كانت تضم قيسيةً ويمنيةً ، وغلب الطابع القيسى على جندى دمشق وقنسرين .

وآخر الطوالع العربية بالأندلس ، هى الطالعة التى قادها أبو الخَطَّار حسام ابن ضِرار الكلبى ، الذى قدم فى سنة ١٢٥/ ٧٤٣ ، ومعه فريق من الشاميين ، عدتهم ثلاثون رجلاً.

لم تنقطع هجرات العرب إلى الأندلس ، ومما تجدر ملاحظته أن الأسرة الأموية فيما بعد كانت تشجع هذه الهجرة ، خاصة من ينتسبون منهم إلى قريش .

إنتشر العرب فى إنحاء البلاد جميعها ، وتكثفوا فى مناطق معينة ، وخاصةً المدن الواقعة على الوديان قرب الأراضى الخصبة مثل الوادى الكبير .

انقسم العرب ـ كعهدهم أينما حلوا ـ إلى قيسية ويمانية ، وهما القبيلان العربيان الكبيران ، كما انقسموا إلى بلدية وشامية . والبلدية تضم العرب الذين

أتو مع موسى بن نصير ، أى العرب القدماء وكثرتهم يمنية ومدنية (فهرية) أما الشامية فهم العرب الذين أتوا مع بلج بن بشر ، وكانت القيسية أظهرهم ، وإن لم يكونوا أكثرهم ، ولما قدم أبو الخطار فى سنة ١٢٥ وزع الشاميين على الكور، وأطلق هؤلاء على المدن التى نزلوها أسماء مدنهم الأصلية .

أصبحت هذه الأجناد عصب الجيش الأندلسى ، منذ قيام الأمويين بالأندلس ، حتى قريب من سقوط دولتهم .

وإذا كانت الأقطار الإسلامية شهدت فى عصورها الأولى صراعات بين القيسية واليمنية ، فقد ساد هذا الوضع أيضًا فى الأندلس ، ولكن هذه الصراعات جاورتها صراعات أخرى بين الشامية والبلدية ، فكان الشامى القيسى يقف أحياناً مع إخوانه القيسيين ضد سائر الشاميين ، ويقف أحياناً أخرى مع الشاميين اليمنيين ضد سائر القيسيين . وشهد عصر الولاة فتنة بين قبائل العرب، استمرت سبع سنوات ١٢٣/ ١٣٠ بدأت بعد مصرع عبد الملك ابن قطن الفهرى شاميةً بلديةَ ، ثم انقلبت على يدى أبى الخطار الكلبى قيسيةً يمنية .

(ب) البربر :

يعود الفضل الأول إليهم فى فتح الأندلس ، فقد خاضوا المعركة ، الأساسية مع القوط بوادى لكة فى سنة ٩٢/ ٧١١ ، ولا يدنّى من هذه الحقيقة مجهود العرب بعد عام مع موسى بن نصير . وبلغ عدد البربر الذين صحبوا طارق بن زياد نحو اثنى عشرة ألفًا ، كما وفدت أعداد أخرى ، بعد أن وصلت أخبار الفتوح إلى العدوة .

ولما قامت ثورة البربر الكبرى فى بلاد المغرب ، وجدت هذه الثورة امتداداً لها فى بلاد الأندلس ، وحلت الهزيمة بالبربر على أيدى العرب ، ثم عرضت

سنوات من القحط ، فعاد عدد كبير من البربر إلى بلادهم الأصلية ، ثم نشطت هجرتهم ، حين استعانت الأسرة الأموية بهم كمرتزقة ، ولم يرد بالمصادر الخبر بهجرة جماعية للبربر إلا فى عصر الخليفة الناصر ، ثم فى عصر الحاجب المنصور .

إنقسم البربر فى الأندلس ـ كما كانت حالهم فى المغرب ـ إلى بتروبرانس، وكما انقسم العرب إلى شامية وبلدية ، انقسم البربر على نحو مشابه .

وإذا كان من اليسير تحديد منازل العرب فى الأندلس ، فإن الأمر يختلف بالنسبة للبربر ، ويرى مؤنس (ت ١٩٩٦) إنه فى المنطقة التى تبدأ من جبال البرتات ، وتنحدر إلى مدينة سالم Medinacelí نواجه كتلة بربريةً ضخمةً تصل إلى أحواز طليطلة ، وتمتد هذه الكتلة غربًا ، فتشمل المنطقة الواقعة بين التاجه والدويره Duero حتى الساحل عند قلمرية ، وينتهى الاستقرار البربرى فى أطراف غاليا وجليقية .

يذهب بعض الكتاب إلى إن العرب اختصوا أنفسهم ـ دون البربر ـ بأحسن الأرضين ، مما كان سببًا فى ثورة هؤلاء ، على أن ذلك لا يمنع أن كثيراً منهم اختاروا السكنى فى المناطق الجبلية ، للتشابه الواقع بينها وبين بلادهم الأصلية .

كان دور البربر فى الثقافة الأندلسية وافراً ، ونستدل على ذلك مما ورد فى رسالة ابن حزم فى تفضيل الأندلس ، ويكفى أن نذكر يحيى بن يحيى (ت ٢٣٢ أو ٢٣٤هـ) وبقى بن مخلد (ت ٢٧٦هـ) وعباس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ) وابن دَّراج القَسْطَلّى (ت ٤٢١هـ) .

كان للبربر دور آخر وافر فى نشر الإسلام ، لمخالطتهم أهل البلاد ،

وتزاوجهم معهم ، وهيأت لهم كثرتهم العددية ، لأن يقوموا بالجهد الأكبر فى الفتوح وراء البرتات ، ولولا ما شجب بينهم وبين العرب من نزاعات ، لكان للإسلام فى هذا الاصقاع شأن آخر .

(جـ) الموالى :

لم يشكلوا عنصراً أو طبقة بالمعنى المفهوم ، والفئة الوحيدة المترابطة هى التى كانت على صلة بدوائر الحكم ، ونعنى بها الموالى الشامية بقرطبة .

كان الموالى من أصول شتى - عربية وبربرية وفارسية وروميـة - بل إن بعضهم كانوا من أهل البلاد أنفسهم ، على أن غالبية الموالى كانت أمويةً ، أى إنها توالى بنى أمية ، ومما يجدر ذكره أنه جرت العادة عند بعض الكتاب الأندلسيين ، إنهم يكتفون فى أحيان كثيرة بالنسبة الأموية ، بل يطلقون على موالى بنى أمية تعبير بنى أمية فحسب .

إنقسم الموالى - كما كانت حال العرب - إلى شامية وبلدية ، وقد تنازع الفريقان الصدارة ، على إنها كانت فى معظم الأحوال من نصيب الشامية .

اشتهر من الموالى بعض البيوتات ، منها بنو أبى عبده ، بنو مغيث ، بنو شُهَيْد ، بنو حُدَير ، بنو الزَجَّالى ، بنو رستم وغيرهم .

بعد قيام الأمويين ، قام الموالى بدور كبير فى إدارة دولتهم ، بخاصة فى مجالات الحرب والسياسة ، وإن نافسهم العرب أحياناً ، وبعض أفراد الأسرة الأموية ذاتها ، وسوف يدخل فى جملتهم فى مرحلة تالية الصقالبة ، الذين صار لهم حضور واضح فى عصر الخلافة الأموية وعصر الطوائف .

أما عن دور الموالى فى الحياة الثقافية ، فكان دوراً هامًا ، ونبه عدد كبير منهم فى علوم شتى وفنون وآداب ، وسوف يظهر بينهم أسماء كبيرة كالعُتْبى

(ت ٢٥٤هـ) وابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) وابن شُهَيدْ (ت ٤٢٦) وابن حزم (ت ٤٥٦هـ) وابن حيان (ت ٤٦٩هـ) .

د) المولدون :

كان من الطبيعى عند فتح العرب أحد الأمصار ، أن يسارع إلى الإسلام فريق من أهله ، يزداد عددهم بعد ذلك ، وكذا كانت الحال فى الأندلس ، وقد أطلق على من أسلم من أهلها تعبير مولدين ، وعلى أحداثهم إسلامًا تعبير مسالمة أو أسالمة .

وليس لدينا ما يدل على أن المولدين كانوا يختصون بأحياء معينة داخل المدن ، على أنهم فى قرطبة ، تركزوا فى الضاحية الجنوبية شُقَندة Segunda التى دعيت بالرَّبَض Arrabal .

ويذهب ليفى پروڤنسال É. lévi - Provençal (ت ١٩٥٦م) إلـى أن المولدين كانوا يعيشون على تربية الماشية فى الأرياف ، وعلى صيد الأسماك والأعمال البحرية فى المناطق الساحلية ، أما فى المدن فزاولوا حرفًا وأشغالاً يدوية، ومارسوا العمل فى التجارة ، واشتهروا فى إشبيلية بثرائهم .

لم يكن للمولدين نشاط واضح فى الحياة العامة فى عصر الولاة ، ولم يشاركوا فى غزوات المسلمين وراء البرتات ، على أن هذا النشاط بدأت طلائعه، مع بداية عصر الإمارة الأموية ، ثم تدافعت عجلته بعد ذلك . ولا يخفى أن كانت للمسلمين من عرب وبربر صلات مع المولدين ، فقد جاوروهم وصاهروهم ، وادعى عدد من هؤلاء أنسابًا عربيةً (يمانيةً فى المحل الأول) .

كان المسلمون الجدد يتعصبون أحيانًا لدينهم تعصبًا ساذجًا وجاهلاً فى الوقت نفسه ، وسوف يتضح ذلك فى علاقاتهم بالدولة فى مرحلة تالية .

(هـ) النصارى المعاهدون :

ويقصد بهم النصارى الذين كانوا يعيشون داخل الدولة الأندلسية وكان يطلق عليهم أيضًا تعبير عجم وتعبير مستعربين ، وقد انتقل هذا التعبير إلى إسبانيا النصرانية فصار Mozárabes .

سمح المسلمون للنصارى بأن ينظموا أنفسهم كما يريدون ، وكان يقوم على شئونهم قوامس أو أقماط (جمع قومس أو قمط وهو الكونت) وكانوا يختارون بالانتخاب بينهم ، فيما عدا القومس الأعلى ومستقره قرطبة ، فكانت الدولة تعينه فى منصبه .

كان قومس الأندلس مسئولاً عن مواطنيه ، وعلاقاتهم بالحكام العرب ، وكان أول القوامس أرْطِباس بن غيطشة من ملوك القوط .

إلى جانب القوامس كان هناك موظفون آخرون ، أبرزهم القاضى Judex أو (Alcalde) ويقضى بين النصارى وفق شرائعهم ، أما فى القضايا التى يتخاصم فيها مسلمون ونصارى ، فكان قاضى المسلمين هو الذى يقضى بينهم .

عندما ننتقل إلى واجبات النصارى المالية ، نجد أن العرب فرضوا عليهم جزيةً ، تتراوح بين عشرة دراهم وأربعين درهمًا للواحد منهم كل عام ، وأعفى منها غير القادرين والنساء ، كما فرضوا عليهم خراجًا ، يبلغ الثلث أو الربع من غلة أرضهم .

كانت روح التسامح تسود علاقات المسلمين بالنصارى ، والمدونات النصرانية المعاصرة تؤكد ذلك ، فقد احتفظ النصارى كقاعدة بنظمهم الكنسية وكنائسهم التى كانت قائمةً فى عهد القوط ، وسمح لهم بعقد مجامعهم الدينية والحج إلى بيت المقدس .

عندما ننتقل إلى واجبات النصارى المالية ، نجد أن العرب فرضوا عليهم جزية ، تتراوح بين عشرة دراهم وأربعين درهماً للواحد منهم كل عام ، وأعفى منها غير القادرين والنساء ، كما فرضوا عليهم خراجاً ، يبلغ الثلث أو الربع من غلة أرضهم .

كانت روح التسامح تسود علاقات المسلمين بالنصارى ، والمدونات النصرانية المعاصرة تؤكد ذلك ، فقد احتفظ النصارى كقاعدة بنظمهم الكنسية، وفى أعقاب الفتح أجاز المسلمون لولد غيطشة ضياعهم الفسيحة التى دعيت «بصفايا الملوك» ، وقدر عددها بثلاثة آلاف ضيعة ، كما إن كثيراً من المسلمين تزوجوا نصرانيات ، ومن نسل إحداهن تحدر المؤرخ وعالم اللغة المعروف ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) .

تأثر النصارى بالثقافة العربية السائدة ، وبمرور الوقت ثم استعرابهم واستيعابهم فى الإطار العام لها ، وأصبح من المعتاد أن يكون للنصرانى إسمان عربى وإسبانى ، وفى الوقت نفسه اضمحلت اللغة اللاتينية ، ولم يلبث أن ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة العربية .

(و) اليهود :

كان الفتح الإسلامى فرصة ليهود الأندلس ، كى يتخلصوا مما كانوا عليه من اضطهاد فى عهد القوط ، فتعاونوا مع المسلمين فى فتحهم للبلاد ، كما تعاونوا معهم فى فتوحهم وراء البرتات .

كان اليهود يؤثرون المقام فى أحياء خاصة بهم داخل المدن ، يزاولون أعمالهم التقليدية ، ويرأسهم فى الأندلس كلها رئيس يدعى بالناجد ، كما كانت لهم دور عبادة ، يطلق على الواحدة منها اسم شنوغة Sinoga ولها فى أحوال كثيرة أحباس وأوقاف للنفقة عليه .

ترك المسلمون لليهود حريتهم فى أن يسيروا أمورهم ، وفق أعرافهم وقوانيهم وكانوا يتقاضون فيما بينهم .

كانت الصلات بين المسلمون واليهود طيبةً ، تسودها المودة ، واتخد هؤلاء اللباس العربى وتحدثوا بالعربية ، وتمادوا فى استخدام الأسماء العربية ، وسمح المسلمون لهم بملكية الأرض ، وامتهن عدد منهم صناعة الورق ، على إن أهم مجال عمل فيه اليهود هو التجارة ، وأهم تجارة اشتهروا بها هى تجارة الرقيق وخاصة الصقالبة .

وكانت لليهود مشاركة واضحة فى الحياة الثقافية فى عصر الخلافة وما تلاه من عصور ، وكثير من تراث الحضارة الإسلامية بالأندلس ، جرى نقله إلى اللغة اللاتينية ، على أيدى مترجمين يهود .

الفصل العاشر

عصر الإمارة الأموية

١ ـ عبد الرحمن الداخل :

فى سنة ١٣٢/ ٧٥٠ وقعت معركة الزاب بين الأمويين والعباسيين وانتهت إلى هزيمة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية الذى هرب إلى الشام ، وتابع هربه إلى مصر ، حيث لقى مصرعه فى قرية بصعيدها .

لم يكتف العباسيون بأن أسقطوا دولة خصومهم ، إنما هم تتبعوهم أينما ذهبوا ، ولم يراعوا فى ذلك عهداً ولا رحمًا ولا دينًا ، ولم يجد بنو أمية إلا أن يجدوا فى الهرب ، حيث أوسعهم الله من أرضه .

كان من جملة هؤلاء الأمويين فتى صغير ، يدعى عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام ، استطاع بعد مغامرات مثيرة ، أن ينجو بحياته إلى بلاد المغرب ، وبعد أن تقلب فى قبائل البربر ، استقر فى نفزة الذين يسكنون قرب سبتة .

إبان مقامه فى المغرب فكر عبد الرحمن فى أن يعبر إلى الأندلس ، ويجدد لبنى أمية دولةً بها ، فبعث مولاه بدراً إلى هناك ، ليتحقق من إمكان تحقيق هذه الفكرة .

مرت الأندلس ، منذ أن تم فتحها بمرحلة قلقة مضطربة ، وكان لنأيها عن مركز الدولة الإسلامية أثره فى أن اشتعلت بها حروب العصبيات بين العرب والبربر ، ثم بين العرب أنفسهم . وأدت هذه الحروب إلى نتائجة مدمرة على فتوح العرب وراء البرتات ، كما أدت أيضًا إلى ظهور نواة المقاومة النصرانية فى الجبال الشمالية الوعرة ، ونشأت لها دولة نصرانية صغيرة ، امتدت مساحتها امتداداً واسعًا ، خلال السنوات الأخيرة من عصر الولاة .

استطاع بدر إبان مقامه فى الأندلس ، أن يتصل بالموالى الأموية وكان عددهم كبيراً ، كما اتصل باليمانية ، وكانوا قد أصيبوا بضربات قاسية من القيسية ، ويسعون إلى أخذ ثأرهم ، ولما أتم تمهيد الأمر لسيده عاد إلى بلاد المغرب .

فى إحدى أمسيات ربيع الآخر ١٣٨/ سبتمبر ٧٥٥ ، وصل عبد الرحمن إلى ثغر المُنَكَّب Almuñecar ، وهرع إليه موالى الأموية ووجوه أهل اليمن ، فتغلب على إلبيرة ، وأتى خبره إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس ، وكان فى الثغر يطارد بعض الثوار هناك ، فأسرع إلى قرطبة ، ودارت مراسلات بينه وبين عبد الرحمن ، ولم يك بدمن الصدام المسلح .

دارت المعركة بين الفريقين يوم الأضحى ، عند موضع يعرف بالمسارة قرب قرطبة ، وانتهت بانتصار عبد الرحمن ، ودخل حاضرته فى يومه ، ولحق يوسف وصاحبه الصُمَيْل بن حاتم الكلابى ـ رئيس القيسية ـ بماردة ، وأخذا إلى طليطلة ، وسار عبد الرحمن إليها ، وضرب حصاره عليها ، إلى أن تداعى الطرفان إلى الصلح ، وعاد عبد الرحمن ومعه يوسف والصميل إلى الحضرة ، وبدأ عهد جديد فى تاريخ الأندلس .

كان عبد الرحمن يشعر بأنه غريب عن هذه البلاد ليست له عصبية يعتمد عليها ، لذا انصرف إلى تشجيع أهل بيته الأمويين على الوفود إليه ، فأتاه عدد كبير منهم ، واستعمل بعضهم فى مناصب الدولة ، كما استعان بمواليهم ، وسوف يصبح هؤلاء الموالى عصب الحكومة الأموية وسنادها ، وصارت أسراتهم ـ فيما بعد ـ تتوارث مناصب الوزارة والقيادة والحجابة .

فى الوقت نفسه لم يأمن عبد الرحمن جانب العرب ، وخاصة اليمانية منهم ، وكان هؤلاء يشعرون بأنهم أصحاب فضل عليه ، وحين انحرف عنهم،

قاموا بعدة ثوارت ضده ، وتحالف بعضهم مع خصومه من العباسيين والفرنجة . لذلك استعان عبد الرحمن بالبربر ليوازن بهم الأجناد العرب ، كما استعان بالصقالبة الذين كان يؤتى بهم صغاراً من أنحاء أوربا وينشئون نشأةً إسلاميةً ، وتصبح لهم دربة بأساليب القتال وخبرة ، وشكلوا ـ بعد ـ الحرس الخاص بالأمير .

خلال عهده الطويل نشبت عدة ثورات ، أولاها ثورة يوسف الفهرى الذى هرب فى سنة ١٤١/ ٧٥٩ إلى ماردة ، وحشد أنصاره ، وأقبل إلى إشبيلية ، ثم دار قتال عنيف بينه وبين جيش الدولة عند حصن المُدَوَّر Almodavar ، وانتهت المعركة إلى هزيمته وقتله ، ثم قتل صاحبه الصميل وكان رهن الحبس بقرطبة .

كذلك واجه عبد الرحمن ثورات من جهة اليمانية ؛ أخطرها ثورة العلاء ابن مغيث اليَحْصُبى من أشراف اليمن بكورة باجة ، وقد أدى به طموحه ، لأن ينحاز إلى بنى العباس ، فعبر البحر إلى إفريقية ، ومكث هناك يسيراً ، ثم عاد فى سنة ١٤٦/ ٧٦٣ ، ومعه سجل الخليفة المنصور ، ونزل بساحل باجة ، ورفع الرايات السود ، وأيدته اليمانية والفهرية ، وفزع عبد الرحمن إليه والتقى به فى قرمونة ، حيث دار قتال شديد ، أسفر عن انتصار عبد الرحمن ومصرع عنها

أمر عبد الرحمن فاحتزت رأس عدوه ، وجعلت مع لواء المنصور فى سفط ، وبعث به مع واحد من خاصته إلى مكة ، فوافق المنصور حاجًا ، فوضعه على باب سرادقه ، ويقال إن المنصور علق على ذلك بقوله : « الحمد لله الذى جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً » ، وبعد سنوات دعا المنصور خصيمه الأندلسى « بصقر قريش » .

واجه عبد الرحمن أيضًا ثورةً من قبل البربر تزعمها رجل من مكناسة ، اسمه شقنا بن عبد الواحد ، ادعى فى ولد فاطمة الزهراء ، واستولى على قورية Coria وشنت بريّة Santa María وغيرها من النواحى غربى الأندلس ، وابتنى لنفسه حصنًا دعاه شيطران ، وأعانته طبيعة الأرض التى تكتنفها الجبال ، فكان إذ أمن انبسط ، وإذا خاف صعد ، وأعيا أمره الدولة نحو عشر سنوات إلى أن اغتاله بعض أصحابه فى سنة ١٦١/ ٧٧٧ ، وأتوا برأسه إلى عبد الرحمن .

على أن أخطر ما واجه عبد الرحمن هو الغزوة التى قام بها شارلمان Charlemagne (٧٦٨ ـ ٨١٤م) ملك الفرنجة إلى الأندلس فى سنة ١٦١/ ٧٧٨، ولو قدر لهذه الغزوة النجاح ، لصار للأندلس شأن آخر .

توافد إلى شارلمان عدد من الثوار العرب ، وعلى رأسهم سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى ، ولدى اتفاق الطرفين ، عبر شارلمان بجيوشه إلى إسبانيا ، واستولى فى طريقة على بنبلونة فى بلاد البكشنس ، وتقدم إلى سرقسطة . غير أن حملته تعثرت أمام أسوارها ، وفى تلك الأثناء أتته الأخبار بأن السكسون شقوا عليه عصا الطاعة ، فرفع الحصار عن سرقسطة ، واتخذ أهبته للعودة ، ففتك البشكنس بمؤخرة جيشه فى شعب رونسسفال Roncesvalles ، حيث قتل هرودلاند Hruodland (رولان) وعدد من كبار القادة الفرنجة ، وقدخلدت هذه المعركة « أغنية رولان » La Chanson de Roland الذائعة الصيت بين ملاحم العصور الوسطى .

فى الوقت نفسه كان هناك ثائر آخر ؛ هو عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى وقد جدد فعل العلاء بن مغيث ، فعبر البحر إلى إفريقية ، ثم عاد بجيش من البربر ، ونزل بساحل تدمير فى سنة ١٦٢/ ٧٧٨ ودعا لبنى العباس ، وسار إليه عبد الرحمن وحرّق سفنه ، وتعقبه فى جبال بلَنسية Valencia إلى أن اغتاله بعض أصحابه ، وبعثوا برأسه إلى الأمير .

نتساءل هل يوجد خيط يربط بين ثوار يدعون للخليفة العباسى ، وبين ثوار يدعون ملك الفرنجة ، والهدف فى النهاية واحد .

بعبارة أخرى هل يوجد اتفاق مشترك بين خليفة بغداد وبين ملك الفرنجة ، شارك فيه هؤلاء الثوار .

المصلحة ترجح وجود هذا الاتفاق ، لكنه ليس فى مصادرنا ما يؤكده ، والمصادر الفرنجية ـ وحدها ـ تشير إلى سفارات متبادلة بين آخن Aachen ـ حاضرة شارلمان ـ وبغداد ، وتشير أيضًا إلى هدايا ، ثم وضع بيت المقدس تحت حماية الملك الفرنجى .

صمت الرواية العربية تمامًا ، ووقوف الرواية الفرنجية عند حد ، يجعلنا نشك فى وجود اتفاق ، لكننا فى الوقت نفسه لا ننفيه .

هدأت الأحوال فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الرحمن ، بحيث إنه حين ولى ولده هشام فى سنة ١٧٢/ ٧٨٨ كانت أمور البلاد مستقرةً إلى حد كبير .

2 ـ خلفاء عبد الرحمن :

يعد هشام الذى دعى بالرضى من أفضل أمراء الأسرة الأموية وأكثرهم تقوىً ودينًا ، ويصفه ابن عبد ربه : « كان أحسن الناس وجهًا ، وأشرفهم نفسًا، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذى أخذ الزكاة على حلها ، ووضعها فى حقها ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ولا زلة فى صباه » .

لم يكن هشام أكبر أبناء أبيه ، لذلك ما كاد يلى الإمارة ، حتى ثار ضده أخواه سليمان وعبد الله ولحقًا بطليطلة ، إلا أن هشامًا استطاع القضاء على هذه الثورة ، وتم الاتفاق على أن يعبر الأخوان بأولادهما إلى عدوة المغرب .

دخل هشام كذلك فى صراعات مع الفرنجة الذين نشطوا لأخذ معاقل المسلمين فى جبال البرتات ، وكذلك الجلالقة ، واستطاع قواد هشام وخاصةً عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث أن يضعوا حداً لنشاط هؤلاء .

على أن أهم الأحداث التى ترتبط بعهد الأمير هشام ، هو دخول مذهب الإمام مالك رضى الله عنه (ت ١٧٩هـ) إلى الأندلس ، وكان الأندلسيون قبل ذلك على مذهب الأوزاعى إمام أهل الشام (ت ١٥٧هـ) ، لكن عدداً من علماء الأندلس ، وعلى رأسهم الغازى بن قيس وزياد بن عبد الرحمن شبطون وعيسى بن دينار ويحيى بن يحيى ، كانوا قد تلقوا العلم ، بالمدينة المنورة على يدى الإمام مالك ، وشرعوا بعد عودتهم فى نشر مذهبه ، وإلى يحيى بن يحيى بالذات تنسب أشهر روايات الموطأ ، وهو الكتاب الأم فى فقه مالك .

وإذا كان مذهب مالك سوف يضحى بعد سنوات هو مذهب جمهور أهل الأندلس ، فإن فقهاءه صار لهم نفوذ كبير على الأمير هشام ، وكان هو بدوره يوقرهم ويحترمهم ، ولم يكن يقرر أمراً من أمور الدولة ، إلا بعد أن يأخذ مشورتهم ورأيهم .

مات هشام فى سنة ١٨٠/ ٧٩٦ وخلفه ولده الحكم ، ولدى ولايته عاود عماه سليمان وعبد الله الثورة عليه ، وتواطئا مع الفرنجة ، وبعد حرب امتدت عدة سنوات ، تمت هزيمة الأخوين وأعدم سليمان ، لكن الحكم عفا عن عبد الله وأصهر إليه ، وسوف يصبح بنوه فيما بعد من كبار رجال الدولة .

ويرتبط عهد الحكم بحدثين هامين ، هما استيلاء الفرنجة على برشلونة وتأسيس الثغر الإسبانى La Marca Hispánica ، وثورة الربض .

لم يغمض الفرنجة الطرف بعد النكسة ، التى أصيبوا بها فى شعب رونسسفال عن معاودة غزو الأندلس ، وتأمين حدودهم مع المسلمين فى جبال

البرتات ، وقد لاحظنا أنهم كانوا يفيدون دائمًا من الثورات المناهضة للدولة الأموية ، من أجل أن يحققوا أهدافهم هذه ، وشجعوا عليها ، لذا تردد المسلمون بغزواتهم إلى أربونة وقرقشونة ، وغيرهما من معاقل الفرنجة ، كما ترددت هذه الغزوات إلى الجلالقة الذين كانوا يحالفون الفرنجة فى بعض الأحيان .

إنتهز شارلمان فرصة الثورة التى قام بها سليمان وعبد الله ولدا عبد الرحمن الداخل ، فسير جيشًا بقيادة ولده لويس ، فاستولى على جرُنْدة Gerona ، وأوغل فى الثغر الأعلى ، وحاصر وشقة فى سنة ١٨١/ ٧٩٧ ، ثم ارتد عنها عندما علم بمسير الأمير الحكم إليه .

عاود شارلمان المحاولة ، وعقد حلفًا مع أذفونش الثانى Alfonso II ملك أشتوريش Asturias وجليقية (٧٩١ ـ ٨٤٢) ، وأرسل ولده لويس مرةً أخرى إلى مدينة برشلونة ، فحاصرها عدة شهور ، ولم يستطع الحكم أن يمدها بعونه، فسقطت فى سنة ١٨٥/ ٨٠١ ، وجعلها الفرنجة قاعدة ، لما عرف بالثغر الإسبانى أو القوطى ، وهو نواة إمارة قطلونية Cataluña فى العصور التالية ... وبذا انحدرت حدود الأندلس مسافة بعيدةَ جنوبى جبال البرتات

واجه الحكم إلى جانب ذلك ثورات من جهة المولدين ، وكانت توجد منهم عصبيات قوية فى مناطق الثغور ، وجدت الدولة من الأجدى مسالمتها ، والاعتراف بنفوذها فى هذه الأصقاع البعيدة ، خشية أن تتحد مع النصارى الذين كانوا يتربصون بالمسلمين فى ناحية الشمال . لكنها كانت تتدخل أحيانًا عندما يعلن أحد هؤلاء المنتزين استقلاله ببعض المدن والقلاع ، أو يتحالف مع أعدائها ، وكثيراً ما كانت تضرب بين هؤلاء الثوار ، أو تعين بعضهم ضد بعض .

أشهر هذه الأسرات المولدية خلال القرن الثالث الهجرى بنو قسى ، بنو عمروس ، بنو شبريط (الطويل) .

على أن أخطر ما واجه الدولة من جهة المولدين هى الثورة التى اندلعت داخل العاصمة نفسها .

كان المسلمون الجدد فى اعتناقهم الإسلام ، يتعصبون لها أحياناً تعصباً ساذجاً وجاهلاً ، ويأخذون على الدولة التهاون فى إقامته ، ويسببون له متاعب ، وبقدر ما يتضاءل نصيب المؤمن من الثقافة ، بقدر ما يكون سهل الإنقياد . وقد استثمر الفقهاء فى المولدين هذه الناحية ، من أجل أن ينتصفوا من الأمير الحكم الذى حرمهم نفوذهم الذى كان لهم فى عهد أبيه ، وزعموا انصرافه عند دينه إلى دنياه ، وبذا صار المولدون وقود هذا الصراع بين الحكم والفقهاء .

وجدت دعاوة الفقهاء ثمراتها عند العامة ، الذين صاروا يتندرون على الحكم وينادونه عند انقضاء الأذان ويصفقون : « الصلاة يا مخمور الصلاة » ولم يتردد الحكم فى البطش بكل من وقع فى يديه منهم .

فى سنة ٢٠٢/ ٨١٨ جرى احتكاك بين العام وبين أحد مماليك الأمير ، ترتب عليه أن ثار أهل الربض (أى الضاحية الجنوبية من قرطبة) ، ثم تابعته سائر الأرباض ، وانحاز الحكم وجنوده إلى قصره ، فحاصره العامة وكادوا يفتكون به ، لكنه وطن نفسه على الموت أو الظفر بهم ، وأمر ابن عمه عبيد الله البلنسى وحاجبه عبد الكريم بن مغيث ، فثلما فى السور ثلمةً ، واخترقا مع قطيع من الجند جموع الثوار ، وأضرما النار فى بيوتهم ، فدب الذعر فى صفوفهم ، وانقلبوا إلى دورهم ، وأحدق الجنود بهم من كل ناحية ، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة وأسروا عدداً كبيراً .

بعد سحق الثورة أمر الحكم ، فصلب ثلثمائة من وجوههم ، واستمر

النهب فى الربض الجنوبى والتحريق ثلاثة أيام ، ثم أشار البعض على الأمير بالعفو عنهم ، فقبل على أن يخرجوا من قرطبة ، فخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأمر الحكم بهدم الربض ، فصار مزرعةً ولم يعمر أبداً فى مدة بنى أمية .

تفرق أهل الربض فى أقطار الأندلس خصوصاً طليطلة ، كما تفرقوا أيضاً خارج الأندلس خصوصاً المغرب فلحقوا بفاس ، وكان المولى إدريس بن إدريس بسبيل تأسيسها فسكنوا عدوة الأندلسين .

على أن أهم طوائف الأندلسيين المهاجرين كانت تلك الطائفة التى ارتحلت إلى الإسكندرية ، وكانت مصر إذ ذاك فريسةً للحرب الأهلية بين الأجناد العرب ، فانتهز الأندلسيون الفرصة ، واستولوا على الثغر ، وأسسوا ما يشبه جمهورية هناك ، واستمرت حالهم هكذا ، إلى أن قدم عبد الله بن طاهر ابن الحسين ـ قائد الخليفة المأمون ـ فى سنة ٢١٠/ ٨٢٥ فأخمد الفتنة ، وحاصر الإسكندرية فى سنة ٢١٢/ ٨٢٧، واضطر الأندلسيون إلى طلب الأمان، فأجابهم على أن يغادروا المدينة ، فغادروها ـ بعد أن تلكئوا حيناً ـ إلى إقريطش (كريت) ، فملكوها ، وبقوا بها حتى سنة ٣٥٠/ ٩٦١ ، فعادت مرة ثانية إلى الروم .

لم يمتد العمر بالحكم (الربضى) طويلاً بعد الهيج ، فقد مات فى سنة ٢٠٦/ ٨٢٢ ، ليخلفه ولده عبد الرحمن الذى عرف فيما بعد بالأوسط .

يعد عهد عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦/ ٨٢٢ ـ ٢٣٨/ ٨٥٢ أزهى عهود الإمارة الأموية ودعى « بأيام العروس » ومع أن الفتن لمن تنقطع فى ذلك العهد، إلا أن عبد الرحمن استطاع بحسن سياسته أن يخمدها الواحدة تلو الأخرى ، وعليه فقد نجح فى إنهاء الفتنة التى وقعت بين القيسية واليمنية فى

تدمير ، ودامت عدة سنوات ، كما استطاع أن يرد طليطلة وماردة إلى الطاعة، ونجح قواده فى صوائفهم التى توجهت ضد الفرنجة ، فمنعتهم من اجتياز حدود الثغر القوطى ، وهزمتهم عند بنبلونة فى سنة ٢٠٩/ ٨٢٤ ، وتوجهت حملات تأديبية إلى الجلالقة ، قادها عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث .

على أن أهم الأحداث السياسية فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، هو الغزوة التى قام بها الڤايكنج لغربى الأندلس .

اجتاح الڤايكنج (النورمان أى الشماليون) أقطار أوربا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وكانت الأندلس من جملة هذه الأقطار .

أطلق المسلمون على هؤلاء الغزاة اسم المجوس وأحيانًا الأردمانيين . وظهروا لأول مرة فى الأندلس فى سنة ٢٢٩/ ٨٤٣ ، حين أتوافى ثمانين مركبًا ، ورسوا فى مياه أُشْبونة Lisboa ، ثم انتقلوا منها إلى قادس Cádis فشذونه ، واخترقوا نهر الوادى الكبير إلى إشبيليه فاستولوا عليها ، وأمعنوا فى أهلها سفكًا ونهبًا .

عندما ترامت هذه الأنباء إلى الأمير ، أرسل جيشًا بقيادة نصر الخصى ، التقى بهؤلاء لدى طليطلة قرب إشبيلية ، وهزمهم وأرغمهم على الارتداد بسفنهم إلى أُشبونة ، ثم لحقوا ببلادهم ، وقد أغدق الأمير على قائده نصر ، لنجاحه فى تحقيق أهداف الدولة .

كانت هذه الغزوة دافعًا لعبد الرحمن ، من أجل أن يوجه عنايته لبناء أسطول قوى ، فأنشأ دورًا لصناعة السفن فى عدة مرات مرافئ أندلسية ، ولم تمض سنوات حتى صار للأندلس أسطولان قويان ، أسطول أطلسى مركزه أشبونة وأسطول متوسطى مركزه ألمريّة Almería .

أضحت للأندلس مكانة دولية مرموقة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، ونشأت علاقات دبلوماسية مع أقطار أخرى خارجها ، فأرسل ثيوفيل Theophi-lus ملك الروم (٨٢٩ ـ ٨٤٢م) سفارةً إلى الأمير فى سنة ٢٢٥/ ٨٤٠ ، وسأله الحلف ضد العباسيين عدوهما المشترك ، كما سأله العون ضد المسلمين فى إقريطش وصقلية . ومع أن إجابة عبد الرحمن التى حملها الشاعر الغزال كانت فى مجملها وديةً ، إلا أن لم يستجب لطلب ملك الروم فى حربه ضد إخوانه المسلمين ، بل إنه وصفهم فى رسالته ، بأنهم مجاهدون فى سبيل الله .

كذلك أوفد عبد الرحمن الغزال فى سفارة أخرى إلى ملك المجوس ببلاد الدنمارك فى سنة ٢٣٢/ ٨٤٦ ، حيث لقى حفاوةً من الملك والملكة ، وتردد صدى ذلك فى أشعاره .

فى عهد عبد الرحمن أيضًا استقرت قواعد الدولة الأندلسية فكان لكل نشاط من أنشطة هذه الدولة خُطَّة (تقابل الوزارة الآن) ، ويرأس الجميع الحاجب (يقابل رئيس الوزراء الآن) ، ويجتمع بسائر الوزراء فى دار خاصة ، دعيت ببيت الوزارة ، حيث يجلسون بترتيب معين ، لكل واحد وسادة ، وعندما يقال الوزير ترفع وسادته من هذا البيت ، وجرت العادة على أن يختص الموالى بمناصب الوزارة ، وإن شاركهم العرب أحيانًا ، وكان لعنصر الوراثة هنا أثره فى المحافظة على تقاليد عريقة فى الحكم وفى تحقيق الاستقرار .

إلى جانب الوزراء كان هناك القضاة ، وكبيرهم يدعى بقاضى الجماعة ، ومستقره قرطبة ، وهو الذى يعين قضاة المدن الأخرى ، وكانت له مكانة كبيرة عند الأمير .

كما نشأت بين الفقهاء خطة المَشْوَرة ، وهى هيئة مرجعية ، يستند إليها الأمير ، إذا أهمه أمر ما ، وصار فى حاجة إلى رأى الشرع بخصوصه ، وأشهر

من ولى هذه الخطة فى عصر الإمارة هو يحيى بن يحيى من زعماء الربض ، ثم حظى عند عبد الرحمن الأوسط ، ولم يكن أحد يلى القضاء إلا برضاه .

قام عبد الرحمن بحركة عمرانية كبيرة ، فجدد جامع قرطبة ، وكان جده الداخل قد شرع فى بنائه مكان كنيسة قوطية قديمة ، لكنه مات قبل إتمامه ، فكان ذلك من نصيب ولده هشام ، فلما ولى الأوسط زاد فى الجامع بهوين جديدين ورفع سقفه ، بأن بنى فوق الأعمدة أعمدة أخرى وأقواسًا ، وزرع فى الصحن المكشوف أشجار النارنج ، فدعى بصحن النارنج ، وقد خضع الجامع لزيادات أخرى فى عصور تالية .

وبرزت فى عهد عبد الرحمن الأوسط شخصيات كبيرة فى مجالات متعددة، نذكر منها زرياب المغنى والموسيقى (ت ٢٣٨/ ٨٥٢) والغزال الشاعر (ت ٢٥٠/ ٨٦٤) وعباس بن فرناس العالم والأديب (ت ٢٧٤/ ٨٨٧) .

3 - شهداء قرطبة :

فى أواخر عهد عبد الرحمن الأوسط وأوائل عهد ولده محمد ، جرت فى مدينة قرطبة حركة ، عرفت عند الكتاب الفرنج « بحركة الشهداء » وقد أفرد لها سيمونيت Simonet قسماً كبيراً من كتابه « تاريخ المستعربين » أما المصادر العربية المتاحة فقد خلت منها على وجه التقريب .

على أننا ــ مع ذلك ــ لا نستطيع أن نجزم بأن المؤرخين المسلمين لم يذكروا شيئًا عن هذه الحادثة ، ومن الجائز أنهم ذكروها ، ولكنها لم تصل إلينا .

ونستطيع أن نقرر إن (حادثة الشهداء) ، لم تكن ذات خطر كبير ، كما

ذهبت المصادر النصرانية ـ ، بل اعتبرها الأندلسيون حادثةً عارضةً ، ومن ثم أغفلوها ، وعلى ذلك سنتحرى (الحقائق) عن (شهداء قرطبة) من المصادر النصرانية وحدها .

تقول الرواية النصرانية إن المسلمين عاملوا النصارى بقدر من التسامح فى البداية ، لكنهم بعد أن شعروا بقوتهم غيروا هذه السياسة ، وصار الاستبداد الإسلامى شديد الوطأة على ضمائر النصارى وأموالهم وكرامتهم ، وكان يتصاعد مع انتصار يحرزه نصارى الشمال ، أو ثورة يشعلها نصارى طليطلة .

وكان عامة الشعب من المسلمين يعايرون النصارى ويشتمونهم ، وعندما يشاهدون قسًا فى الطريق يهزأون به ، أو يؤدون أغنية تسخر بالصليب ، أو يقذفه الصبية بالحجارة ، ويمطرونه بالأقذار ، ولدى مرور جنازة لأحد النصارى يعلق السابلة : « عسى الله ألا يريه رحمة » ، وعندما تدق أجراس الكنائس يهزون رءوسهم ، ويتحسرون على النصارى الحمقى الذين يخدعهم قساوستهم .

لم يكن النصارى ـ وحدهم ـ الذين يتعرضون للمعاناة ، فهناك أيضًا المولدون الذين عرف إيولخيو بعضهم « بالنصارى السريين » Christiani Occulti وهم الذين أسلم أسلافهم هربًا من دفع الجزية ، أو خوفًا من عقاب قاض نصرانى . وكان المولدون ـ بوجه عام ـ يعيشون أوضاعًا سيئة ، فالعرب ينظرون إليهم بعين الشك ، ولا يسندون إليهم وظائف كبيرة ، وكثيراً ما يدعونهم بالعبيد ، رغمًا عن إنتماء بعضهم إلى أصول عريقة .

لما اشتد عسف المسلمين بنصارى قرطبة ، عمدوا إلى نضالهم خارجها وخاصة فى المدن البعيدة ، أما فى العاصمة ، فإنهم لم يجدوا وسيلةً سوى (الاستشهاد) ، وكان رائدهم فى هذا الصدد القساوسة أنفسهم .

شاعت عند رجال الدين أفكار زائفة عن الإسلام ، كما ذاعت بينهم أفكار أخرى عن أسلاف لهم هلكوا على أيدى الوثنيين ، وصاروا يرجون أن يقوموا

بعمل مجيد مثلهم .

في أوائل القرن التاسع الميلادى ، ظهر أول المحرضين على (الاستشهاد) ، ودعى فى الكتابات الكنسية باسبيرا ـ إن ـ ديو Spera - en - Deo أى « الآمل فى الله » ، ويعد الأب الروحى (لشهداء قرطبة) ، وكان يقيم فى دير شويلش Sanctus Zoilus قرب العاصمة .

كان لاسبيرا ـ إن ـ ديو تلميذان ، أحدهما قسيس هو إيولوخيو Eulogio والآخر علمانى هو ألبرو Alvaro ، وقد انحدر إيولوخيو من عائلة نبيلة ، كان أفرادها معروفين بكراهتهم للإسلام وتعصبهم للنصرانية ، وزاد من هذا التعصب عند إيولوخيو ميله إلى العزلة ، فترهب فى سن باكرة ، وصار كاهنًا لكنيسة القديس شويلش . أما ألبرو فهو شاب ثرى ، تعرف إلى إيولوخيو بمجلس أستاذه ، وتأثر بأفكار الأستاذ والتلميذ معًا ، ووصلت إلينا عدة من كتبه ورسائله ، منها ترجمته لحياة ايولوخيو Vita Eulogii ، وهى مصدر أساسى لمعلوماتنا عن (حركة الشهداء) .

فى الفترة بين سنتى ٨٥٠ ـ ٨٦١ ، صار عدد من النصارى يتحرشون بالمسلمين فى الأماكن العامة وفى المساجد ، ويتعرضون بالسوء إلى دينهم ونبيهم ﷺ ، ويسعون إلى فتنة بعضهم ، خصوصاً من ينتمى منهم إلى المولدين .

أثارت هذه الأحداث استياء غالبية النصارى الذين قالوا : « إن السلطان يسمح لنا بمزاولة شعائر ديننا ولا يضطهدنا ، فلماذا أذن هذا المسعى التعصبى ؟ إن هؤلاء الذين تدعونهم (شهداءً) ليسوا كذلك ، إنما هم انتحاريون يحفزهم الزهو ، وهو أصل الخطايا كلها ، وإذا هم طالعوا الإنجيل يجدون فيه : « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم » .

لما انتشرت هذه الأفكار بين النصارى ، وكادت تحدث أثرها ، انبرى

ايولوخيو للرد عليها فى كتاب دعاه « ذكريات مقدسة » -Memoriale Sanc torum ، فدافع عن الشهداء ، وتعرض للمضايقات التى صادفها النصارى والقساوسة منهم ، واقتبس من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ما يؤكد أن الاستشهاد عمل من أعمال التقوى ، يستحق التقدير والثناء .

تمادى هؤلاء النصارى فى غيهم ، مما دفع الدولة إلى تحذيرهم وتعزيرهم وأخيراً حدهم ، لنقضهم عهدهم ، ثم أمرت بعقد مجمع كنسى ، رأسه ريكافريدو Recafredo مطران إشبيلية ، ومثلها فى المجمع قومس بن أنتنيان عامل الخراج . وفى هذا المجمع بسط قومس الموقف ، وحدد النتائج التى يمكن أن تحدث للذين يسيئون إلى الإسلام ، وأنهم يستحقون الحرمان لا التقديس ، لأنهم يعرضون إخوانهم النصارى لخطر الاضطهاد ، ودعا الأساقفة إلى إصدار قرار يشجب سلوك هؤلاء (الشهداء) . واتخذ المجمع حلاً وسطاً يرضى الطرفين، فاعترف بمن قتلوا شهداءً ، لكنه فى الوقت نفسه قرر إدانة من يقدم على (الاستشهاد) مستقبلاً ، ودعا إلى حبس المحرضين من القساوسة .

بعد أيام قليلة من انفضاض المجمع توفى عبد الرحمن الأوسط ، ويزعم إيولوخيو أن أجله وافاه ، بينما كان جالسًا فى شرفة قصره ، يشاهد النصارى الذين علقت جثثهم فى المكان الذى عرف فيما بعد بحديقة الشهداء El Jardín de los Mártires .

لما ولى الأمير محمد أمر باقصاء النصارى من وظائف الدولة ، كما أمر بهدم الكنائس المستحدثة ، ويزعم إيولوخيو أيضاً أنه أمر بقتل رعاياه النصارى ، وهتك أعراض نسائهم وبناتهم ، لكن وزراءه نصحوه بالعدول عن ذلك .

استمرت الحال كما هى عليه عدة سنوات فى عهد الأمير محمد ، إلى أن أعدم إيولوخيو ثم ألبرو ، وهدأت فتنة (الشهداء) .

إذا أنعمنا النظر فى الرواية النصرانية عن حادثة (الشهداء) يتضح لدينا :

١ - المرجعية فى هذه الرواية هى إلى إيولوخيو وألبرو ، وهما - معًا - طرف فى قضية له مصلحة ، والحذر فى التعامل مع أحد أطراف القضية واجب لا محيص عنه .

٢ - الوقائع المنوه إليها ، إما إنها مرسلة غير محددة ، تخضع لوجهات نظر ، أو إنها محددة ، وفى هذه الحال ، يكون موقف المسلمين تجاهها رد فعل على موقف هؤلاء النصارى تجاههم .

٣ - فقد جاهر هؤلاء النصارى بالإساءة إلى الإسلام ونبيه الكريم ، وفتنوا بعض المسلمين عن دينهم .

٤ - وقادهم فى ذلك عدد من رجال دينهم ، اتخذوا من الأديرة مراكز للحض على (الاستشهاد) .

٥ - وتوخت الدولة المرونة فى تعاملها مع هؤلاء (الشهداء) ، وتلمس قضاتها الأعذار فى تطبيقهم الحدود .

٦ - وبذلت الدولة - من جانبها - جهدها لحسم الفتنة ، فعقدت لذلك مجمعًا اتخذ قراره دون تدخل منها ، واتسم هذا القرار بالاعتدال .

٧ - وأوضحنا فى فصل سابق أن النصارى كانوا يعيشون حياةً طيبةً فى إطار الجماعة الإسلامية بالأندلس .

أما عن الدافع لإشعال الفتنة ، فنستطيع أن نرجعه إلى ضيق بعض القساوسة من اتساع نطاق الإسلام ، وإقبال كثير من أبناء جلدتهم إليه ، مما حفزهم إلى (الاستشهاد) والتحريض عليه ، من أجل إثارة الحماسة للنصرانية بين أبنائها .

واتجه هؤلاء القساوسة فى دعاواتهم إلى الشباب ، ومن يتحدر من آباء مسلمين وأمهات نصرانيات ، واستخدموا معهم أسلوب الإيحاء ، والمعروف أن النساء وصغار السن من الجنسين أكثر قابلية للإيحاء من غيرهم ، وهذا يفسر أن كثيراً من الشهداء كانوا من الفتيان والفتيات .

لم يكن الإقبال على الإسلام وحده سبباً فى تذمر هؤلاء القساوسة ، وإنما ساءهم كذلك ، تسرب بعض الأفكار التى تتصل ببشرية المسيح عليه السلام إلى أصول عقيدتهم .

وتصل بحركة (الاستشهاد) موقف فريق من المولدين الذين اسرُّوا النصرانية ، أو أعلنوها فيما بعد ، على أن غالبية المولدين أسلموا عن عقيدة خالصة وإيمان عميق ، وقد عاصر ابن حزم بعضهم وقال عنهم : « إننا قد شاهدنا من النصارى واليهود طوائف لا يحصى عددهم أسلموا وحسن إسلامهم » .

وعلى ذكر ابن حزم فهو كما يذكر معاصره ابن حيان (ت ٤٦٩/ ١٠٧٦) كان من أصل نصرانى ، وله مع ذلك مكانة كبيرة بين فقهاء المسلمين وعلمائهم .

مجمل القول إن فتنة (الشهداء) كانت حادثاً عابراً فى تاريخ الأندلس ومن ثم أغفلتها المصادر العربية ـ ربما ـ وسارت الأمور سيرها الطبيعى بعد انتهائها ، واستمرت الدولة فى سياستها التى تنطوى على التسامح مع رعاياها النصارى ، وسمحت لهم ، بأن يحتفلوا بأعياد شهدائهم ، وبينهم عدد من (شهداء قرطبة) .

4 - الفتنة الكبرى وعمر بن حفصون(*):

لم يكن قد مضى عشرون عامًا على إخماد فتنة (الشهداء) بقرطبة ، حتى ضجت بلاد الأندلس جميعها بثورة ، دعيت بالفتنة الكبرى ، استغرقت نحو ستين سنةً من جهد الدولة ، وشاركت فيها عناصر المجتمع الأندلسى جميعها ، واتسع مداها ، حتى شملت البلاد جميعها ، وأضحى سلطان الدولة لا يتعدى فى أحيان كثيرة أسوار الحضرة ، وأتيحت الفرصة لممالك الشمال النصرانية ، لأن تتوسع على حساب المسلمين .

ومما تجدر ملاحظته أن غالب المؤرخين الأندلسيين ، لم يمدونا بمعلومات وافية عن أسباب هذه الثورة على إننا نستطيع أن نقف من النصوص التى وردت فى بعض المصادر على هذه الأسباب .

شهدت بلاد الأندلس خلال القرن الثالث الهجرى ، وخاصةً فى عهد الأمير محمد (٢٣٨/ ٨٥٢ - ٢٧٣/ ٨٨٦) سنوات متتاليةً ، سادها القحط واضطراب عناصر الطبيعة ، مما ترتب عليه هلاك كثير من الناس أو هجرتهم من البلاد .

كانت سياسة الدولة تجاه هذه الأزمات لا تنم عن الحرص على معالجتها وتخفيف وطأتها ، وكان لهذه السياسة تأثير بالغ على المولدين والنصارى المعاهدين ، لأنهم كانوا كثرة عناصر المجتمع المنتجين . ولم تقف الدولة عند هذا الحد ، فقد واصلت جباية العشور وغيرها من أموال ، واستخدمت وسائل عنيفة فى هذا المجال .

(*) لم يطلق على هذه الفتنة فى مصادرنا تعبير محدد ، واقتبسنا هذا التعبير من محمد عبد الله عنان فى كتابه « دولة الإسلام فى الأندلس » .

على أن أكبر من أساء إلى صورة الدولة إزاء أهـل البلاد ، هو هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد الأثير ، وتتفق النصوص فى حملتها عليه ، وتذهب إلى سوء سيرته فى غير موضع .

زاد الأمر سوءاً موقف القبائل العربية من الأجناد ، وخاصة أهل إلبيرة ، وكثرتهم شامية قيسية ، فقد تذمر هؤلاء لانصراف الدولة عنهم إلى غيرهم من أجناد مرتزقة وصقالبة ، وفى الوقت نفسه لم يعد ثمة مبرر ، لأن يحصل هؤلاء من أهل البلاد على ثلث أموالهم ، خاصة بعد أن انتشر الإسلام بينهم ، وهكذا دخل العرب فى صراع ضد الدولة ، وضد المولدين والمستعربين جميعاً .

من بين هذه الأسباب موقف الفريق الناقم من النصارى المعاهدين الذين أشعلوا فتنة (الشهداء) بقرطبة ، فقد كانوا يتحينون الفرصة ، لإثارة الصعاب ضد الدولة ، والاشتراك فى الحركات المناهضة لها .

كذلك لم يتوان ملوك النصارى فى إعانة الثوار الخارجين على الدولة الإسلامية بالأندلس ، خصوصًا فى مناطق الثغور ، بل ارتبطوا مع بعضهم بصلات المصاهرة وأفادوا من هذا كله ، فاتسعت حدود دولهم ، الأمر الذى دفع أحدهم لأن يتسمى ـ فيما يذهبون ـ بالكبير El Magno ويتخذ لنفسه لقب الإمبراطور .

تلك هى الأسباب الحقيقية التى أدت إلى الفتنة الكبرى ، ولا نغفل دور البيئة ، فالبيئة الأندلسية ، بما فيها من بنية أرض تناسب الحروب الصغيرة ، وما فيها من جبال شاهقة وهضاب ووهاد ، وانقطاع بعض أقاليمها ، واكتفائها بنفسها لآماد طويلة ، فضلاً عن حصانة المدن ووفرة القلاع ، وما طبع عليه الناس نتيجةً لذلك ، من صلابة وصبر وعناد ... كان هذا كله من الأسباب المشجعة على قيام الفتنة ، واستطالتها سنوات طويلة .

نركز هنا فى حديثنا على كبير الثوار بالأندلس ... عمر بن حفصون .

لقيت ثورة ابن حفصون اهتمامًا خاصًا من المؤرخين الفرنج ، وعدها بعضهم ثورة دينيةً وطنيةً ضد غزاة عملوا على استعباد الشعب الإسبانى ، وهو ادعاء يجانبه الصواب ، لأن هذه الثورة نشأت عن أسباب طارئة ، لا تعود فى أصولها إلى السيادة الإسلامية ، وكانت شخصية ابن حفصون عنصراً أساسياً فى إضرامها ، وحددت وفاته بداية النهاية لها .

ينتمى عمر بن حفصون إلى أسرة من أصل قوطى ، أسلم أحد أجداده ، فدانت ذريته بالإسلام ، لكنهم كانوا يسرُّون النصرانية .

تذكر الرواية العربية أن عمر نشأ سيء الخلق ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، فأقام بتاهرت فترةً ، وعاد إلى الأندلس فى سنة ٢٦٧/ ٨٨٠ ـ ٨٨١ .

كانت كورة رية Rejio تضطرم إذذاك بالثورة ضد الدولة ، فقد تعسف عاملها فى مطالبة أهلها ببقايا الخراج ، فانتهز عمر الفرصة واستمالهم إليه ، وارتحل ببعضهم إلى جبل بُبَشْتَر Bobastro ، واستقر بحصن رومانى قديم ، يقع على مقربة من السهل الكبير الذى يمتد حتى مدينة قرطبة .

لما فشل عمال الدولة فى مواجهة ابن حفصون ، توجه إليه الوزير هاشم بن عبد العزيز فى سنة ٢٧٠/ ٨٨٣ ونجح فى إنزاله من الحصن ، وقدم به إلى قرطبة ، وعفا الأمير محمد عنه ، لما رأى من شجاعته وألحقه بجيشه ، وأرسله مع ولده المنذر فى بعض حروبه ، وبعد عودة عمر إلى الحضرة ، عومل معاملةً سيئةً من صاحب المدينة ، فغادرها سراً إلى ببشتر وعاود العصيان .

فى سنة ٢٧٣/ ٨٨٦ مات الأمير محمد وولى ولده المنذر ، وفى عهده الذى دام سنتين بسط عمر بن حفصون سيطرته على كورة رية كلها ، وأثار فى

الأهلين من نصارى ومولدين روح العصبية ضد العرب ، فخرج إليه المنذر فى سنة ٢٧٤ / ٨٨٧ وحاصره ، إلا إنه مرض إبان الحصار ومات ، وخلفه أخوه عبد الله الذى انتقل إلى قرطبة مصطحبًا جثمان المنذر .

يرتبط عهد الأمير عبد الله بازدياد خطر الفتنة ، فقد عم الانتقاض بلاد الأندلس ، حتى إن سلطان الدولة ، لم يكن ليجاوز قرطبة وأحوازها . وقد وجه عبد الله معظم جهوده إلى إخماد حركة ابن حفصون ، لأنه لم يكتف بكورة رية وما جاورها ، إنما كان هدفه أن يدخل قرطبة ، ويقضى على دولة بنى مروان ، ومن أجل ذلك ضم إلى جانبه عامة الثوار المولدين فى كوررية وإلبيرة وجيان Jáen ، واتصل بنصارى قرطبة وأتاه ولد قومسها شربند Servando بن حجاج ، واستعان به فى العيث بأرباض المدينة .

وبلغ من خطورة ابن حفصون أنه سعى للاتصال بالخلافة العباسية عن طريق إبراهيم بن أحمد الأغلبى أمير إفريقية ، رغبةً منه فى أن يضفى طابعًا من الشرعية على ثورته ، بيد أن اضطراب الأمور بإفريقية شغل الأغالبة عن تلبية رغبة ابن حفصون .

أما عن الأمير عبد الله فقد سعى للتودد إلى أهل قرطبة ونواحيها ، فأسقط بعض الضرائب عنها ، كما عمل على تحسين حال الفقراء والعامة ، وأظهر ميله إلى العرب ، وأقر سعيد بن جودى السعدى على كورة إلبيرة ، وقمع ثورة المولدين بإشبيلية ، وخلصت المدينة لإبراهيم بن حجاج وهو من العرب البلديين .

فى السنوات الثلاث الأولى لولاية الأمير عبد الله ، دارت بينه وبين عمر ابن حفصون عدة مناوشات ، تبادل الإثنان خلالها مدينة استجة الهامة ، التى تعد مفتاح العاصمة ، وجعل الأمير معسكره فى شقندة جنوبى قرطبة ،

واستطاع أصحاب ابن حفصون أن يصلوا إليها ، ويحرقوا خيمة الأمير بها . ويعلق دوزى على ذلك بأنه كان من المكن أن تسقط قرطبة فى أيدى الثوار ، لأن النصارى لم يكونوا قد نسوا بعد شهداءهم الذين فقدوهم قبل أربعين سنة .

وقعت المعركة الأساسية عند حصن بلاى Polei فى ٢ من صفر ٢٧٨/ ١٦ من يونيو ٨٩٠ وكان أحمد بن محمد بن أبى عبده يقود جيش الدولة الذى بلغ عدده ثمانية ألفاً ، بينما كان مع ابن حفصون ثلاثون ألفاً ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الثائر ، وتراجعه إلى حصن بلاى ، ولكنه وجد معظم أصحابه قد انفضوا عنه ، ففارق الحصن وانسحب جنوباً ، وطارده الأمير عبد الله إلى معقله فى ببشتر ، ثم عاد إلى قرطبة .

تجلى الطابع الدينى لثورة عمر بن حفصون فى معركة بلاى ، فكان معه قسيسون يحرضون جنوده ، كما كان مع الأمير فريق من الفقهاء الأجلاء ، ومع ما كان لمعركة بلاى من أثر طيب فى نفوس المسلمين ، إلا أنها لم تمنع الثائر من المعاندة عدة سنوات ، وواصل المسلمون توجيه صوائفهم إليه ، وظل الفريقان بتجاربان دون نتيجة حاسمة .

فى سنة ٢٨٦/ ٨٩٩ طرأ تطور خطير على الصراع بين الحكومة الإسلامية وعمر بن حفصون إذ إنه أظهر النصرانية ، ولم يلبث أن اتصل بملك ليون فى الشمال ، كما اتصل بإبراهيم بن حجاج الثائر بإشبيلية .

كان إبراهيم بن حجاج قد استطاع أن يستقل بإشبيلية ، وساءت علاقته بالأمير عبد الله ، لأنه رفض أن يطلق ولده الذى أخذه رهينةً عنده ، كما إن ابن حفصون وجد فى التحالف مع ابن حجاج سبيلاً ، لأن يعيد ثقة المسلمين به ، غير أن الهزيمة التى حلت بالحليفين فى العام التالى ، وإطلاق الأمير ولد ابن حجاج أنهيا هذا التحالف .

فى بداية عهد عبد الرحمن الناصر بدأ ابن حفصون يتصل بالفاطميين فى المغرب الأقصى ، فصارت سفنهم تبحر من العدوة إليه بالزاد والسلاح ، الأمر الذى دفع الناصر إلى الترصد لها ، وأحرق عدداً منها ، كما شحن مراكبه بالأسلحة والعدد والنفط ، وجعلها تتجول قرب الساحل ، لمراقبة ما يأتى من البر الآخر .

قاد عبد الرحمن فى أعقاب ولايته فى سنة ٣٠٠/ ٩١٢ عدة حملات ضد عمر بن حفصون ، واستخلص بعض حصونه فى كورتى إلبيرة ورية ، كما التقى به قرب طُرُّش Torrox وأنزل به الهزيمة .

نتيجةً للضربات العديدة التى وجهتها الدولة لعمر بن حفصون ، فإنه جنح إلى السلم فى سنة ٣٠٣/ ٩١٦ ، وأرسل إلى الناصر يتودد إليه ، وتدخل فى الوساطة بعض أصدقائه بقرطبة ، وتم عقد الصلح ، وبلغ عدد الحصون التى دخلت فى أمان ابن حفصون مائة واثنين وستين حصناً .

هيأت فرصة السلم لعبد الرحمن الناصر أن يعاود توجيه الغزوات إلى نصارى الشمال كما أخمد حركات بعض الثوار فى أنحاء متفرقة من الأندلس ، وفى هذه الأثناء كان المرض قد اشتد بعمر بن حفصون ، فصار يختلى بنفسه فى كنيسة ببشتر للتعبد ، ومات فى سنة ٣٠٥/ ٩١٨ ، ودفن تبعًا لطقوس أجداده .

خلف عمر بن حفصون فى معقله ببشتر ولده جعفر ، وتذهب بعض الروايات إلى أنه كان يسر الإسلام ، وعلى هذا تآمر عليه أصحابه فى سنة ٣٠٨/ ٩٢٠ وقتلوه ، وجعلوا مكانه أخاه سليمان .

نقض سليمان صلح أبيه مع الناصر ، فأرسل الأمير حملةً إليه فى سنة ٣١٤/ ٩٢٦ ، استطاعت أن تظفر به خارج بيشتر وقتل ، وجرى صلبه على

خشبة عالية بباب القصر فى قرطبة .

خلف حفص بن عمر بن حفصون أخاه سليمان ، وتابعه فى عصيانه فسار إليه الناصر فى سنة ٣١٥/ ٩٢٧ ، وشدد الحصار على بيشتر ، وبنى حصناً مقابلها ، ثم عاد إلى قرطبة .

ضاق الحصار على حفص ، فكتب إلى الناصر يستأمنه ، على أن يخرج من الجبل ، فوافق الأمير ، واقحم المسلمون ببشتر فى ٢٣ من ذى القعدة ٣١٥/ ١٧ من يناير ٩٢٨ ولما قدم حفص إلى قرطبة صفح عنه الناصر ، وصيره فى حاشيته ، ثم أرسل كتاباً إلى أقطار الأندلس بالفتح ، أمر بقراءته فى الجوامع .

فى المحرم من سنة ٣١٦/ مارس ٩٢٨ زار الخليفة عبد الرحمن الناصر وبصحبته ولده الحكم ببشتر ، وعمل على إزالة آثار الثورة بها ، ودخل مسجدها المهجور فصلى فيه ، وأتى بعظام عمر بن حفصون ، لترفع مع أشلاء ولده سليمان بقرطبة .

وكان لعمر بن حفصون ابنة تدعى أرخنتيا Argéntea ترهبت فى حياة أبيها ، وأقامت فى دير أنشأته داخل ببشتر ، وتاقت نفسها إلى الاستشهاد فاستفزت السلطات ، وفعلت ما سبق أن فعله (شهداء قرطبة) وأعدمت فى سنة ٩٣١م ورسمها النصارى قديسةً .

الفصل الحادى عشر
عصر الخلافة الأموية

١ - الناصر والمستنصر :

ولى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإمارة ، بعد وفاة جده الأمير عبد الله فى سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م ، وبولايته بدأ عصر جديد ، بلغت الأندلس خلاله ذروة مجدها ، وقد استمر هذا العصر ، حتى نهاية القرن الرابع الهجرى .

لدى ولاية عبد الرحمن ، كانت البلاد ما تزال تعيش الفتنة الكبرى التى عمتها جميعها ، وكان على عبد الرحمن أن يضع حداً لها ، وكانت سياسته تجاه زعمائها تتسم بأقصى درجات العنف ، حتى يهلك الثائر ، أو يقر بطاعته ، فيبقيه الناصر حيث هو ، على أن يأخذ رهائنه ، وقد يكونوا بعض ولده ، وأحياناً كان يؤمنه ويستنزله من حصونه ، فيأتى إلى قرطبة ويكرمه ، وقد يصير فى قواده وكبار رجاله .

هكذا نجح الناصر فى أن يقضى على الثورة فى أرجاء الأندلس ، ودخلت جيوشه ببشتر فى سنة ٣١٥هـ، بَطَلْيَوْس Badajoz فى سنة ٣١٨ وطليطلة فى سنة ٣٢٠ هـ .

رغماً عن شغل الناصر فى سنوات حكمه الأولى بالفتنة الكبرى ، إلا أنه لم يغمض الطرف عن الأخطار التى كانت تتهدد بلاده من جهة الفاطميين فى المغرب جنوباً ، والممالك النصرانية فى إسبانيا شمالاً .

تطلع الفاطميون إلى أن يدخلوا المغرب الأقصى فى حوزتهم ، وكانوا يشعرون أنهم بسعيهم هذا لابد وأن يدخلوا فى صراع مع الأمويين بالأندلس ،

لأن الاستيلاء على المغرب الأقصى يعد تهديداً للوجود الأموى نفسه ، لذلك فكروا فى أن ينقلوا المعركة إلى شبه الجزيرة ، ولجئوا إلى تأييد الثوار الخارجين على بنى أمية ، وخاصةً عمر بن حفصون ، وصارت سفنهم تبحر من العدوة إليه، تحمل الميرة والذخيرة ، الأمر الذى دفع عبد الرحمن ، لأن يأمر بتعقب هذه السفن وإحراقها ، وأمر سفنه بالتجوال قرب السواحل لمراقبة العدوة المغربية .

لجأ الفاطميون إلى وسيلة أخرى ، هى أن يرسلوا بعض رجالهم إلى الأندلس ، من أجل الدعوة إلى مذهبهم ، ومن أجل التجسس على دولة خصومهم ، وكان هؤلاء الدعاة يتخفون فى هيئة التجار أو طلاب العلم ، وكان من بينهم فى مرحلة لاحقة الجغرافى الشهير ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) ، على أن هؤلاء الدعاة لم ينجحوا فى مهامهم ، ورد الأمويون على الفاطميين ، بأن أرسلو لهم بدورهم إلى بلاد المغرب جواسيس ، أعانهم فى مهامهم وجود جاليات أندلسية ، على طول الساحل المغربى ، تقيم منذ سنوات بعيدة ، وكانت على معرفة بأحوال البلاد .

تصاعد الموقف عندما أعلن عبد الرحمن نفسه خليفةً فى سنة ٣١٦/ ٩٢٩ ، وتسمى بالناصر لدين الله . وكان معنى إعلانه هذا ، أنه ينكر على الفاطميين إدعاءهم هذه الخلافة نفسها ، إذ لا يستقيم وجود أكثر من خلافة واحدة فى وقت واحد فى الفقه الإسلامى المعاصر .

أضحى لا مفر من الصدام المسلح ، وكان المغرب الأقصى هو الساحة التى شهدت هذا الصدام ، ومهد الناصر لذلك بأن عنى بأسطوله ، وابتنى دار صناعة فى الجزيرة الخضراء ، وابتنى كذلك استحكامات دفاعية لدى شواطئه .

عندما خرج موسى بن أبى العافية المكناسى على طاعة الفاطميين بفاس ، رحب الناصر بخروجه ، واستولى على مليلة فى سنة ٣١٤/ ٩٢٦ ، وسبتة فى

سنة ٣١٩/ ٩٣١ ، وبذا تحققت له سيادته على السواحل المغربية المواجهة لبلاده .

انصرف الناصر بعد ذلك إلى اصطناع القبائل البربرية المناوئة للفاطميين ، خاصةً زناتةً ، كما انصرف إلى اصطناع الأدارسة الذين كان الفاطميون قد طردوهم إلى حجر النسر بجبال الريف ، وبذا صار يخطب للناصر على المنابر من تاهرت إلى طنجة .

عندما ثار أبو يزيد فى الإباضية ، بعث الناصر إليه بأموال وأمداد ، فأقر بطاعته ودعا له ، وتبودلت السفارات بين الجانبين ، وظلت مساعدات الناصر ترد إلى هذا الثائر حتى قريب من نهاية ثورته فى سنة ٣٣٦/ ٩٤٧ .

فى سنة ٣٤٤/ ٩٥٥ رد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، بأن أرسل أسطوله من صقلية إلى ألمرية ، وهى القاعدة الأساسية للأسطول الأندلسى ، فدخلت السفن الميناء فجاءةً ، وأحرقت ما فيه من سفن .

فى المقابل أمر الناصر قائده غالب بن عبد الرحمن بالإبحار إلى المغرب فى العام التالى ، فعاثت سفنه بالسواحل المغربية وخرب عدةً من مرافئها .

بعد هذه الاشتباكات البحرية ، أرسل المعز قائده جوهر فى سنة ٣٤٧/ ٩٥٨ فى حملة برية إلى المغرب الأقصى ، ورغمًا عن النجاح الذى حققته هذه الحملة ، إلا إنها لم تنجح فى إزالة الأمويين من قواعدهم الساحلية ، ثم إن الزناتيين عاودوا مناوأة الفاطميين ، واستردوا ما سبق أن فقدوه من مواقع .

لم يغفل الناصر كذلك الخطر الذى كان يتهدد دولته ، من ناحية الممالك النصرانية فى إسبانيا .

فى أعقاب الفتح الإسلامى ، لاذت مجموعة صغيرة من القوط ، بالجبال

الوعرة فى أقصى الشمال ، وتركهم العرب على حالهم استصغاراً لشأنهم . على أن هذه المجموعة صارت نواةً لمملكة صغيرة هى أشتوريش (أو جليقية) ، ولم تلبث هذه المملكة ، أن اتسعت فى السنوات الأخيرة . المضطربة من عصر الولاة ، ومهدت الطريق لظهور ممالك أخرى وإمارات ، توجهت إليها صوائف المسلمين خلال عصر الإمارة ، واستطاعت هذه الصوائف أن تضع حداً لتوسعها، على أن هذه الممالك اشتد ساعدها فى السنوات الأخيرة المضطربة من عصر الإمارة ، وتقدمت تقدمًا واسعًا على حساب المسلمين ، بل إن أحد ملوكها اتخذ ـ فيما يقال ـ لقب الإمبراطور .

كانت الأقطار النصرانية فى إسبانيا فى عصر الناصر ، هى اشتوريش جليقية، قشتالة ، نَبَرّة Navarra ، قطالونية ، وكونتيات صغيرة لدى سفوح البرتات ، أهمها أرَغونة Aragón .

ومع أن اشتوريش وجليقية كانتا مملكةً واحدة ، إلا أن أوضاع كل منهما كانت تختلف عن الأخرى ، وفى أواخر القرن التاسع الميلادى ، صارت مملكة أشتوريش ـ جليقية تدعى بمملكة ليون León ، وذلك بعد امتداد هذه المملكة شرقًا وجنوبًا وضمها أراض جديدة .

صاحب هذا الامتداد إنشاء عدد من القلاع فى القسم الشمالى من الميسيتا الإسبانية المعروف باسم بروِدليا Bardulia ، وقد مهد ذلك لظهور إمارة قشتالة ، وهى بلاد القلاع ، التى كثيراً ما يتردد ذكرها ـ مضافًا إليها أَلَبَة Alavá ـ فى الحوليات الإسلامية . وكانت هذه الإمارة تنزع إلى الاستقلال ، وتحققت غايتها خلال القرن العاشر الميلادى ، وفيما بعد تزعمت قشتالة الممالك الإسبانية جميعها .

فى أوائل القرن التاسع بدأ ظهور إمارة نَبَرّة فى بلاد البشكنس وحاضرتها

بنبلونة ، وكانت إمارة ضعيفة الشأن صغيرة المساحة ، وفى القرن التالى أضحت المنافس الأساسى لليون ، خصوصاً بعد اتحادها مع كونتية أرغونة .

إلى جانب ليون ونبرة كان هناك الثغر الإسبانى فى منطقة قطالونية ، وكان هذا الثغر امتداداً للإمبراطورية الفرنجية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، ولكنه لدى تفكك هذه الإمبراطورية بعد وفاة مؤسسها تقاسمته تسع كونتيات أهمها برشلونة .

فى أول صدام بين المسلمين والنصارى استشهد القائد أحمد بن محمد ابن أبى عبده ، ومعه عدد كبير من المسلمين ، عند التقائه بقوات أُرْدُن الثانى Ordoño II ملك ليون (٩١٠- ٩٢٥م) قرب بلدة غُرماج San Estebán de Gormaz فى ربيع الأول ٣٠٥هـ/ ديسمبر ٩١٧م ، وعلقت رأسه على أسوار المدينة .

كان ابن أبى عبدة أكبر قواد الأندلس فى عصره ، وقام بالدور الأوفى فى مناهضة الثوار الخارجين على الدولة ، لذلك فإن عبد الرحمن سارع فى العام التالى ، وأرسل الحاجب بدر بن أحمد ليلتقى بأردن عند متونية Metonia ، ثم استعاد المسلمون حصن غرماج .

فى سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م قاد الناصر بنفسة حملةً كبيرةً إلى مملكتى ليون ونبرة ، وهزم الملكين مجتمعين فى خونكيرا Junquera ، ووقع فى يديه عدد كبير من الأسرى ، بينهم بعض الأساقفة ، ثم عاد فى سنة ٣١٢/ ٩٢٤ ، واقتحم بنبلونة عاصمة مملكة نبرة ، واضطر ملكها إلى مهادنته .

على أن رُذْمير الثانى Ramiro II ملك ليون ، (٩٣٠- ٩٥١م) عاود ما درج عليه سلفه أردن من عدوان ، فاستولى على حصن مجريط Madrid وهدد طليطلة ، فتجرد إليه الناصر فى جيش كبير ، التقى بجيشه وجيش نبرة

عند أسوار مدينة شَنْت مَنْكَش Simancas ، لكن المسلمين أصيبوا بهزيمة كبيرة فى هذه المعركة ، لأن الناصر قود نجدة الصقلبى ، مما أغضب الأجناد العرب ، وقعد بعضهم عن القتال ، وتراجع المسلمون عن أسوار المدينة ، ليتساقط عدد كبير منهم فى خندق ، كان النصارى قد حفروه ، ومن هنا فالمعركة تعرف أيضاً بمعركة الخندق Alhandega .

كان وقع الهزيمة شديداً على المسلمين ، وكاد الناصر يفقد حياته بسببها، واستعاد ملك ليون بعض الحصون التى كان المسلمون قد استولوا عليها قبل ذلك . لكن الهزيمة رغماً عن فداحتها لم تؤثر كثيراً فى المسلمين ، فعاودوا غزواتهم ، وجعل الناصر غالباً قائداً للثغر ، وجعل قاعدته مدينة سالم ، واستعاد غالب ما كان النصارى قد استولوا عليه ، وقام بعدة حملات وصل ببعضها إلى لُك فى قاصية جليقية ، بل إن القائد أحمد بن يعلى جاوز ذلك إلى ساحل المحيط ، واضطر رذمير إلى مصالحة المسلمين ، وتابعه خليفته أردن الثالث Ordoño III (٩٥١ـ ٩٥٦).

استطاع الناصر أن يؤمن جبهته الشمالية ، وسارعت القوى الكبيرة هناك إلى مصالحته ، وصار هؤلاء يلجئون إليه ، كى يفض النزاعات التى كانت تنشأ عندهم ، من ذلك أن شانجُه Sancho ولد رذمير الثانى (٩٥٦ - ٩٦٦م) طلب من الناصر أن يمده بجيش ، يعينه ضد أخيه أردن ، وطلب أيضاً أن يرسل إليه طبيباً ، ليعالجه من سمنته المفرطة ، فبعث الناصر بطبيبه اليهودى حسداى ابن شبروط الذى شفا شانجه من السمنة ، واتفق معه على أن يسلم الناصر عشرةً من حصونه الهامة ، فى مقابل المساعدة العسكرية ، على أن يتم توقيع الاتفاق فى قرطبة ، وبالفعل أتى شانجه ومعه جدته طوطة Teoda فى سنة ٣٤٧/ ٩٥٨ ، واستقبلهما الناصر فى قصره بالزهراء ، وسير بعد ذلك جيشاً إلى ليون أعاد شانجه إلى عرشه .

استطاع الناصر كذلك أن يفرض القانون والنظام فى دولته ، وتوخى الحزم فى تعامله مع وزرائه وقواده وولاته ، وكان يأخذ على معاصره أوتو Otto ملك ألمانيا (٩٣٦ - ٩٧٣م) تهاونه مع هؤلاء ، وقد أبدى هذه الملاحظات لسفير هذا الملك حين قدم إليه فى قرطبة .

إهتم الناصر كذلك بالحركة العمرانية ، فابتنى بسفح جبل العروس شمالى غربى قرطبة مدينة ملكية دعاها الزهراء ، نسبةً إلى إحدى نسائه ماتت عن مال كثير ، وأوصت سيدها أن ينفقه فى افتكاك أسرى المسلمين ، فلم يجد الناصر أسرى يفتديهم بهذا المال . وقد بدأ إنشاء هذه المدينة فى سنة ٣٢٥/ ٩٣٦، وعهد بالإشراف عليها لولده الحكم ، وقد بنيت على درجات ، بكل درجة قسم من أقسامها ، وأعلى الدرجات قصر الخليفة الذى اجتلبت مواد بنائه من نواح شتى بالأندلس وخارجها ، وما تزال بقايا هذه المدينة قائمةً ، ويدعوها الإسبان Medina Zahra

فى الوقت نفسه لم يغفل الناصر أمر المسجد الجامع بقرطبة ، فأجرى الزيادة الثالثة له فى سنة ٣٤٠/ ٩٥١ ، بحيث تضاعفت مساحته ، ووصل إلى ضفة النهر ، ويعد المحراب الذى أقامه آيةً من آيات الفن الأندلسى الجميل ، كما ارتفعت مئذنته ثمانين متراً .

كذلك امتد العمران إلى مرافق أخرى ، فأنشأ الناصر داراً جديدة للسكة بقرطبة ، وتم تجديد قنطرتها ، وكذا قنطرتى سرقسطة وماردة .

فى أواخر عهد الناصر بدأت تفد إليه سفارات من أنحاء أوربا ، منها سفارة من هيو Hugh أول ملوك فرنسا من أسرة كابيه Capet ، ويدعوه المسلمون هوقو، وسفارات من بعض أمراء فرنسا وإيطاليا ومن بابا روما .

على أن أهم هذه السفارات سفارة أوتو ملك ألمانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

كان بعض المجاهدين المسلمين ، قد تطرقوا بغزواتهم البحرية إلى إقليم پروڤانس فى جنوبى فرنسا ، حيث استقروا منذ سنة ٨٩٠، وابتنوا مجموعة من الحصون أهمها فرَخْشنَيط Fraxinetum ، واتخذوها قاعدة لهجمات على جبال الألب وممراتها ، وسببوا ازعاجاً شديداً للأهلين والسلطات الحاكمة جميعاً .

لما كان هؤلاء المجاهدون يعودون فى أصلهم إلى الأندلس ، فإن أوتو وجد من واجبه أن يخاطب الناصر باعتباره مسئولاً عنهم ، وأرسل إليه بسفارة فى سنة ٣٤٢/ ٩٥٣ ، لكن هذه السفارة التى استقبلها الخليفة فى البهو الكبير ، بمدينة الزهراء ، لم تسفر عن نتائج مرضية ، ولم يعدبدمن معاودة نضال هؤلاء المسلمين إلى أن انتهى أمرهم فى سنة ٩٧٥م.

مات الناصر فى ٢ من رمضان ٣٥٠/ ١٥ من أكتوبر ٩٦١، وولى مكانه ولده الحكم ، الذى تلقب بالمستنصر .

عاش المستنصر فترةً طويلةً فى حياة أبيه وليّا لعهده ، ومع أنه شاركه فى إدارة شئون دولته فى السنوات الأخيرة من حياته ، إلا إنه شغف بالعلم وأهله .

يقول المؤرخ الكبير ابن حيان : « ولم يسمع فى الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها ، أفاء على العلم ونوه بأهله ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه » .

أنشأ الحكم بقرطبة مكتبةً كبيرةً ، حوت كتباً كثيرة فى فنون شتى ، وتردد إليها الناس من الأندلس ومن خارج الأندلس ، وأقيم إلى جوار المكتبة معمل لتجليد الكتب ، كما أقيمت معامل لصناعة الورق ، خصوصاً بمدينة شاطبة Xátiva وبلغ الورق الشاطبى شهرةً كبيرةً فى العالم بأسره .

وكان الحكم يرسل رجالاً من قبله إلى مختلف الأنحاء بالمشرق والمغرب ، يحملون الكتب إليه ، وعندما علم بأن أبا الفرج الأصفهانى (ت ٣٥٦هـ) ـ وهو من بنى أمية ـ بسبيل الانتهاء من تأليف كتابه الشهير الأغانى بعث إليه بألف دينار ، مقابل أن يختصه بالنسخة الأولى من هذا الكتاب .

وشجع الحكم حركة الترجمة ، فترجم العديد من الكتب اليونانية واللاتينية ، ومنها كتاب الحشائش لديسقوريدس Diosocorides وكتاب التواريخ لهروشيوش Paulus Orosius ، كما شجع الحكم العلماء على أن يأتوا إليه ، ومن جملتهم أبو على القالى (ت ٣٥٦/ ٩٦٧) صاحب كتاب الأمالى ، وكان قد وفد من العراق فى عهد الناصر ، ونال حظوةً كبيرةً فى عهد المستنصر ، ويستمد كتاب الأمالى اسمه من محاضرات أملاها على تلامذته الأندلسيين فى جامع قرطبة ، وهو موسوعة فى الأدب أشبه بموسوعات الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) .

ومن العلماء المشهورين فى عهد المستنصر ابن القوطية اللغوى والمؤرخ (ت ٣٦٧/ ٩٧٧) . والخشنى المؤرخ (ت ٣٦١/ ٩٧١) والزبيدى اللغوى (ت ٣٧٩/ ٩٨٩) وربيع بن زيد الأسقف النصرانى الذى عرف أيضًا باسمه الإسبانى Recemundo .

كان الحكم ـ إلى ذلك ـ عالمًا ، وله مشاركة فى علم الأنساب ، وله مشاركة أيضًا فى علم الحديث وأجيزت رواياته ، وكان دقيقًا فى قراءاته ، فكان يعلق على بعض الكتب التى يطالعها ، ويدون تعليقاته بحواشيها ، ويعتبر العلماء تعليقات الحكم أصولاً معتمدة .

نهج المستنصر نهج أبيه فى الاهتمام بالحركة العمرانية ، فقام بزيادة جديدة لجامع قرطبة ، وأجرى الماء العذب إليه من عين بجبل قرطبة ، واستكمل بناء

مدينة الزهراء التى استمرت فى عهده مدينةً ملكية .

لم يغفل المستنصر مع ذلك متابعة سيرة أبيه فى مناوأة الفاطميين وموالاة زناتة ، على أن الأدارسة حاولوا استعادة ملكهم المفقود ، فقاموا بثورة تزعمها الحسن بن قنون ، وقطعوا الدعوة للأمويين ، واحتلوا طنجة وتطوان وأصيلا .

أرسل المستنصر فى سنة ٣٦١/ ٩٧٢ قائده محمد بن طملس إلى سبتة، ولحق به أسطول قادة عبد الرحمن بن رُماحس ، وهاجم الأندلسيون طنجة براً وبحراً ، فهرب ابن قنون من المدينة ، وتعقبه ابن طملس ، فأصيب بهزيمة شديدة قرب طنجة ، ولم يجد المستنصر إلا أن يستدعى قائده الكبير غالبًا من الثغر ، وأصحبه أسطول ابن رماحس ، وحوصر ابن قنون فى حصنه المعروف بحجر النسر ، واشتد حصاره إلى أن طلب الأمان فأجيب إليه ، ودخل غالب الحصن فى سنة ٣٦٣/ ٩٧٤ ، ثم عاد إلى الأندلس وفى صحبته الأمير الإدريسى وعدد من أقربائه .

ولى المستنصر على المغرب جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى ، وكان من أنصار الفاطميين ، ثم انقلب عليهم ، وتسبب فى قتل زيرى بن مناد الصنهاجى ، وأشرك المستنصر معه فى الحكم أخاه يحيى .

على أن المستنصر واجه متاعب من المجوس (الفايكنج) الذين عادوا مرة أخرى إلى الساحة الأندلسية .

كان ملك فرنسا اقطع هؤلاء أحد أقاليمه الغربية توقيًا لشرهم ، ودعى هذا الإقليم بنورمانديا ، نسبة إلى هؤلاء النورمنديين (الشماليين) وبعد فترة من مقامهم هناك ، عادوا ـ وقد صاروا نصارى ـ إلى ممارسة نشاطهم فى مياه الأندلس الغربية .

على أن المسلمين اتخذوا أهبتهم لاستقبال هؤلاء القراصنة ، وذلك عن طريق جواسيسهم الذين أرسلهم المستنصر إلى حدوده الشمالية ، كما أمر فى الوقت نفسه بصنع مراكب على هيئة مراكبهم . لذلك عندما أغار النورمان على قصر أبى دانس Alcácer do sal فى سنة ٣٥٥/ ٩٦٦ وقتلوا عدداً من المسلمين ، وأسروا عدداً آخر ، فإن الإأسطول الأندلسى ، تمكن من اللحاق بهم عند مصب وادى شِلْب Silves وهزمهم واسترد من كان معهم من الأسرى ، وإذا كان النورمان قد عاودوا الإغارة فى سنتى ٣٦٠/ ٩٧١، ٣٦١/ ٩٧٢ ، فإنهم لم يستطيعوا النزول إلى السواحل الأندلسية ، بفضل يقظة الأسطول الأندلسى .

أما عن الممالك الإسبانية ، فإن شانجه ملك ليون الذى أعانه الناصر فى استرداد عرشه ، رفض لدى ولاية الحكم أن يبر بعهده للناصر ، ويسلم الحصون المتفق عليها ، وعقد حلفاً مع ملك نبرة وقومس قشتالة وقومس برشلونة .

رد الحكم فى سنة ٣٥٢/ ٩٦٣ بأن قاد بنفسه حملةً اقتحمت قشتالة واجتاحتها ، ثم انتقلت منها إلى نبرة ، فهرع شانجة إلى ملك نبرة غرسية Gar-cía (٩٢٦ ـ ٩٧٠) واتحد معه فى قتال المسلمين ، ولكن الحكم أصاب الحليفين بالهزيمة ، وبعث بقائده غالب وغيره من قواده إلى أن وصلوا إلى سفوح جبال البرتات ، واستمرت هذه الحرب سنتين ، عاد ملوك إسبانيا بعدها لطلب الصلح ، وأتت رسلهم إلى قرطبة ، واستقبلهم الخليفة فى مقره بالزهراء ، مثلما كان يفعل أبوه قبله .

ومن أجل أن يكرس المستنصر الأمن لدى حدوده الشمالية ، جعل للثغور جيشاً خاصاً بها مركزه فى مدينة سالم ، وبعض أقسامه فى المدن الأخرى الهامة كمجريط ووادى الحجارة Guadalajara وغرماج ، وحرص على امداده بالمؤن

والأسلحة ، فى حين جعل بالحضرة جيشًا آخر مركزه فى مدينة الزهراء ، يقوده الخليفة بنفسه أو ينيب عنه من يرى من رجاله .

ومثلما كانت الحال مع أبيه جاءت إلى المستنصر سفارات من ملوك أوربا وبينهم أوتو الثانى ملك ألمانيا (٩٧٣ ـ ٩٩٤) ويوحنا الشُمَيْشق Tzimiskes (٩٦٩ـ ٩٧٦م) ملك الروم .

فى سنة ٩٧٦/٣٦٥ شعر الحكم المستنصر باقتراب أجله ، فدعا كبار رجال دولته ، وأخذ بيعتهم لولده هشام ، وكان ما يزال صبيًا ، ومات بعد شهور قليلة فى العام التالى .

2 ـ الدولة العامرية :

لدى وفاة المستنصر ، انقسم رجال دولته إلى قسمين ، فمال العسكريون بزعامة فائق وجؤذر من الصقالبة إلى تنحية هشام لصغر سنه ، وتولية عمه المغيرة، ومال الوزراء بزعامة الحاجب جعفر ومحمد بن أبى عامر إلى تنفيذ وصية المستنصر . وتحققت الغلبة للفريق الأخير ، وقتل المغيرة على يدى ابن أبى عامر ، وولى هشام وتلقب بالمؤيد بالله .

خضع الخليفة الصغير لسيطرة أمه ، وكانت جارية بشكنسية ، حظيت عند الخليفة المستنصر وأسلمت ، فتزوجها وتحول اسمها من أورورا Aurora إلى صُبْح ، وأعانها فى وصايتها على ولدها محمد بن أبى عامر .

ينتمى محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر إلى أسرة عربية يمانية ، وفدت إلى البلاد إبان الفتح ، ودرس فى جامع قرطبة ، ثم انخرط فى سلك القضاء ، وبلغ خبره السيدة صبح ، وكانت فى حاجة إلى شاب كفء يدير أملاكها الخاصة ، فاستخدمته وسعت لدى زوجها ، فولاه دار السكة ، ولم

يلبث أن صعد فى مناصب الدولة ، فولى القضاء بكورة إلبيرة ، ثم انتقل إلى إشبيلية ، مشرفًا على أموال الزكاة والمواريث والشرطة بها ، ثم صار وكيلاً لهشام الصبى ، إلى جانب كونه وزيراً مسئولاً عن المواريث والشرطة بقرطبة .

ومثلما كانت صبح وراء صعود محمد بن أبى عامر فى عهد زوجها المستنصر ، فإنها كانت أيضًا وراء صعوده فى عهد ولدها المؤيد ، فأوعزت إليه بأن يصير معاونًا للمصحفى جعفر فى تدبير دولته .

سعى ابن أبى عامر إلى أن ينفرد بالسلطة ، فتخلص من الصقالية المناوئين له ، وأخرجهم من القصر ، وأتى بصقالبة غيرهم ، عرفوا بالفتيان (أو المماليك) العامرية ، وبدأ بعقد صلات طيبة مع القائد غالب صاحب الثغر وتزوج ابنته ، فقوى أمره ، واستطاع أن يستصدر أمراً من الخليفة بعزل المصحفى ، وزج به فى السجن ، فظل فيه حتى مات .

بعد ذلك انقلب محمد بن أبى عامر على صهره غالب ، واستعان عليه بأجناد مغاربة ، استقدمهم إلى العاصمة ، ودعى هؤلاء بجند الحضرة ، وكان يقودهم جعفر بن حمدون وأغدق عليهم ، وفسدت العلاقات بين ابن أبى عامر وغالب ، واضطر القائد الكبير - وقد صار شيخًا كبيراً - لأن يتصل بملوك إسبانيا النصرانية ، وفى سنة ٣٧١/ ٩٨١ وقعت المعركة الفاصلة بين الرجلين ، وكاد يتحقق النصر لغالب ، فى معركة انتهت إلى هزيمته وقتله ، ثم انقلب ابن أبى عامر بعد ذلك على حليفه ابن حمدون واحتال عليه وقتله .

انفرد محمد بن أبى عامر بالسلطة ، وصار حاجبًا للخليفة ، واتخذ لقب المنصور ، ودعى له على المنابر ، ونقش اسمه على السكة ، وفى سنة ٣٨٦ ٩٩٦ أضاف المنصور إلى ألقابه لقب الملك الكريم ، وبذا ظهرت فى رحم عصر الخلافة دولة جديدة دعيت بالدولة العامرية .

كان المنصور يدرك أن أهل الأندلس ينظرون إليه على إنه مغتصب للسلطة من أصحابها الشرعيين بنى أمية ، كما كان يدرك أيضًا إنه لم يصل إلى هذه السلطة بوسائل كريمة ، ومن ثم فيمكن أن يظهر بالساحة مغامر يقوم بما قام به ، لذلك كان حريصًا على أن يؤمن نفسه إزاء هؤلاء ، فابتنى فى سنة ٩٧٨/٣٦٨ مقابل الزهراء مدينةً جديدة دعاها الزاهرةً ، صارت قاعدةً له ، يدير منها شئون دولته ، بينما الخليفة محجور عليه فى الزهراء .

انصرف المنصور بعد ذلك إلى البطش بالأقوياء من أبناء البيت الأموى أو إبعادهم ، ثم أجرى انقلابًا فى نظام الأجناد ، فبعد أن كان هذا النظام يقوم على أساس القبيلة العربية ، جعل الجند الواحد يضم أفرادًا ينتمون إلى عدة قبائل ، وبعد أن كانوا يعتمدون فى معاشهم على اقطاعاتهم ، جعلهم يعتمدون فى معاشهم هذا على رواتب يؤديها لهم مشاهرةً .

إلى جانب ذلك فقد بدأ المنصور فى استقدام البربر من العدوة المغربية، وأضحى كلفًا بهم وأجزل أعطياتهم ، كما استقدم الصقالبة ، وكانوا أكثر ولاءاً ، لأنهم لم تكن لهم عصبية ، ولم يعرفوا ولاءاً إلا لسيدهم .

عكف المنصور على استمرار حال الاستقرار التى سادت فى عصر الناصر والمستنصر ، وقد حقق نجاحات كبيرة فى هذه الصدد ، وأثبت إنه رجل دولة قدير ، فكان دائم التفكير فى رعيته ، حريصاً على استتباب الأمن ، مما أدى إلى تدنى الجرائم والاضطرابات ، وفى سبيل ذلك كان كثير السهر قليل النوم ، ويذكر أنه قال : « حارس الدنيا لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى ، لما كان فى دور هذا البلد عين نائمة » .

واهتم المنصور اهتمامًا واسعًا بالقضاء ، وأظهر صرامة فى تطبيق أحكامه ، ولو كانت ضد بعض ولده ورجال دولته .

وسار المنصور على نهج أسلافه من بنى أمية ، فقام بعدة إنشاءات ، بينها مدينة الزاهرة ، كما عنى بالطرق التى تربط قرطبة بسائر أنحاء الدولة ، وأنشأ قناطر سهلت الوعر منها ، وقد يسرت هذه الطرق عبور حملاته العسكرية داخل الأندلس وخارجها .

لم يغفل المنصور أمر المغرب ، وكان يوسف بن زيرى قد اجتاحه فى سنة ٣٦٨/ ٩٧٨ ، ولم يتبق داخلاً فى ملك بنى أمية سوى سبتة ، فاستطاع المنصور أن يدخل فى طاعته البلاد من سجلماسة جنوبًا إلى تلمسان وتاهرت شمالاً وشرقًا ، واستعان فى ذلك بأجناده من ناحية والموالين له من قبيلة زناتة من ناحية أخرى ، واصطنع بعض أبناء البيت الزيرى الحاكم فى إفريقية ، فوفد إليه زاوى بن زيرى وأولاده فى سنة ٣٩١/ ١٠٠١ ورحب المنصور بهم .

على أن المنصور واجه حركةً من قبل الأمير الإدريسى الحسن بن قنون الذى غادر الأندلس ولحق بالفاطميين فى مصر ، حيث حفزوه إلى أن يعود إلى المغرب ويستعيد ملك آبائه . وقد استطاع ابن قنون أن يستميل فى سنة ٣٧٣/ ٩٨٣ بنى يفرن وغيرهم من قبائل زناتة ، فواجهته جيوش المنصور وقبيلة مغراوة الزناتية ، واضطر لأن يعلن استسلامه فى سنة ٣٧٥/ ٩٨٥ ، وطلب الأمان من المنصور ، لكنه أبى أن يعطيه إياه وأمر بقتله .

كان لتأييد زيرى عطية المغراوى للمنصور ضد ابن قنون أثره فى أن ولاه المغرب ، لكنه زينت له نفسه الانفراد بالأمر هناك ، فطرد فى سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ عمال المنصور وداخل السيدة صبح ، وكانت قد فترت علاقتها بالمنصور، بعد أن استبد بالسلطة دون ولدها ، فأعانته ببعض أموالها .

أرسل المنصور مملوكه واضحًا قائد الثغر إلى طنجة ، وانضم إليه عدد من قادة البربر الموالين ، ودارت معارك غير حاسمة بين الفريقين ، فأسند المنصور

القيادة لولده عبد الملك ، وأيده بحشد من جنود الأندلس ، ودارت معارك قرب طنجة ، أفضت إلى هزيمة زيرى وإصابته بجراحات وهربه إلى الصحراء ، حيث مات بعد قليل . واستولى عبد الملك على فاس وتادلا وسجلماسة وغيرها من المدن ، ثم ولى واضحاً حكم المغرب فى سنة ٣٨٩/ ٩٩٩.

على أن أكبر انجازات المنصور هو حربه ضد ممالك الشمال النصرانية ، وقد اتخذت هذه الحرب هيئة صوائف وشوات ، توجهت إلى هذه الممالك ، وقادها المنصور بنفسه ، وزاد عددها على الخمسين ، ولم يهزم فى إحداها . وكان من عادته أن يجمع ما علق بوجهه من غبار هذه المعارك ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل ، حتى اجتمعت لديه صرة ضخمة ، عهد بتصبيرها فى حنوطه عند موته ، وفى الوقت نفسه كان يحمل معه كفنه من غزل بناته .

لا نستطيع هنا أن نعرض لكل هذه الغزوات ، ومنها الغزوة التى شنها ضد برشلونة وقطالونية فى الشمال الشرقى فى سنة ٣٧٤/ ٩٨٥ ، والغزوة التى شنها ضد جليقية فى الشمالى الغربى فى سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ .

كانت إمارة برشلونة فى منعة من المسلمين ، وقد سار المنصور إليها عن طريق مرسية ، متخذاً طريق الساحل ، وهزم قوات أميرها القومس بوريل Bor-rell II (٩٤٠ـ ٩٩٢م) ، ثم اقتحم المدينة ودمرها وقتل معظم أهلها ، ولم يتعرض أميرها له ، واقتاد نائبه إلى قرطبة حيث ظل فى الأسر أعواماً طويلة.

وأهم غزوات المنصور هى غزوته الثامنة والأربعون إلى مدينة شنت ياقُب Santiago de Compostela ، وتلى هذه المدينة فى نفوس الإسبان مدينة القدس ، ويلى ياقب (يعقوب) فى نفوسهم المسيح عليه السلام ، وكان هدف المنصور أن يضرب الإسبان فى صميم زعامتهم القومية والدينية .

كانت الحملة بريةً بحريةً ، فقد سار المنصور بجيشه ، حتى بلغ نهر دويره ،

وفى الوقت نفسه أقلع أسطوله من قصر أبى دانس إلى مصب دويره ودخل النهر إلى أن التقى بالجيش البرى ، واخترق المسلمون بلاد العدو ، حتى بلغوا مدينة شنت ياقب ، فوجدوا أهلها قد هجروها ، فأمر المنصور بتدميرها وكنيستها الجامعة ، لكنه حافظ على مقام القديس يعقوب ، ووكل به من يحفظه ، ثم غادر المدينة ، وسار حتى ساحل المحيط ، واتخذ طريق العودة ، وقدحمل معه الأسرى والغنائم ، ومن بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها ، وقد استخدمت الأبواب فى تسقيف الجزء الذى زاده فى جامع قرطبة ، واستخدمت النواقيس ثريات له .

حققت هذه الغزوات شعبيةً كبيرةً للمنصور فى أنحاء الأندلس وغير الأندلس ، وأسهمت فى الرخاء العام الذى ساد البلاد ، بسبب ما أتى به من غنائم وافرة وسبى ، حتى إن الناس فى أيامه تغالوا فى تجهيز بناتهم بالثياب والحلى لرخص بنات الروم .

أسفرت هذه الغزوات عن امتداد حدود الأندلس الإسلامية شمالاً على حساب النصارى ، بحيث صارت هذه الحدود قريبةً مما كانت عليه فى عصر الولاة .

أحرز المنصور مكانةً عاليةً بين حكام عصره ، وأتته سفارات من ملوك أوربا ومنهم باسيل الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٢٥م) إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية (دولة الروم) وأوتو الثالث (٩٩٤ ـ١٠٠٢م) إمبراطور الدولة الرومانية الغربية (ألمانيا) .

أما حكام شبه الجزيرة ، فإنهم صاروا أفصالاً تابعين لحضرة قرطبة ، وسعوا جميعهم إلى مرضاة سيدهم المنصور، فأصهر شانجة غرسية Sancho Garcés II . ملك نبرة (٩٧٠ ـ ٩٩٤م) إليه وزوجه ابنته التى أسلمت وتسمت عبدة ، وأنجبت للمنصور ولده عبد الرحمن ، الذى اشتهر فيما بعد بشنجول San-chuelo ، أما قومس قشتالة غرسية (٩٧٠ ـ ٩٩٥م) فإن حياته انتهت فى

الأسر بقرطبة ، كما إن المنصور تزوج إحدى بناته .

مات المنصور فى عوده من الغزو فى سنة ١٠٠٢/٣٩٢ ، ودفن بصحن قصره فى مدينة سالم ، ونقش على قبره هذا البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه

تالله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

أما المصادر النصرانية ، فقد وردت بها هذه العبارة « فى سنة ١٠٠٢م مات المنصور وألحد فى جهنم » .

لدى وفاة المنصور خلفه فى الحجابة ولده عبد الملك الذى اتخذ لنفسه لقب المظفر ، ولما كان أبوه قد خلف له دولةً مستقرةً ، فإنه أقبل على ملذاته ، لكنه لم يغفل واجباته فأظهر العدل ، وأظهر الميل إلى العلماء ، وعندما تحرك بعض أبناء البيت الأموى ضده لم يتردد فى نفيهم إلى المغرب .

أما فى سياسته الخارجية ، فإن زعماء زناتة ، وعلى رأسهم المعز بن زيرى ابن عطية المغراوى دانوا له بالطاعة ، فولاه المغرب ، بدلاً من قائده واضح ، على أن يؤدى مقادير معينة من الأموال والخيل ، وتابع سياسة أبيه فى الترحيب بالبربر ، خصوصاً زاوى بن زيرى الصنهاجى وولده ، وجعل مقامهم فى نواحى غرناطة .

واصل المظفر سياسة أبيه الجهادية ، فقام بعدة غزوات إلى الممالك النصرانية، وصل بعضها إلى سفوح جبال البرتات ، وحمل حكام هذه الممالك على أن يجددوا الولاء له ، ويحكمونه عندما تنشأ بينهم نزاعات .

أتت المظفر كذلك سفارات من ملوك عصره ، منهم باسيل ملك الروم الذى أصحب هديته إليه عدداً من الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى يديه بالمشرق .

على أن المظفر مات وهو بعد شاباً فى عوده من غزوته السابعة والأخيرة فى سنة ١٠٠٨/٣٩٩ ، ولم يكن قد أكمل سبعة أعوام من حكمه القصير ، وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول الذى تلقب بالناصر .

تذهب بعض الروايات إلى أن عبد الرحمن هذا كانت له يد فى موت أخيه عبد الملك ، ولم تكن حاله حال أبيه ولا حال أخيه ، إذ كان شاباً طائشًا مغروراً، هيأ له غروره أن يرغم الخليفة المحجور عليه ، بأن يجعله ولى عهده ، ووضعت أحاديث نبوية تبرر نقل الخلافة من قريش إلى قحطان ، وتبالغ بعض الروايات ، فتذكر إنه سعى إلى قتله ليحل محله .

كان سلوك عبد الرحمن هذا دافعًا لأن تحاك ضده مؤامرات ، من قبل الحزب الأموى ، الذى كان يتحين الفرصة ، حتى يتخلص من الدولة العامرية ، وشاركت الذلفاء أم عبد الملك المظفر فى هذه المؤامرات ، لما بلغها عن دور لعبد الرحمن فى موت ولدها ، فاتصلت بنفر من شباب بنى أمية ، على رأسهم محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر .

إنتظر هؤلاء حتى حانت الفرصة المناسبة ، وهى خروج عبد الرحمن شنجول إلى الغزو ، وما كاد جيشه يغادر الحضرة ، حتى هاجم ابن عبد الجبار القصر ، وقتل نائبه عبد الله بن أبى عامر ، وأرغم هشامًا المؤيد على التنازل عن الخلافة ، وبويع ـ من ثم ـ باسم المهدى ، ولم يلبث أن هدم قصور الزاهرة وأحرقها .

لم يوفق عبد الرحمن شنجول فى غزوته ، فقد كان الوقت شتاءً ، وامتنع ملك ليون برءوس الجبال ، فلما وجد عبد الرحمن أن لا سبيل إلى لقائه ، اتخذ طريق عودته إلى عاصمته ، ولدى حلوله بطليطلة ، وصلته أنباء الانقلاب ضده ، ونصحه مولاه واضح صاحب الثغر بأن يبقى فى مكانه ، لكنه أصر على

العودة لإخماد الفتنة وعندما اقترب من قرطبة ، تخلى عنه زعماء البربر ، خوفًا على أولادهم وذويهم المقيمين بالمدينة ، وأضحى عبد الرحمن فى قلة من أصحابه ، وسرعان ما ظفر به أعداؤه عند دير بضواحى العاصمة ، وقتل فى ٣ من رجب ٣/٣٩٩ من مارس ١٠٠٩ ، ولم يكن قد بقى فى منصبه ثلاثة شهور ، وبموته انتهت الدولة العامرية .

3 ـ سقوط الخلافة الأموية :

كانت خلافة المهدى تعنى أن السلطة فى البلاد صارت سلطةً واحدةً ، ولم يعد الحاجب كما كانت الحال قبلاً هو صاحب السلطة الفعلية ، لكن هذا الشكل الظاهر للوحدة ، أخفى وراءه دولة ، بدأت مرحلة انهيارها ، واستغرقت هذه المرحلة نيفًا وعشرين سنة .

كان نجاح المغامرة التى أقدم عليها المهدى حافزًا ، لأن يسعى غيره من أبناء البيت الأموى إلى مثلها ، بل إن الدور الذى سبق أن قام به العامريون فيما مضى ، سعى غيرهم من الصقالبة والبربر لأن يقوموا به .

بدأ المهدى عهده بأن أساء إلى البربر ، وعامل زعيمهم زاوى بن زيرى معاملةً سيئةً ، وانتقلت عدوى هذه المعاملة إلى العامة ، فهاجموا عددًا من دور البربر ونهبوها ، كما أساء المهدى إلى الصقالبة العامريين ، وأرغمهم على مغادرة قرطبة إلى شرقى الأندلس ، ولم يقف معه سوى واضح صاحب الثغر الذى بعث إليه كتابًا بالطاعة .

عندما تجمعت عناصر السخط ضد المهدى ، استثمرها سليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، فتزعم البربر ، وخرج معهم من قرطبة ، ومضى بهم إلى الثغور ، حيث اتصل بقومس قشتالة ، واتفق معه على أن يعينه

بالزاد والعتاد والرجال ، مقابل أن يتنازل له فى حال ظفره عن بعض مدن الثغور .

بويع سليمان بن الحكم باسم المستعين ، وزحف البربر إلى قرطبة وبالقرب منها عند قنتيش ، دارت معركة أسفرت عن انتصارهم ودخولهم المدينة فى سنة ١٠٠٩/٤٠٠ ، حيث عاثوا فيها فساداً ، وقتلوا كثيراً من أهلها ، وأضحى زاوى بن زيرى أثيراً عند المستعين .

هرب المهدى إلى طليطلة ، وانضم إليه واضح ، واتصلا بقومس برشلونة ، وعقدا معه إتفاقًا يشابه إتفاقًا أعدائهم مع قومس قشتالة ، وتنازلا له عن مدينة سالم ، وهى ثغر إسلامى عزيز ، وفى موقع يبعد عشرين ميلاً شمال قرطبة يدعى بعقبة البقر هزم البربر ، وغادروا قرطبة وقد اعتزموا العودة إلى بلاد المغرب، وقبل أن يصلوا إلى الجزيرة الخضراء ، جرت معركة بينهم وبين المهدى عند وادى آره Guadiaro ، وحاقت الهزيمة هذه المرة بالمهدى ، وفارقه حلفاؤه النصارى ، عندما أدركوا خسارته لقضيته ، واضطر للعودة إلى قرطبة وحفر خندقًا حواليها ، انتظاراً لحصار من جهة البربر .

ظلت الحرب سجالاً بين المهدى والمستعين ، وحاول واضح أن يحل المشكلة بأن يقتل المهدى ، ويبعث برأسه إلى المستعين ، وأعاد الخلافة إلى هشام المؤيد ، وطلب هذا بدوره معونة قشتالة ، حتى يأمن شرها ولا تنضم إلى أعدائه ، وتنازل لقومسها عن مائتى حصن على الحدود .

استمر البربر فى حصارهم للمدينة ، وحاول أهلها محاولةً ثانيةً استمالتهم ، فقتل بعضهم واضحًا ، وبعثوا برأسه إليهم ، لكن ذلك لم يزد البربر إلا اصراراً على دخول المدينة .

فى ٢٦ من شوال ٩/١٤٠٣ من مايو ١٠١٣ اقتحم البربر قرطبة ، ونشروا

الدمار بها ، وقتلوا فى أهلها ، وقد عاصر ابن حزم هذه المرحلة ووصف واقعة الاقتحام وصفاً مؤثراً ورد فى كتابه « طوق الحمامة » .

لم يكتف المستعين بما جرى ، فقتل هشامًا المؤيد ، بعد دخوله المدينة بشهور ، وبذا انتهت حياة هذا الخليفة التاعس الذى لم يمارس يومًا واحداً مهام منصبه .

ترتب على دخول البربر قرطبة ، وسيطرتهم على الخليفة المستعين أن اختصهم بالمناصب الكبيرة كالحجابة والوزارة ، وقسم بينهم كور الأندلس ، خصوصًا الواقعة منها بالجنوب ، فبدأت تنشأ بها دول طوائف شبيهة بدول طوائف أنشأها الصقالبة بشرقى البلاد .

كان بنو حمود ـ وهم من الأدارسة ـ يعدون فى جملة البربر ، واختصهم المستعين بسبته وطنجة وأصيلة والجزيرة الخضراء ، لكنهم لم يقتنعوا بذلك ، بل طمحوا فى منصب الخلافة ذاته ، خصوصاً وإنهم علويون هاشميون ، واستطاع على بن حمود فى سنة ٤٠٧ / ١٠١٦ أن يدخل قرطبة ، وقتل المستعين ، وولى بالخلافة باسم الناصر .

توالى على الحكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بنى حمود ، هم الناصر والقاسم والمعتلى ، وثلاثة من بنى أمية ، هم المرتضى والمستظهر والمستكفى . وتداخلت ولايات هؤلاء الخلفاء ، ولم تستقر الأوضاع بعاصمة الدولة ، واستمرت النزاعات التى شارك فيها البربر والصقالبة وأهل قرطبة أنفسهم ، بل إن الحموديين تنازعوا بعضهم ضد بعض .

انتهت هذه المرحلة فى سنة ١٠٢٦/٤١٧ حين انتهز أهل قرطبة فرصة مغادرة المعتلى بن حمود المدينة إلى مالقة ، وفتكوا بالحامية البربرية بها ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم

جَهْوَر بن محمد بن جهور ، وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر خليفةً ، وتلقب بالمعتد بالله .

كان المعتد مقيما خارج قرطبة ، حين تمت بيعته ، لكنه تلكأ فى دخول عاصمته ، وظل مقيمًا بحصن البونت Alpuente بعيداً عنها قرابة ثلاث سنوات ، ثم دخل المدينة فى سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ فلم يحسن سياسته بها ، كما لم يحسن اختيار وزرائه ، وتحركت كوامن الثورة فى نفوس أهل قرطبة القلب ، فعاودوا الاجتماع فى سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م ورأسهم أبو الحزم جهور ، واتفقوا على خلع المعتد ، وإبعاده وأهله إلى خارج قرطبة ، وإبطال رسوم الخلافة جملةً .

بعد قليل نشأت فى قرطبة حكومة أشبه بالجمهورية ، دعيت بحكومة الجماعة ، ولى رئاستها أبو الحزم جهور (٤٢٢/١٠٣١ ـ ٤٣٥/ ١٠٤٣) وكان شيخًا جليلاً ، ورث التقاليد العريقة التى كانت لأسرته ـ وهى من الموالى ـ فى عصور الأندلس الزاهرة ، وبدأ دولةً استمرت حتى دخلت فى ملك بنى عباد أصحاب إشبيلية .

على أن دولة بنى جهور هذه لم تنتظم كل بلاد الأندلس ، واقتصرت على قرطبة وما جاورها ، وأضحت دولة من دول الطوائف التى سادت الحياة السياسية فى بلاد الأندلس ، حتى مقدم المرابطين .

الفصل الثانى عشر
الأندلس فى عصر الطوائف

١ - قيام دول الطوائف :

دول الطوائف تعبير عن تعدد الولاءات السياسية فى شبه الجزيرة ، مقابل ولاء سياسى واحد فى المرحلة السابقة ، هو الولاء للأسرة الأموية .

مجموع هذه الدول نحوٌ من عشرين دولة ، تفرقت إليها البلاد فى مطالع القرن الخامس / الحادى عشر ، وانتهت الحَال بهذه الدول (أو الممالك) إلى سقوطها فى أخريات هذا القرن ، الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المرابطين حكام المغرب ، أو فى أيدى الإسبان ، ونستثنى هناك مملكة سرقسطة التى امتد بها العمر إلى أوائل القرن التالى .

يبدأ عصر الطوائف بنهاية الدولة العامرية فى سنة ١٠٠٩/٣٩٩ ... ونتساءل لماذا وخلال سنوات قليلة انتثر عقد الدولة الأندلسية ؟؟

فى تقديرنا إن ظاهرة الطوائف هذه كانت تعبيراً عن الخصوصية الأندلسية فى أوجها ، والمنطلق لهذه الخصوصية هو البيئة ، فنحن نلاحظ فى شبه الجزيرة تبايناً فى سطح الأرض وتقطعًا حاداً له ، وتعدداً للأقاليم المناخية والغطاء النباتى ، وأنماط الحياة الاقتصادية ، وصار السكان يعيشون فى مجتمعات صغيرة منعزلة بعضها عن بعض ، تختلف فيما بينها فى درجات الحضارة وطرائق التفكير . وهو ما دفع الرومان (وبعدهم القوط ثم العرب) إلى أن يجعلوا الأقاليم الجغرافية أقاليم إدارية .

ترتبت على ذلك نزعة محلية ، أعان عليها ما كانت تواجهه هذه المجتمعات الأندلسية الصغيرة من مشكلات حياتية ، وأعان عليها أيضاً صعوبة

المواصلات بين بعضها البعض ، وبينها وبين المركز فى قرطبة ، وأضحى لكل مجتمع منها مدينته الحصينة (أو مدنه الحصينة) وإليها يتوجه شطر كبير (أو الشطر الكبير) من انتماء أفراد هذا المجتمع .

البيئة إذن أسهمت فى تكريس هذه الولاءات المحلية ، وفى نجوم الفتن والثورات بين حين وآخر ، ولم تعد لأية معركة نتيجة حاسمة ، ولفظة Guer-rilla ومعناها حرب صغيرة (حرب عصابات) ، لفظة ابتكرها الإسبان ، ونقلتها عنهم اللغات الأخرى دون تغيير .

فى التطبيق ـ وكمثال ـ فإن الجبال الشمالية الوعرة باقليم أشتوريش ، كانت وراء عصيان بلاى Pelayo ، وبزوغ نواة المقاومة النصرانية فى مغارة أونجا Covadonga ويعد الإسبان هذا العصيان بدايةً لحرب الاسترداد La Re-conquista أو معركة القرون الثمانى La Batalla de ocho Siglos .

فى صميم أرض الأندلس عبرت المحلية عن نفسها بالتعددية السياسية ، وهو ما نشاهده من ميول حادة إلى الاستقلال فى عهد الأموية ، والاستقلال ذاته فى عهود ما بعد الأموية ، مما أسفر فى النهاية عن نتائج فادحة على مسار الإسلام بالأندلس .

على أنه ورغمًا هن هذه المحلية (والتعددية) فإن الشعب الأندلسى وإن تعددت أعراقه ، إلا إنه كان ـ على نحو عام ـ ينتمى إلى أرومة إسبانية ، ولم يكن العرب ولا البربر ، ولا غيرهم من المسلمين الطارئين سوى أقليات تتفاوت فى العدد ، وتتفاوت على نحو أوضح فى مواقعها من السلم الاجتماعى . وبعد فتن داخلية متعددة ، بدأت فى أعقاب الفتح ، واستمرت متقطعةً نيفًا ومائتى سنة ، وشارك فيها النصارى الذمة ، كانت العصبية قد هدأت إلى حد بعيد ، ومضى الشعب الأندلسى خطوات واسعة نحو الاندماج ، بحيث جاز أن نتحدث

عن شعب أندلسى واحد ، يدين معظمه بالإسلام .

كان هذا الشعب ـ لأسباب كثيرة ـ يشعر بالزهو إزاء أنداده المسلمين بالمشرق ، بل يشعر بالزهو كذلك إزاء أنداده المسلمين بالمغرب ، وتعبر عن ذلك رسالة مشهورة للفقيه الكبير والأصولى أبى محمد بن حزم .

هذا الشعور العارم بالأندلسية كان يؤدى فى أحوال عدة إلى نفور واقع بين الأندلسى وبين المغربى الوافد إليه عبر البحر ، والذى كان وفوده يرتبط على نحو أساسى بمحنة يمر بها رفيقه الأندلسى فى مواجهة نصارى الشمال .

كذلك فإن هذا الشعور كان يؤدى إلى إقامة علاقات تحتية بين مسلمى الأندلس وبين نصارى الشمال ، وهى علاقات فى مجملها طيبة يسودها التسامح ، ولم يكن الأندلسى ـ فيما يذهب ليفى پروفنسال ـ القادم من دار الإسلام يجد غضاضةً من المقام فى دار الحرب ، وكذا كانت حال قرينه النصرانى القادم من هذه الدار إلى دار الإسلام . بل إن المسلم المدجَّن الذى تحول ولاؤه السياسى إلى النصارى ، لم يكن يشعر عادةً بتغيير كبير فى حاله ، خصوصًا وإن جيرانه ومن يتعاملون معه من هؤلاء النصارى كانوا على دراية بالعربية ، أو يتحدثون بها وقد يجيدونها .

الأكثر من ذلك ، فقد حارب بعض النصارى مع المسلمين كمرتزقة ، ومن المسلمين من كانوا يفعلون ذلك فيحاربون مع النصارى ، ولدينا مثال واضح فى ملحمة السِّيد El Poema de mío Cíd .

لم تكن لهذه الخصوصية آثار فادحة إبان الفترة الأموية ، على إن هذه الآثار تبدت فيما بعد ، وأعانت الطوائف على تكريسها ، أو بالأحرى تكريس الجوانب السلبية منها .

ذكرنا إنه حدث انسجام للشعب الأندلسى فى عصر الخلافة ، لكن هذا العصر كان يحمل فى طياته جرثومة فنائه ، فقد كان النظام الحربى ، يرتبط أساسًا بأبناء الشعب ، خصوصًا من تحدر منهم من أصل شامى . وجاور هؤلاء الأجناد أجناد طارئون على الأندلس يتحدرون من أصل صقلبى أو من بربر العدوة ، وهم غير بربر الأندلس الذين كان قد تم ادماجهم فى الشعب الأندلسى ، وكانت الاستعانة بهؤلاء الأجناد الغرباء تتم على نحو ثانوى فى الفترة السابقة لعصر الخلافة ، لكنها وضحت فى هذا العصر ، وامتد الأمر إلى الإستعانة بأجناد نصارى من الأندلس ومن ممالك الشمال ، سيما فى عهد المنصور بن أبى عامر .

نتج عن استقدام الغرباء وترفيعهم على أهل الأندلس فوران اجتماعى عبرت عنه الحركة الشعورية التى تأخرت فى الأندلس عنها بالمشرق ، ومن مظاهرها رسالة ابن غرسية المشهورة فى تفضيل العجم .

نتج أيضًا عن استقدام هؤلاء نفور أجناد الأندلس الأصليين منهم ، هذا النفور الذى يتضح أثره فى وقعة الخندق سنة (٩٣٩/٣٢٧) وقد هزم الخليفة الناصر فيها هزيمةً كبيرةً . ومع ذلك فلم يتوقف عن سياسته فى استقدام الصقالبة ، وبلغ عددهم فى مدينة الزهراء وحدها لدى وفاته ٣٧٥٠ عدا النساء .

لم يقف الأندلسيون - والعرب منهم - صامتين إزاء هذا الانقلاب ، فقد وقعت منهم عدة مؤامرات للتخلص من الصقالبة ، كانت إحداها مؤامرةً كبيرةً قمعها المظفر ولد المنصور ، كما كانت للأندلسيين مجابهات عديدة مع البربر، أسفرت عن تخريب هؤلاء لقرطبة عند اقتحامهم لها فى سنة ١٠١٣/٤٠٣ . ويصور الكاتب المعاصر ابن حزم هذا التخريب فى عبارة مشجية وردت بكتابه «طوق الحمامة» .

ويرتبط النظام الحربى بنظام الأرض ، فقد كان هذا النظام يقوم على أساس إقطاع كور معينة للأجناد العرب يقيمون فيها ، ويقدمون فى المقابل عدداً معيناً منهم ، يتناسب مع حجم الكورة وخطرها . لكن المنصور فى إجهازه على العصبية العربية ، أجهز على هذا النظام ، وجعل ارتزاق الأجناد ـ وقد أصبحوا فى معظمهم من الغرباء ـ مشاهرةً ، وكان هدفه من ذلك أن يشعر هؤلاء بالانتماء إليه . على أن هذا الشعور تحول بعده إلى انتماء إلى شخص الحاكم ، وليس إلى الدولة ، وعندما وقعت نزاعات على السلطة توزع ولاء الأجناد بين المتنازعين ، ولأنهم لم تكن لديهم إقطاعات ، فقد انصرف همهم إلى نهب العامة ، وشكلوا فى النهاية طبقةً عسكرية منفصلةً عن الشعب الأندلسى ، وكثير منهم لم يكن يحسن العربية .

أعان على تكوين هذه الطبقة ما جرى من رواج فى أواخر عصر الخلافة ، أدى إلى تراكم ما لديها من ثروات ، وأدى أيضاً إلى حال من الترف والترهل الاجتماعى عند طوائف الشعب الأندلسى المرتبطة بهذه الطبقة ، يوضح ذلك إن مقادير الجباية فى عهد المنصور ، بلغت أربعة ملايين دينار ، عدا رسوم المواريث وأموال السبى والغنائم والمصادرات ، فى حين كانت النفقات تبلغ شهرياً نحو مائتى ألف ، ترتفع إلى خمسمائة ألف لدى الغزو .

على أن ثم خطيئةً أساسيةً ارتكبها المنصور ، ففى غزواته المتوالية إلى دار الحرب ـ وقد بلغت نحو خمسين غزوةً ـ كان يكتفى بالنصر ، وليس بالنصر النهائى ، وهذه حلول وسطية ، أسفرت عن نتائج سلبية ، لأنها استفزت المشاعر الوطنية والدينية عند الجانب الآخر ، ولم ينس النصارى ما فعله معهم فى غزوته الكبرى الثامنة والأربعين فى سنة ٩٩٧/٣٨٧ ، فقد أتى ببعض أسراهم ، يحملون على ظهورهم نواقيس الكنائس وصلبانها وأبوابها من قاصية بلادهم إلى حضرة قرطبة .

خطيئة أخرى ارتكبها المنصور ، هى إن المساحات الواسعة التى استردها من النصارى أو استولى عليها ، وإن صارت جزءاً من دار الإسلام ، إلا إنها فى واقع الحال كانت مناطق عازلة أو مناطق منزوعة السلاح ، لم يهتم بتعميرها وتوطينها المسلمين . وإذا كان ولده المظفر إبان غزاته لبرشلونة فى سنة ١٠٠٣/٣٩٣ قد شرع فى إصلاح بعض حصونها ، وأغرى المسلمين بسكناها، مقابل أن يثبتهم فى الديوان ، ويعطى الواحد منهم المنزل والمحرث ، إلا أن ما فعله المظفر كان استثناءاً لسياسة عامة قررها أبوه .

فى المقابل درج النصارى لدى استيلائهم على أراض إسلامية ، على تعميرها ، وتوطين بعض العامة والنصارى المهاجرين من الأندلس بها ، ومنحوهم امتيازات صدرت بشأنها براءات استقرار Cartae Populationis تملك هؤلاء بموجبها أراضيهم ، وشرعوا ينشئون عدداً من القلاع ، احتشد بها فرسانهم ، ومن هذا أتى مسمى قشتالة وهى بلاد القلاع ، كما شرعوا ينشئون أديرةً احتشدت برهبان متعصبين ، أسهموا على نحو وافر فى إشعال الروح الصليبية .

2 ـ الطوائف ودورها فى ضياع الأندلس :

أسفر قيام الطوائف عن تكريس للطائفية السياسية ، فقد توزعت الأندلس ثلاث مجموعات من الممالك عربية وصقلبية وبربرية ، وجنح ملوكها إلى اتخاذ ألقاب لم يتخذها قبلهم غير الخلفاء ، ولدينا مثال واضح فى بيتين مشهورين لشاعر مغربى معاصر هو ابن رشيق القيروانى (ت٤٦٣/١٠٧١) .

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

سعى الملوك لأن يكون للواحد منهم بطانة من الشعراء ، يتغنون بفضائله وفضائل مملكته . ولدينا نموذج الشاعر ابن عمار (ت٤٧٧/١٠٨٥) مع الشاعر الملك المعتمد بن عباد (٤٦١/١٠٦٩ ـ ٤٨٤/ ١٠٩١) باشبيلية . وغنى عن البيان أنه إلى عصر الطوائف ينتمى القسم الأكبر من تراث الشعر الأندلسى .

إلى جانب ذلك عنى الملوك بـ العمائر والإنشاءات التى تخلد ذكرهم ، مثل قصر الجعفرية فى سرقسطة ، وقد ابتناه المقتدر بن هود (٤٣٨/١٠٤٦ ـ ٤٧٤/١٠٨١) وضم هذا القصر بهواً ذهبًا دعى بمجلس الذهب ، وفيه يقول :

قصرَ السرور ومجلسَ الذهبِ بكما بلغت نهاية الأربِ
لو لم يحز ملكى خلافكما كانت لدى كفاية الطلب

على أن هذه العمائر والإنشاءات كان ينصرف معظمها إلى غاية ترفية ، وليس ثم ضرورة أساسية لها .

ما دامت الطوائف قد استكملت استقلالها ، فإن كل واحدة منها ، كانت تسعى إلى الحفاظ على هذا الاستقلال من ناحية ، وإلى مد حدود سلطانها على حساب غيرها من ناحية أخرى ، وكان ذلك يتطلب نفقات باهظة ، فسعى ملوكها إلى إرهاق رعاياهم بالفرائض والأموال . ويشير ابن حزم فى إحدى رسائله إلى إنهم ابتدعوا جزيةً على رءوس المسلمين ، يسمونها قطيعةً وتؤدى مشاهرةً ، وضريبةً أخرى على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، ورسومًا تدعى القبالات ، تؤدى على ما يباع فى الأسواق ، ويشير أيضًا إلى تسليطهم اليهود فى جباية هذه الأموال ... الأكثر من ذلك أن الملك منهم فى حربه ضد غيره من ملوك الطوائف ، كان يبيح رعية خصمه وهم مسلمون لجنوده نصارى ومسلمين .

لم يقف الملوك عن هذا الحد فإنهم فى اصطراعهم مع بعضهم البعض سعوا إلى طلب العون من الملوك النصارى ، وكان هؤلاء يؤيدونهم بجنودهم ، فيتمكنون من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم - على قول ابن حزم - يحملونهم أسارى إلى بلادهم .

لدينا أمثلة عديدة ، فقد تحالف المأمون بن ذى النون (١٠٤٣/٤٣٥ - ١٠٧٥/٤٦٧) ملك طليطلة مع غرسية García Sánchez ملك نبرة (١٠٣٥ - ١٠٥٤) ضد المقتدر بن هود ملك سرقسطة ، وتحالف هذا الأخير مع فرذلند Fernando ملك ليون (١٠٣٥ - ١٠٦٥م) ضد خصيمه المسلم ... وهكذا نجد الملكين النصرانين يعيشان فى وقت واحد بمساعدة مسلمين فى أراضى مسلمين ، واستمر هذا العيث ثلاث سنوات (١٠٤٣/٤٣٥ - ١٠٤٦/٤٣٨) .

لدينا مثال آخر، فقد تحالف المعتمد ملك إشبيلية مع أذفونش Alfonoso VI (١٠٦٥ - ١١٠٩م) ملك ليون ، وأدى له خمسين ألف دينار ، مقابل أن يعينه على فتح غرناطة ، على أن تكون المدينة للمعتمد ، وذخائر القلعة الحمراء لأذفونش ، وفى الوقت نفسه سعى ملك غرناطة عبد الله بن بلقين (١٠٧٣/٤٦٥ - ١٠٩٠/٤٨٣) للتحالف مع أذفونش نفسه ، دفعًا لأذاه ونكايةً فى المعتمد .

ولا بد بطبيعة الحال من مقابل ، وكان المقابل فى البداية مالاً ، يؤدى إلى الملك النصرانى ، لم يلبث أن تحول إلى جزية ، يقع عبؤها على الرعايا الأندلسيين ، ثم تحول إلى تنازل عن أراض إلى جانب الجزية .

والحقيقة إن الريادة فى هذا المجال تعود إلى الخليفة هشام المؤيد الذى تنازل لأمير قشتالة فى سنة (١٠١٠/٤٠١) عن مائتى حصن ، سبق أن ضمها

أسلافه - أمويين وعامريين - مقابل توقى عدوان هذا الأمير ، واتحاده معه ضد خصومه المنازعين له من البربر .

سياسة التنازلات هذه كانت تؤدى إلى مزيد من الدعم للجبهة النصرانية ، وإلى مزيد آخر من العدوان . وعندما كان يتوقف ملك من ملوك الطوائف عنها، فإن عقابه يكون شديداً ، فقد امتنع المعتمد عن أداء الجزية فى سنة (١٠٨٣/٤٧٥) ، وكان جزاؤه أن اقتحم أذفونش مملكته ، واخترقها حتى وصل إلى بحر الزقاق ، وخاض بفرسه فى أمواجه .

إلى جانب ذلك فإن ملوك الإسبان وأمراءهم كانوا يستغلون تواجدهم فى مدينة إسلامية ضيوفًا عليها ، من أجل التجسس ، وكذا كانت حال أذفونش ، حين أقام بطليطلة ضيفًا على ملكها إبان نزعه من ملكه .

الخلاصة إن الأوضاع السياسية العامة فى بلاد الأندلس على عهد الطوائف كانت غايةً فى التردى .

يقول أذفونش الذى دعا نفسه (بالإنبيطور ذى الملتين) أى إمبراطور النصارى والمسلمين ، يقول لسفير المعتمد إليه : « كيف أترك قومًا مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم ، كالمعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسل فى الذب عن نفسه سيفًا ، ولا يرفع ضيمًا ولا حيفًا ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغانى والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سُداً » .

فى عام واحد هو عام (٤٥٦/١٠٦٣ - ١٠٦٤) سقط معقلان هامان فى أيدى النصارى، هما قلمرية فى شمالى البرتغال الحالية وبَرْبَشْتَر Barbastro فى مملكة سرقسطة .

أثار ذلك شجون ابن حيان (ت٤٦٩/١٠٧٦) مؤرخ الأندلس الكبير ، وهو يعيش آخر أيامه فيقول : « ولأشد مما أفشينا عند أولى الألباب ، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة وأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زمانها ... » .

فى سنة (١٠٨٥/٤٧٨) وقعت الواقعة ، فقد سقطت طليطلة .

تخاذل ملوك الأندلس ـ باستثناء ملك بطليوس ـ عن نجدتها ، ولم ينصتوا إلى صريخ القاضى أبى الوليد الباجى (ت٤٧٤هـ/١٠٨١م) عندما دعاهم إلى الجهاد ذبًا عنها ، وانصرف الواحد منهم إلى أمور مملكته وحدها ، بل إن المعتمد ـ وقد ملأه الرعب من أذفونش ـ لم يوظف هذا الرعب فى مساندة المدينة التاعسة ، ولم يتحرك لمواجهة ملك ليون ، إلا بعد أن تهدد هذا مملكته نفسها ، كما فرض حصاره على سرقسطة .

أحدث سقوط طليطلة هزةً ، عمت أقطار الأندلس .

يقول الشاعر ابن العسال (ت٤٨٧/١٠٩٤) :

حثوا رواحلكم أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سفط[١]

لم يجد ملوك الأندلس ، إلا أن يطلبوا معونة إخوانهم عبر البحر ، وكانت قد بزغت عندهم قوة صحراوية كبيرة ، هى المرابطون وأميرهم يوسف بن تاشفين .

---

(١) مثلما كانت طليطلة واسطة الوطن الأندلسى ، كانت فلسطين واسطة الوطن العربى ... فتأمّل .

في العام التالي جرت معركة الزّلاقة ، وانتصر المسلمون المتحدون ـ أندلسيين ومرابطين ـ على خصيمهم الليوني ، الذي لم يتبق من جيشه البالغ خمسين ألفاً أو نحوها سوى مائة أو مئات .

لكن .. هل تعلمّ المسلمون من أخطائهم ، واستفادوا من تجاربهم .

بعد المعركة مباشرةً ، انقلب يوسف بن تاشفين إلى بلاده ، وكان بإمكانه ـ إذا أراد ـ أن يسترد طليطلة على الأقل ، لكنه لم يفعل ، ففوت على المسلمين فرصةً عزيزةً ، وهيأ لأذفونش الفرصة ، كي يلتقط أنفاسه ، ويبعث في طلب عون إخوانه النصارى في شبه الجزيرة وخارجها ... وكان هؤلاء يتهيئون لأولى الحملات الصليبية .

في الوقت نفسه لم يلبث أن دبت النزاعات بين الأندلسيين بعضهم ضد بعض ، وبينهم وبين المرابطين ، بل سعى عدد منهم إلى الاتصال بالنصارى ، ولم يراعوا أن هؤلاء لا عهد لهم ، فلدى إستيلائهم على طليطلة ، اقتحموا مسجدها الجامع بعد شهرين ، وحولوه إلى كنيسة جامعة ، بخلاف ما اتفق عليه في عهد التسليم .

المقارنة مريرة بين موقف المسلمين بعد الزلاقة ، وبين موقف النصارى بعد طليطلة ، فقد استثمر هؤلاء استيلاءهم على هذه المدينة أعظم استثمار ، إذ جعلوها عاصمةً لهم ، وكون العاصمة على التخوم مع الأعداء ، يشكل حافزاً لمواصلة النضال .

ظهر أثر ذلك في تعثر الحملة الإسلامية للاستيلاء على حصن لييط في سنة (١٠٨٨/٤٨١) ، مما دفع يوسف بن تاشفين في جوازه الثالث ثم في جوازه الرابع إلى إزالة ملوك الأندلس فيما عدا ملك سرقسطة .

على إنه من لا شك فيه أن التفاوت الحضاري بين الأندلسين والمرابطين ،

وقد نوهنا إليه من قبل ، وإحساس الأندلسين العارم بخصوصيتهم وتفوقهم ، كان له دوره فى بروز قدر من عدم الثقة المتبادل بين الجانبين ، ويعود ذلك إلى ما قبل مقدم المرابطين ، وعبر عنه الرشيد ولد المعتمد عندما خاطب أباه بقوله : « يا أبتى ! أتدخل علينا فى أندلسنا ، من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » وإذا كان رد المعتمد بأن قال إن : « حرز الجمال والله عندى خير من حرز الخنازير » وأظهر يوم الزلاقة بطولات ، استدعت ثناء المرابطين ، إلا إنه لم يلبث أن وقعت الجفوة بينه وبينهم ، وكاتب ملك ليون سراً .

وقد لعب المرابطون من ناحيتهم دوراً فى هذه الجفوة ، فقد تعاملوا مع الأندلسيين بخشونة ، يوضحها ما جرى للمعتمد ونفيه إلى أغمات ، وحبسه بها إلى أن مات فى الأصفاد ، وما جرى لزوجه وأبنائه وبناته من سبى وتشريد وقتل . بل إن المرابطين فى اقتحامهم لإشبيلية وغيرها من مدائن الأندلس ، انصرفوا إلى قتل المواطنين العاديين وسبيهم ونهبهم ، وهو ما ينهى عنه الشرع ، مما دفع ابن الأفطس عمر المتوكل ملك بطليوس (٤٦٠/١٠٦٧ - ١٠٩٤/٤٨٧) لأن يتنازل لأذفونش عن ثلاث مدن هامة ، مقابل أن يعينه ضد المرابطين ، كما إن أحد أبنائه لجأ إلى الليونيين وأقام عندهم وتنصر .

نتساءل الآن وقد انتهت ممالك الطوائف ... ما الذى أسفرت عنه هذه النهاية ؟

النتيجة الأساسية إن الأندلس - ورغماً عن موجات مد إسلامية تالية - لم يعد إلى ما كان عليه إبان الفترة الأموية ، وصار تابعًا للمغرب ، وتابعًا للمتغيرات السياسية بالمغرب ، وما حفلت به من تناقضات ، وظلت هذه حاله حتى قريب من سقوط غرناطة وذهاب الأندلس .

3 - بعض السمات الحضارية لعصر الطوائف :

مع إننا لا نوافق دائمًا على مقولةً إن العطاء الحضارى يتلازم طرديًا مع الفرقة السياسية ، إلا إننا نلاحظ إن هذا العطاء يرتبط على نحو أساسى بعصر الطوائف ، فالنهضة التى عمت مرافق البلاد فى عصر الخلافة كانت قريبة العهد ، واشتد زخمها مع بزوغ الطوائف . فقد سعى ملوكها إلى أن يبحثوا عن مبرر لوجودهم ووجودها ، فاستقدموا الشعراء والأدباء والعلماء من كل صوب ، وهيئوا لهم حياةً ناعمةً ، تحميهم من غوائل الزمن ، بل إن من هؤلاء الملوك من كانت لهم مشاركة فعالة فى علوم شتى .

فى عبارة قوية يقول المؤرخ المعاصر أبو مروان بن حيان عن مجاهد العامرى صاحب دانية (٤٠٢ ـ ٤٣٦هـ) :

« كان مجاهد فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره ، لمشاركته فى علم اللسان ، ونفوذه فى علم القرآن ، عنى بذلك منذ صباه وابتداء حاله ، إلى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد عظيم ما مارسه من الحروب براً وبحراً ، حتى صار فى المعرفة نسيج وحده ، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمةً ، وكانت دولته أكثر دولة خاصةً وأسرها صحابة ، لانتحاله العلم والفهم ، فأمّه جلة العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيموا فى ظل سلطانه ، واجنمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة وحلبة ظاهرة » .

إذا نحن خصصنًا وركزنا على الشعر ، باعتباره فن العربية الأول ، نلاحظ إن معظم ما تناهى إلينا من شعر أندلسى ، يعود إلى هذا العصر دون غيره من عصور ، فقد حظى من الملوك بأوفر عناية ، كما نشأت ظروف شجعت عليه ، منها ما شاع من حريات اجتماعية ، وخاصة فى علاقة الرجل بالمرأة ، ثم توزع الشخصية الأندلسية بين التطرف فى اللهو وطلب متاع الدنيا ، وبين التطرف

فى الزهد والانصراف عن هذا المتاع .

وعليه فقد تناهت إلينا أسماء كبيرة ، بينها ابن زيدون (ت٤٦٣/ ١٠٧١) ابن عمار (ت٤٧٧هـ) ابن اللبانة (ت٤٨٨هـ) .

أما فى غير ذلك من فنون ، فد تناهت إلينا أسماء أخرى ، بينها ابن حزم (ت٤٥٦/١٠٦٤) المفكر ، وابن حيان (ت٤٦٩ ـ ١٠٧٦) المؤرخ ، ابن عبد البـر (ت ٤٦٣/١٠٧٠) المحـدث ، وأبو الوليـد البـاجى (ت٤٧٤/١٠٨١) الفـقـيـه، وابن سيـدَه (ت٤٥٨/١٠٦٦) عـالم اللغـة ، وأبو عـبيـد البكرى (ت٤٨٧/١٠٩٤) الجغرافى والزَّرقالى (ت٤٧٢/١٠٨٠) عالم الفلك ، وابن وافد (ت٤٦٦/ ١٠٧٤) عالم النبات .

الفصل الثالث عشر
الأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين

١ - الأندلس فى عصر المرابطين :

كان يوسف بن تاشفين قد سيطر على المغرب الأقصى والصحراء وامتد بهذه السيطرة إلى شطر المغرب الأوسط ، وكان لديه شعور قوى بانتمائه إلى أمة إسلامية واحدة ، مهما تناءت أقطارها ، ومن ثم فالجهاد فرض وواجب ، لدفع الأخطار التى تتهدد هذه الأمة فى أحد أقطارها .

(أ) الزلاقة والفتح المرابطى :

كانت بلاد الأندلس قد توزعتها ممالك الطوائف ، وشرعت ممالك الشمال النصرانية فى نهش هذه الممالك الواحدة بعد الأخرى ، ثم سقطت طليطلة فى سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ .

لم يجد أهل الأندلس ـ وقد عجزوا عن التصدى لهذا المد النصرانى الكاسح ـ إلا أن يتوجهوا إلى أمير المسلمين ، يطلبون النصرة والمعونة ، ووفدت إلى حاضرته مراكش جماعات منهم ، وأتاه كتاب المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، كما أتته كتب غيره من ملوك الأندلس .

أسفرت المفاوضات بين الطرفين ، على أن يتعاون الجميع ـ أندلسيين ومرابطين ـ فى محاربة النصارى ، وأن يؤمن ملوك الطوائف فى ممالكهم ، ومن جهة أخرى أن يسلموا أمير المسلمين ثغر الجزيرة ، ليصير قاعدة لجيشه . وفى ربيع الأول ٤٧٩ / يونيو ١٠٨٦ عبر يوسف بن تاشفين وجنوده المرابطون إلى الأندلس ، وانضمت إليه جيوش الطوائف ، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع شمال بطليوس ، قرب حدود البرتغال الحالية . ويعرف

هذا السهل عند المسلمين بالزلاقة ، وعند النصارى Sagrajas .

كان أذفونش السادس ملك ليون يحاصر فى هذه الأثناء مدينة سرقسطة ، فرفع الحصار عنها ، وبعث إلى سائر النصارى يستمدهم فهرعوا لنجدته وانثالت إليه متطوعة من أنحاء إسبانيا وأوربا ، واكتمل له نحو خمسين ألفًا ، فى حين كان جيش المسلمين يناهز الأربعين ألفًا .

عسكر النصارى إزاء المسلمين ، يفصل بينهما نهر وادى أنة ، وسعوا إلى خديعتهم فى تحديد يوم المعركة ، وحاولوا أن يأخذوهم على غرة ، لكن هؤلاء اتخذوا أهبتهم لمواجهتهم . وعندما بدأ النصارى هجومهم فى يوم الجمعة ١٢ من رجب ٤٧٩ / ٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦ ، واشتبكت مقدمتهم بقيادة ألبار هانش Alvar Fanez بمقدمة جيش المسلمين بقيادة المعتمد ، اختل نظام المسلمين ، وارتد معظمهم تجاه بطليوس ، ولم يثبت سوى المعتمد وفرسان إشبيلية ، ثم هاجم أذفونش القوات المرابطية ، وردها عن مواقعها ، لكن يوسف ابن تاشفين دفع فى ذلك الحين بقواته الاحتياطية ، ليضرب قلب الجيش النصرانى ، ثم هاجم مؤخرته ، وأوقع الفوضى فى سائره ، واستفحل القتل فى النصارى ، وكانت الخاتمة عند مغيب شمس هذا اليوم ، هو هجوم حرس يوسف من السودان ، واستطاع أحدهم أن يطعن أذفونش نفسه طعنةً نافذةً ، مما اضطره ومن تبقى معه ، إلى أن يتراجعوا والمسلمون فى إثرهم ولم ينقذ البقية الباقية منهم إلا هبوط الليل .

أسفرت المعركة عن هلاك الجيش النصرانى الذى لم يتبق منه سوى مئات، لاذوا بحياتهم مع مليكهم فى هربه الطويل إلى طليطلة . وأمر أمير المسلمين بقطع رءوس القتلى ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن فوقه للصلاة ، ثم وزعت الرؤس على قواعد الأندلس والمغرب . وليس معنى ذلك أن خسائر المسلمين

كانت هينةً ، فقد بلغت عدة آلاف ، بينهم عدد من فرسان المرابطين وأبطالهم المعدودين والأندلسيين .

كان النصر فى الزلاقة عظيمًا ، وكان من واجب يوسف بن تاشفين أن يسعى لأن يجنى ثمرات هذا النصر ، وأولها أن يسترد طليطلة ، ولا نعرف السبب فى انصرافه عن ذلك ، وربما كان موت ولده وولى عهده الأمير أبى بكر ـ وكان قد استخلفه على مراكش ـ وربما كان ما راعه من عودة الخلافات بين ملوك الطوائف أنفسهم .

عاد أمير المسلمين إلى المغرب ، ولم يلبث أن عاد الاضطراب إلى الأندلس، وعاود النصارى عدوانهم ، فقد كان لهم حصن يقع داخل الأراضى الإسلامية هو حصن لَييط Alédo ، ومن هذا الحصن كان يخرج النصارى وعدتهم ثلاثة عشر ألفًا بينهم ألف فارس ، فيعيثون فسادًا حولهم ، بينما كان السيد القنبيطور El Cíd El Campeador وهو Don Rodrigo Díaz de Vivar يعيث فى مملكة بلنسية Valencia .

لما كانت الأرض المجاورة لحصن لييط تابعةً للمعتمد ، فإنه عبر البحر بنفسه إلى يوسف ، وعاود طلب نجدته ، ووعده يوسف بها .

فى ربيع الأول ٤٨١ يوليو ١٠٨٨ عبر يوسف بن تاشفين للمرة الثانية، وسار بقواته إلى لييط ، وانتظر أن توافيه جيوش الأندلس ، لكن استجابة ملوكها له كانت محدودة ، فبادر بحصار الحصن ، لكنه لم يسقط فى يديه ، واضطر إلى أن يرفع الحصار ، ويعود أدراجه إلى المغرب .

مع أن النصارى فى حصن لييط سارعوا بعد انصراف المرابطين إلى إخلائه، لأنهم تبينوا صعوبة الدفاع عنه ،إلا أن يوسف كان قد امتلأ قلبه بالسخط على أهل الأندلس ، ووقع فى يقينه إنه من أجل أن يدفع ممالك النصارى ، عليه أولاً

أن يقضى على ممالك الطوائف ، ووافقه جمهور من استفتاهم من الفقهاء ، بينهم الإمام الغزالى .

استطاع يوسف بن تاشفين فى عبوره للمرة الثالثة فى عام ١٠٩٠/٤٨٣ ، والمرة الرابعة فى عام ٤٨٤ / ١٠٩١ أن يزيل معظم هذه الممالك ، وكانت عمليةً محزنةً ، حيث اصطرع المسلمون بعضهم ضد بعض ، وانتهى المعتمد نهايةً فاجعةً فى أغمات .

صارت لأمير المسلمين دولة إسلامية واسعة ، تمتد من نهر التاجه بالأندلس إلى تخوم السودان ، ونجح قبل موته فى سنة ٥٠٠ / ١١٠٦ فى أن يسترد قواعد أندلسية ، بينها بلنسية ، التى كان السيد القنبيطور قد استولى عليها .

(ب) الأندلس وعلى بن يوسف بن تاشفين :

ولى على بن يوسف بن تاشفين (١١٠٦/٥٠٠ ـ ١١٤٢/٥٣٧) ، وكان لديه من خلال أبيه الشئ الكثير ، ورغمًا عن إن دولة المرابطين كانت ما تزال فى عنفوانها ، إلا إنه فى عهد على نفسه ظهرت دعوة المهدى بن تومرت فى الموحدين ، وقد انصرف هذا إلى أن يرمى المرابطين بكل نقيصة ، وأيدته قبيلته مصمودة المنافسة لقبيلة لمتونة .

استغرق الصراع بين المرابطين والموحدين السنوات الأخيرة من حياة على ابن يوسف إلى أن مات ، فاستغرق عهد ولده ، إلى أن انتهت دولتهم فى سنة ١١٤٦/٥٤١ .

انقسمت بلاد الأندلس فى عصر المرابطين إلى خمس ولايات ، هى قرطبة ، إشبيلية ، غرناطة ، بلنسية ، مرسية ، وشكلت سرقسطة ولايةً سادسة ، قبل أن تسقط فى أيدى نصارى أرغونة ، واختص المرابطون أنفسهم بالولاية

والإمارة دون أهل الأندلس ، وكان آخر من ولى منهم أبو زكريا يحيى بن غانيّة (ثم أبو بكر بن مزدلى) .

على أنه فيما عدا هذه المناصب ، اعتمد المرابطون على أهل الأندلس خصوصًا فى منصب الكتابة ، فهم وإن كانوا على دراية بالعربية ، إلا إنهم لم يكونوا ملمين بأسرارها كافة ، وهكذا نبغ نفر من الكتاب الأندلسيين ، مثل ابن أشباط وابن القصيرة وابن الجد وابن عبدون .

كانت عدة الجيش المرابطى بالأندلس سبعة عشر ألف فارس ، موزعين على أنحاء البلاد ، لكنه كان يعهد فى الدفاع عن الثغور إلى الأندلسيين ، لخبرتهم فى هذا المجال ، وامتلكوا بالأندلس أساطيل قويةً دائمة ، قواعدها فى ألمرية وقادس والجزيرة الخضراء وطريف وسبتة .

لم يهمل المرابطون أمر الجهاد ، وخاضوا معارك عديدةً هامة ، وبينها معركة أقليش Uclés فى سنة ٥٠١/١١٠٨ .

اعتقد أذفونش السادس ملك ليون أن موت غريمه يوسف بن تاشفين ، يعنى أن يعاود الظهور بالساحة الأندلسية ، فبعث بحملة عاثت فى إقليم إشبيلية، مما حفز على بن يوسف لأن يرد ، بأن أمر أخاه تميمًا - والى غرناطة - فتوجه إلى حصن أقليش ، وهو حصن صار للنصارى بعد سقوط طليطلة ، وضرب الحصار عليه .

أراد أذفونش أن ينجد الحصن ، فأرسل حملةً من سبعة آلاف ، بقيادة ألبر هانش أكبر قواده ، ومعه سبعة قوامس ، ومعه أيضًا ولده شانجه Sancho ، وكان صبيًا صغيرًا فى الحادية عشرة من عمره ، وذلك من أجل أن يبعث الحماسة فى نفوس جنوده .

لما كان حجم الجيش الليونى كبيراً ، فإن تميماً حدثته نفسه بالانسحاب ، لكنه تحت ضغط قواده قرر الصمود ، ودارت رحى معركة كبيرة ، تشبه الزلاقة فى ضراوتها ، وقتل الأمير شانجه ، وقتل معه القوامس السبعة ، لذلك دعيت هذه المعركة التى انتصر فيها المسلمون بمعركة القوامس السبعة La Batalla de los Siete Condes .

نتيجةً للمعركة فإن أذفونش مات فى العام التالى غمًا لفقد ولده الوحيد ، على أن الأهم هو إنه بسقوط أقليش سقطت عدة حصون مجاورة فى أيدى المسلمين ، وقاد على بن يوسف سلسلة من الغزوات لأراضى النصارى ، واستولى فى سنة ٥٠٣/١١٠٩ على طلبيرة Talavera ، وحاصر طليطلة حاضرة ليون ، وكان يدافع عنها ألبر هانش ، لكنه لم يستطع أن يأخذها لمناعتها ، فاكتفى بتخريب أحوازها .

فى الوقت نفسه توجهت حملة مرابطية أخرى إلى الغرب ، حيث كانت مملكة البرتغال فى طور النشوء ، واتخذ أميرها الرُّنك Enriqui de Borgoña (١١٠٩ ـ ١١٢٦) قلمرية عاصمةً له ، فاسترد المسلمون يابُرة Evora وأشبونة وشنترين ووصلوا فى زحفهم إلى قريب من قلمرية ، ولم يستطع الرنك ـ وكان زوجًا لابنة أذفونش السادس ـ أن يدفع هذه القوات .

لم يغفل المرابطون أمر سرقسطة ، وهى مملكة الطوائف الوحيدة التى كانت خارجةً عنهم ، وكان صاحبها عماد الدولة بن هود قد ارتمى فى أحضان النصارى ، وأفتى الفقهاء بخلعه ، ونجح المرابطون فى دخول المدينة فى سنة ٥٠٣/١١١٠ ، واتخذوا منها قاعدةً لغزو إمارة برشلونة .

كان الاستيلاء على سرقسطة حافزًا للمرابطين إلى أن يتطلعوا إلى الجزائر الشرقية Islas Baleares وهى ميورقة Majorca ومنورقة Minorca ويابسة Ibíza .

كانت الجزائر الشرقية قد سقطت فى أيدى مدينتى بيشه Pisa وجنوه Genova وإمارة برشلونة ، فأرسل المرابطون فى سنة ١١٥/٥٠٩ ، عمارةً بحرية بقيادة أمير البحر الأندلسى أبى عبد الله بن ميمون ، تمكنت من استعادة الجزر، وبذا دفع المرابطون خطراً كبيراً يتهدد الأندلس من الشرق .

على أن المسلمين مالبثوا أن أصيبوا فى سنة ١١١٨/٥١٢ بنكبة كبيرة فى سرقسطة ، تشبه نكبتهم فى سنة ١٠٨٥/٤٧٨ بفقد طليطلة .

نشأت إمارة أرغونة فى جنوبى جبال البرتات ، ثم اتحدت مع مملكة نبرة لتنشأ مملكة جديدة على حدود الثغر الأعلى ، واستطاع أذفونش الأول ملك أرغونة (١١٠٤ ـ ١١٣٤) أن يستولى على بعض قواعد سرقسطة ، ومنها بريشتر ووشقة ، ولم يلبث أذفونش هذا الذى عرف بالمحارب El Batallador وعرف عند المسلمين بابن رُذمير أن أنشأ سلسلة من الحصون قريبةً من سرقسطة، وانتهز فرصة شغل المرابطين بالبرتغال وحملاتهم إليها وفرض حصاره على سرقسطة ، وأتته طوائف عديدة من الصليبيين من أنحاء أوربا ، واستمر حصار المدينة حتى نفدت أقواتها ، وحدث أن مات واليها المرابطى دون أن يخلفه أحد ، ودب الذعر فى نفوس أهل المدينة ، وعبثًا انتظروا نجدة المرابطين ، لكنهم بقيادة أميرهم تميم تلكئوا فى نجدتهم ، واضطر هؤلاء إلى طلب الصلح، على أن يؤمنهم النصارى ، ويسمحوا لمن شاء بالخروج من المدينة .

ما كاد أذفونش يدخل سرقسطة ، حتى جعلها عاصمةً له ، وجعلها أيضًا قاعدةً لمتابعة غزواته ، ونشأت بينه وبين المرابطين ، يقودهم الأمير إبراهيم ابن يوسف معركة كبيرة فى سنة ١١٢٠/٥١٤ هى معركة قُتُنْدَة Cutanda ، هزم فيها المسلمون وقتل عدد كبير منهم ، وبينهم القاضى الشهيرأبو على

الصِّدقى ، وفـى أعقـاب المعركة استولى أذفونش على دروقة Daroca وقلعة أيوب Calatayud ، وامتدت حدوده إلى جنوب نهر إبره .

كان لما أحرزه أذفونش من انتصارات فى شرقى الأندلس صدى كبير حفزه فى سنة ١١٢٥/٥١٩ ، لأن يخترق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، حتى وصل إلى ساحل البحر مما يلى غرناطة ، وأيده النصارى المعاهدون فى غزوته هذه بعدة آلاف من مقاتلتهم ، وأخفق المرابطون فى التصدى له .

نتج عن نقض المعاهدين لعقـد الذمة أن هرب عـدد منهـم صحبـة ملك النصارى فى عوده شمالاً ، وأفتى ابن رشد (الجد . ت ١١٢٦/٥٢٠) بتغريب الباقين ،فرحل معظمهم إلى المغرب ، وأسلم بعض هؤلاء ، وعاد بعضهم الآخر إلى الأندلس بعد قيام دولة الموحدين .

ترتب على هذه الغـزوة أن طمح أذفـونش المحارب للاستـيلاء على مـدينة إفراغه Fraga حتى يصل إلى مدينة طرطوشة Tortosa الهامة ، وحاصر إفراغه حصاراً شديداً ، ورفض عروض أهلها فى أن يدخلها صلحاً .

عندما تنبه المسلمون إلى حقيقة رغبة أذفونش ، فإن على بن يوسف أرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة أبى زكريا يحيى بن غانية ، ودارت تحت أسوارها معركة كبيرة ، انتهت إلى هزيمة شديدة للنصارى ، تشبه هزيمة أقليش ، وذلك فى سنة ١١٣٤/٥٢٨ ، وكان لهذه الهزيمة أثرها فى موت الملك النصرانى خلال المعركة أو بعدها .

بيـد أن المرابطين لـم يستثـمـروا انتصـارهم الكبيـر هذا فى أن يزحـفـوا إلى سرقـسطة ويسـتـردوها ، وهم هنا يكررون الغلطة نفـسهـا التى ارتكبـوها قـبل خمسين عاماً ، بعد انتصارهم فى الزلاقة .

كانت معركة إفراغه هى خاتمة المعارك الكبيرة التى خاضها المرابطون فى الأندلس ، لأنهم تفرغوا بعدها ، لمناهضة الثورات التى قام بها الأندلسيون ضدهم وكذلك لمناهضة الموحدين الذى قاموا ضدهم بالمغرب .

(جـ) نهاية العصر المرابطى بالأندلس :

لم ينس الأندلسيون ما فعله المرابطون بهم ، بعد سحق دول الطوائف ، وما جرى من إذلالهم ، كما صدمهم ما اتسمت به السياسة المرابطية من تزمت ضدهم وتعسف ، حفزهم لأن يقوموا فى سنة ١١٢١/٥١٤ بثورة كبيرة فى قرطبة أعلنوها « ذبا عن الحرم والدماء والأموال » واقتحموا قصر الإمارة ، وأحرقوا دور المرابطين ، وأرغموهم على الإنسحاب من المدينة .

ومع أن على بن يوسف استطاع لدى عبوره فى العام التالى أن يرد قرطبة إلى الطاعة ، إلا أن غضب الأندلسيين لم يتوقف حتى فى عهد ولاية ولده تاشفين عليهم ، وقد تعامل معهم على نحو طيب .

عندما ترامت إلى الأندلس أخبار الصراع بين المرابطين والموحدين وقعت مجموعة من الثورات فى أنحاء البلاد ، وتزامنت هذه الثورات ، وقام على بعضها قضاة ورجال دين ، أشهرهم أحمد بن قَسِّى ، وهو زعيم طائفة من المتصوفة دعوا بالمريدين ، تركزت ثورتهم فى جنوبى البرتغال الحالية .

ومثلما حدث فى زمن الطوائف ، فقد استنصر بعض زعماء هذه الثورات بملوك النصارى ، وبخاصة اذفونش السابع ملك ليون (١١٢٦ ـ ١١٥٧) Alfonso Raimúndez ، وقد سعى أذفونش هذا ـ وقد عرف بالقيصر ، وعرف عند المسلمين بالسُّلَيطين ـ لأن يستعيد أمجاد جده لأمه أذفونش السادس ، واستطاع فى النهاية أن يدخل قرطبة مسانداً لثوارها ، ولم يغادرها إلا عندما علم ياستعداد الموحدين لاقتحام الأندلس .

2 - الأندلس في عصر الموحدين :

(أ) عبد المؤمن بن علي وبدايات السيادة الموحدية :

استطاع عبد المؤمن بن على بعد سنوات من خلافته ، أن يؤسس للموحدين دولةً كبيرةً ضمت أقطار المغرب الثلاثة ، كما دفع عدوان النورمان عن إفريقية ، وضرب على أيدى العرب من بنى هلال .

على أن عبد المؤمن لم يغفل النظر عن بلاد الأندلس ، وكان قد كثر بها الثوار ، ودخل بعضهم فى طاعة الموحدين ، وتردد بعضهم الآخر فى دخولها ، أو استمر فى ثورته ، ومن هؤلاء بنو غانيّة ، وينتمون إلى المرابطين ، وقد انسحبوا إلى دانية Denia ، ومنها إلى الجزائر الشرقية ، ومنهم أيضًا محمد بن سعد بن مردنيش وصهره ابن هَمُشْك فى مرسية ، وأضحى الصراع بين الموحدين وهؤلاء سجالاً .

فى هذه الأثناء كانت حركة الاسترداد قد اشتد ساعدها ، واستطاع أذفونش السابع أن يستولى على مدينة قورية Coria فى الثغر الأدنى ، كما إن سائر القواعد الهامة فى الثغر الأعلى سقطت الواحدة تلو الأخرى ، وعلى رأسها طرطوشة ولاردة Lérida ، وإفراغه ومكناسة Mequinenza ، والأهم هو استيلاء الحملة البحرية التى شاركت فيها قوات من ليون ونبرة وأرغونة فضلاً عن بيشة وجنوة على ثغر ألمرية الهام فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ .

كان هم الموحدين الأكبر هو استرداد المرية ، فتوجهت إليها حملة بقيادة عثمان بن عبد المؤمن ، وشدت الحصارعليها ، وكان يدافع عنها أذفونش السابع وحليفة المسلم ابن مردنيش ، ولما لمس هذا الأخير استبسال الموحدين فى استعادة المدينة ، خجل من نفسه ، وتخلى عن حليفه النصرانى ، الذى لم يجد بدًا من أن يتخلى بدوره عن المدينة ويدخلها المسلمون فى سنة ١١٥٧/٥٥٢ ،

وقد مات فى السنة نفسها بفجيعته فى فقدها .

عاود ابن مردنيش وابن همشك الثورة مرة أخرى ، وتهددا قرطبة وإشبيلية ، واستوليا على غرناطة ، وحوصرت الحامية الموحدية بقلعة الحمراء ، فأرسل عبد المؤمن ولده أبا يعقوب يوسف فى عشرين ألفًا ، فتمكن من الانتصار على الثائرين فى سنة ١١٦٠/٥٥٧ واستعاد منهما المدينة .

إبان شغل الموحدين بشرقى الأندلس ، شرع أذفونش الأول ملك البرتغال Affonso Inrique (ويعرف عند المسلمين بابن الرِّنْك) فى غزو القواعد الإسلامية فى غربى الأندلس ، واستعان بعدد من الصليبيين ، كانوا فى طريقهم إلى بلاد الشام - فى حصار مدينة أشبونة ، وبعد أن اقتحمها فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ أعمل السيف فى أهلها ، واسترق من كان على قيد الحياة منهم، ثم تقدم إلى شنترين ثم باجة ، وأخذ يتهدد بطليوس .

لم يستجب عبد المؤمن لنداءات غربى الأندلس ، وسعى إلى أن يهئ للموحدين قاعدةً تخدمهم لدى عبورهم ، فأمر بتجديد قاعدة جبل طارق ، بحيث صارت مدينة جديدة دعيت بمدينة الفتح أو جبل الفتح ، واكتمل بناؤها فى سنة ١١٦٠/٥٥٥ ، وعبر عبد المؤمن بنفسه إليها ، ليحتفل بهذه المناسبة .

عندما تمادى ملك البرتغال فى عدوانه ، تهيأ عبد المؤمن للغزو ، فخرج من مراكش فى جيش كبير ، يقدره البعض بمائتى ألف ، وكان فى تخطيطه أن يتوجه به إلى الجبهات النصرانية جميعها ، وليس إلى جهة البرتغال وحدها ، لكن أجله وافاه قبل أن يعبر مضيق جبل طارق فى سنة ١١٦٣/٥٥٨ .

(ب) أبو يعقوب يوسف وشنترين :

خلف أبو يعقوب يوسف أباه فى حكم هذه الدولة الواسعة ، فاتجه إلى أن يفيد من التناقض الذى ظهر بين ليون والبرتغال ، فتحالف مع الأولى ، وأفاد من هذا الحلف فى دفع هجوم البرتغاليين على مدينة بطليوس فى سنة ١١٧٠/٥٦٦ .

انصرف هم الموحدين بعد ذلك إلى خصيمهم ابن مردنيش الذى تحداهم سنوات طويلة فى شرقى الأندلس ، واستمالوا إليهم صهره ابن همشك ، وما زالوا يضغطون على ابن مردنيش إلى أن ضعف أمره ثم مات فى سنة ١١٧٢/٥٦٧ ، ودخل الموحدون مرسية ، وأعلن بنو مردنيش ولاءهم لهم ، ثم تزوج الخليفة بابنة أميرهم السابق ، كما تزوج ولده أبو يوسف يعقوب بابنته الأخرى .

بعد أن هدأ أمر الثوار فى الأندلس عاد الصراع مرة أخرى بين الموحدين من ناحية وليون والبرتغال من ناحية أخرى ، ولم يسفر هذا الصراع عن نتيجة حاسمة ، مما جعل الخليفة يتهيأ فى سنة ١١٨٤/٥٨٠ لحملة كبيرة ، وجهتها مدينة شنترين ، لأنها كانت القاعدة التى ينطلق منها البرتغاليون لغزو أراضى المسلمين .

فى سنة ١١٨٤/٥٨٠ سار أبو يعقوب ومعه جيش يربو عدده على المائة ألف ، ضم إلى جانب الموحدين عربًا هلالية ، ومتطوعة أندلسيين ومغاربة ، وكان أذفونش ملك البرتغال قد استعد لهذه الهجمة الموحدية ، ودارت معارك عنيفة بين الفريقين ، هلك خلالها آلاف من المسلمين والنصارى ، وكادت المدينة تسقط فى يدى أبى يعقوب ، وشرع النصارى يهربون إلى القصبة .

بيد إن الخليفة أمر بعد أيام قليلة من الحصار بالكف عن القتال والانسحاب

إلى إشبيلية ، ولا نعلم على وجه اليقين السبب الذى حدا به إلى ذلك ، وربما كان السبب هو أن فرذلند الثانى Fernando II ملك ليون (١١٥٧ ـ ١١٨٨) هب لنجدة إخوانه المحاصرين ووجد الخليفة أن لا طاقة له بقتال عدوين معًا .

لم يحسن المسلمون تنظيم صفوفهم لدى ارتدادهم عن شنترين ، مما جعلهم هدفًا لهجمات مضادة من البرتغاليين ، ومع أنهم قاتلوا ببسالة ، وفتكوا بأعداد كبيرة من خصومهم ، إلا أن خليفتهم أصيب بجراحات خطيرة ، فحمله رفاقه على محفة ، وأسلم الروح قبل أن يصل جيشه إلى إشبيلية .

(جـ) المنصور والأرك :

لدى وفاة أبى يعقوب يوسف ، خلفه ولده أبو يوسف يعقوب الذى تلقب بالمنصور ، ويعد عصره هو العصر الذهبى للدولة الموحدية ، وقد بدأ بالتصدى لبنى غانية الذين رفعوا لواء المرابطين ، وسيطروا على الجزائر الشرقية ، وضايقوا الموحدين فى شرقى الأندلس ، ثم قاموا بغزوتهم فى عقر دارهم بإفريقية ، لكن أبا يوسف تمكن من هزيمتهم فى سنة ٥٨٣ / ١١٨٧ .

انتهز شانجه الأول Sancho I ملك البرتغال (١١٨٥ ـ ١٢١١م) هذه الفرصة واستعان بحشود صليبية ، كانت فى طريقها إلى المشرق ، ليستولى على شلب فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ، ولما كانت هذه المدينة عظيمة الأهمية بالنسبة للمسلمين ، فإن المنصور أعلن الجهاد ، وأتته متطوعة وأجناد ، وبذا استطاع أن يستردها بعد عامين من سقوطها فى أيدى النصارى .

كانت الحملة إلى شلب مقدمةً لحملة المنصور الكبيرة فى عام ١١٩٥/٥٩١ ، حين عبر إلى الأندلس ، صحبة جيش كبير يناهز المائة ألف من الموحدين والعرب سوى الأندلسيين ، وتوجه إلى إشبيلية ، ومنها إلى قرطبة ،

ثم خرج من هذه المدينة صوب قلعة رباح Calatravá .

عندما ترامت أنباء العبور إلى ملك قشتالة أدفونش الثامن (١١٥٨-١٢١٤م) عقد اجتماعا لرجال مملكته بطليطلة يستشيرهم ، وبعث فى عون ملكى ليون ونبرة ، ولم ينتظر أن يوافيه هذا العون ، وغادر المدينة بجيشه متجهًا إلى قلعة رباح ، وعسكر فى الأرك Alarcos ، وهو حصن من أعمال القلعة .

عسكر المنصور على مقربة من معسكر غريمه ، وأشار عليه أصحابه الأندلسيون وعلى رأسهم كبيرهم ابن صناديد ، بأن يدفع بمعظم الجيش إلى المعركة ، ويترك قوات احتياطيةً فى الخلف ، تهرع إلى نجدة إخوانهم فى حال كسرهم . وقد وافق المنصور على هذه الخطة ، وجعل أبا يحيى بن أبى حفص قائداً عاماً للجيش .

بدأت المعركة فى يوم الأربعاء ٩ من شعبان ٥٩١ / ١٨ من يوليو ١١٩٥ بهجوم من القشتاليين على قوات القلب التى يقودها الشيخ أبو يحيى معتقدين أن الخليفة هناك ، وكان الصدام شديداً ، لدرجة أن قتل أبو يحيى نفسه . عندئذ تقدمت قبائل العرب والمتطوعة ، وأحاطت بالنصارى من كل جانب ، وما زالوا بهم ، حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر ناحية حصن الأرك، لكن المسلمين حالوا بينهم وبين ذلك ، واستحر القتل فيهم ، ثم أحاط المسلمون بحصن الأرك ، يظنون أن الملك اعتصم به ، لكنه كان قد غادره فى بعض أصحابه إلى طليطلة ، ودخل المسلمون الحصن عنوةً ، وافتدى جنوده أنفسهم ، بأن تم اطلاق خمسة آلاف أسير مسلم .

كانت معركة الأرك من المعارك الكبيرة التى نصرا الله فيها المسلمين بالأندلس ، بحيث تعد أختًا للزلاقة ، وكانت نتيجتها المباشرة أن توقف الزحف

النصـرانى إلى حين ، وثبـتت حـدود الإسـلام عند خط وادى أنة ، واسـتـعـاد المسلمون عدة حصون فى غربى الأندلس ، كما استعادوا قلعة رباح ، واعتزم المنصـور أن يتابع نصره ، فيستولى على طليطلة ، لكن دخول الشتاء منعه من ذلك .

لم يحاول المنصور فى غزواته التالية استعادة طليطلة ، وقد كانت الفرصة مهيأةً له ، واكتفى بغزوات محدودة لبلاد النصارى ، ثم اكتفى معهم بعد ذلك بهـدنة ، ووافـاه أجله فى سنة ٥٩٥ / ١١٩٩ ، وكـان مـا يزال شـابًا لم يبلغ الأربعين بعد .

(د) الناصر والعقاب :

ولى بعد المنصور ولده عبد الله الذى تلقب بالناصر ، وحكم مدةً مماثلةً لمدة حكم أبيـه ، ومـات مـثله شـابًا . على أن الناصـر لم تتـوافـر له قـدرات أبيـه ولا مهاراته العسكرية ، ومع إنه تمكن من القضاء نهائيًا على بنى غانية فى الجزائر الشرقية، وسدد لهم ضربات موجعةً فى إفريقـية ، إلا أن أذفونش الثامن ملك قشتالة المهزوم فى الأرك ، لم يلبث أن استرد قواه ، وعاود الإغارة على أطراف الأندلس، وكانت الهدنة مع المسلمين قد انتهت مدتها .

كان أذفونش قد اعتـزم أن يأخذ بثأر هزيمته فى الأرك ، وأيدته البـابوية ، كما أيدته الممالك الإسبانية ، وأتاه صليبيون من أنحاء أوربا كافة ، فاجتمع له جيش كامل العدة يناهز المائة ألف .

يقـول عبـد الواحـد ـ وهو مؤرخ معاصـر ـ « وخرج الأذفنش ـ لعنه الله ـ إلى قاصية الروم مستنفراً من أجابه من عظمـاء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمـة من الجـزيرة نفسها ومن ألمان ، حتى بلغ

نفيره القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنونى لعنه الله ! » .

خرج أذفونش من طليطلة ، واستولى فى طريقه على قلعة رباح ، وارتد قائدها الأندلسى ابن قادس ليلحق بسيده الناصر ، حيث كان مصيره القتل .

كان لقتل ابن قادس أثره السئ فى الأندلسيين الذين كانوا يشكلون ميمنة المسلمين ، وكانوا أعرف من سائر المسلمين بغير المسلمين .

تحرك الناصر بجيشه الكبير الذى ربما وصل عدده إلى المائتى ألف من إشبيلية فى اتجاه جيان ، وعسكر فى سهل مجاور لها تكتنفه تلال صخرية (عقاب) ، ويعرف هذا السهل بالعقاب ، وقربه قرية تدعى تولوسا ، لذا دعيت المعركة عند الإسبان Las Navas de Tolosa .

صباح الاثنين ١٥من صفر ٦٠٩/١٦ من يوليو ١٢١٢م بدأت معركة العقاب بهجوم شنه النصارى على مقدمة جيش المسلمين ، وقد ثبت لهم هؤلاء ، ثم ارتدوا بعد أن فشا القتل فيهم ، لكن النصارى لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى قلب الجيش ، وفى الوقت نفسه فإن ميمنة المسلمين وميسرتهم ردتا جناحى الجيش النصرانى ، وبدأ النصارى فى الفرار ، ولاح أن النصر فى جانب المسلمين .

عندما شاهد أذفونش جنوده يفرون ، اندفع بنفسه ومعه قواته الإحتياطية ، ليقاتل قتال اليائس ، فانتظمت صفوف النصارى ، وركزوا فى هجومهم على القلب ، واندفعوا ناحية الحرس الخليفى ، وحمى وطيس القتال ، ورغماً عن صمود الخليفة وشجاعته ، ورغماً عن تفانى حرسه الأسود فى الدفاع عنه ، إلا إنه لم يجد مندوحةً من الفرار إلى جيان ، بينما فلول جيشه تفر إلى كل ناحية،

وأخذ النصارى يمعنون القتل فيهم ، إذ كان شعارهم أن لا أسرى ، وقبل أن تغيب شمس هذا اليوم كانت المعركة قد حسمت نهائيًا لصالح النصارى .

كانت الهزيمة شديدةَ الوقع على المسلمين ، فعشرات الآلاف هلكوا فى العقاب ، يؤيد ذلك ما يذكره مؤرخ عاش فى فترة قريبة من زمانها ، فيقول إن الإنسان كان يتجول فى بلاد المغرب بعد المعركة ، فلا يجد شابًا واحدًا قادرًا على القتال ، وكانت صدمةُ الناصر شديدةً لهزيمة لم يتوقعها ، ووافاه أجله بعدها بشهور .

يقول شاعر أندلسى عاصر هذه الهزيمة :

وقائلةً أراك تطيل فكرًا ... كأنك قد وقفت لدى الحسابِ

فقلت لها أفكر فى عقاب ... غدا سببًا لمعركة العقاب

فما فى الأرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب

كان لمعركة العقاب أثرها السلبى المباشر فى بلاد المغرب والأندلس معًا ، ففى المغرب ، انقسم الموحدون على أنفسهم ، وكثر عدد المطالبين بالخلافة منهم ، وتحاربوا بعضهم ضد بعض ، واستغرقت هذه العملية سنوات طويلة ، أفضت فى النهاية إلى سقوط الدولة الموحدية فى سنة ٦٦٨ / ١٢٦٩ ، وقامت على أنقاضها دول ، أهمها دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى ، ودولة بنى حفص فى إفريقية .

أما عن الأندلس ، فإن النصارى لم يتوانوا فى استثمار الفرصة التى واتتهم بهزيمة المسلمين المروعة فى العقاب ، ثم شغل الموحدين بنزاعاتهم الداخلية ، وأخذت العواصم والمدن الأندلسية تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى أيدى النصارى ، وكانت قمة المأساة دخول فرذلند الثالث ملك

قشتالة (١٢١٧/١٢٥٢م) الملقب - بعد - بالقديس قرطبة فى ٢٢ من شوال ٦٣٣/ ٢٩ من يونيو ١٢٣٦ .

كانت المأساة رهيبةً ، لأن النصارى دخلوا غالب هذه المدن بالأمان وغالبًا ما نقضوه ، أو إنهم رفضوا أمانها بعد أن ألحت فيه ، وترتب على ذلك هلاك عشرات الآلاف من المسلمين وتهديم دورهم ومساجدهم وتحويلها كنائس وسبيهم ، وملأ النصارى بلادهم وما وراء بلادهم بنسائهم وأولادهم « فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة » كما يقول عبد الواحد .

تنتمى إلى هذه المرحلة المحزنة من تاريخ الأندلس رائعة ابن الأبّار التى يخاطب فيها سلطان تونس الحفصى وأولها :

أنجد بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وكذا رائعة الرُّندى (ت ٦٨٤هـ) وأولها :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسانُ

الفصل الرابع عشر
مملكة غرناطة والموريسكيون(*)

أ - مملكة غرناطة :

كانت مهمة التصدى للزحف النصرانى - وقد تخلى الموحدون عن الأندلس - من شأن أهل الأندلس أنفسهم ، وبرز على الساحة زعيمان عربيان هما محمد بن يوسف بن هود الجُذامى الملقب بالمتوكل ، ومحمد بن يوسف ابن نصر الأنصارى الملقب بالشيخ ، ولم يمهل القدر أولهما سوى سنوات قليلة ، ثم انتهت حياته بأن اغتاله بعض أصحابه فى سنة ١٢٣٦/٦٣٣ ، أما الآخر ويعرف أيضًا بابن الأحمر ، ويرتفع نسبه إلى سعد بن عُبادة رضى الله عنه ، فإنه جعل معقله مدينة غرناطة التى دخلها فى سنة ١٢٣٨/٦٣٥ وحصنها ، وأتته أجناد من أنحاء الأندلس ، وامتدت سيطرته إلى مدن مجاورة ، وبعد سقوط قرطبة دخل فى ولاء ملك قشتالة ، وصار فى جملة أتباعه يؤدى جزيةً سنويةً قدرها مائة وخمسون ألف قطعة ذهبية ، ويشهد اجتماع الكورتيس Cortes (البرلمان) ويسلّم بعض المدن والمواقع على حدود دولته ومنها جيان ، وعلى ذلك أعان ابن الأحمر سيده القشتالى فى الاستيلاء على إشبيلية وغيرها من قواعد الغرب فى سنة ١٢٤٨/٦٤٦ .

وإذا كان ابن الأحمر قد عدل أحيانًا عن مصانعة النصارى ، وتحالف مع بنى مرين خلفاء الموحدين فى المغرب الأقصى ، فإنه عاود مرة أخرى مصانعتهم

(*) معتمدنا الأساسى فى كتابة هذا الفصل على المؤرخ الكبير الراحل محمد عبد الله عنان فى كتابه الهام « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وهو العصر الرابع من موسوعته الكبيرة « دولة الإسلام فى الأندلس » .

وتنازل عن مزيد من الأراضى فى غربى الأندلس ومنها شريش .

انصرف ابن الأحمر فى سنوات عمره الأخيرة إلى تنظيم مملكته الصغيرة ، وكانت قد اكتظت بسكانها الذين هاجروا بعضهم إليها من القواعد الأندلسية الذاهبة ، ومات فى سنة ١٢٧٢/٦٧١ .

كانت مملكة غرناطة تقع إلى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة ، وراء نهر الوادى الكبير ، وتخترقها جبال الثلج Sierra Nevada الشاهقة ، وهضاب البُشَرَّات Alpujarras الوعرة ، كما تخترقها عدة أنهار ، أهمها نهر شَنيل Jenîl وهو فرع الوادى الكبير . وتهيأت لها موارد طبيعية مناسبة ، أعانت على ازدهارها ، فتوافد إليها مهاجرون مسلمون من مدن أندلسية أخرى ، وعاشت فيها - ربما - أقلية نصرانية من المستعربين ، إلى جانب عدد من اليهود. ومع صغر حجم هذه المملكة ، إلا أنها كانت تضم زهاء مليونين ، يتباهى عامتهم بأصولهم العربية ، وإن كان فى هذه المباهاة قدر كبير من المبالغة، أما الأجناد فالكثرة الظاهرة فيهم كانوا من البربر ، وخاصة بنى مرين .

أما العاصمة وهى غرناطة ، فكانت فيما سلف من عصور من أعمال كورة إلبيرة ، نزلها جند دمشق إبان حركة الاستقرار العربى بعد الفتح ، وفى مرحلة سقوط الخلافة الأموية خربت مدينة إلبيرة ، وأضحت غرناطة قاعدة الكورة ، ولم يلبث أن غلب اسمها على الكورة ذاتها .

وغرناطة مدينة أزلية ، يذهب البعض إلى أن اسمها مشتق من الكلمة اللاتينية Granata وتعنى رمانة ، وذلك لكثرة حدائق الرمان بها ، وتقع فى واد عميق ، يمتد من جبال الثلج ، ويحدها من الجنوب نهر شنيل ، ويخترقها فرعه المسمى حَدَرُّه El - Darro ، وتشرف المدينة من جنوبها الغربى على المرج أو الفحص الشهير La Vega الذى يمتد غرباً حتى مدينة لَوْشة Loja . ويذكر

ابن الخطيب (١٣٧٤/٧٧٦) أن أحوازها كانت تضم ثلاثمائة قرية يقطن بها الألوف ، ويعنى ذلك أن سكانها ربما وصل عددهم إلى النصف المليون .

فى شرقى المدينة تقع الحمراء Alhambra وهى دار الملك ، وأبرز ما تبقى من معالم غرناطة الإسلامية ، وإلى شماليها يقع حى البيازين (أو البياسين) Albaicín ، وعلى مقربة من الحمراء يقع قصر جنة العريف El Generalife ، وكان مصيفاً أو متنزهاً لسلاطين غرناطة .

كانت مملكة غرناطة هى رابعة القوى السياسية فى شبه الجزيرة الإسبانية بعد ممالك قشتالة وأرغونة والبرتغال ، (تليها مملكة نبرة) ، وشغلت مساحة تقدر بعشر مساحة البلاد ، ورغماً عن إنها كانت أضعف هذه الممالك ، إلا إنها عاشت عمراً مديداً (١٢٣٨/٦٣٥ ـ ١٤٩٢/٨٩٧) . والسبب الحقيقى لامتداد عمر هذه المملكة كان يكمن فى النزاعات بين الممالك النصرانية الثلاث ، وفى النزاعات داخل المملكة الأساسية قشتالة ، وكانت غرناطة تتدخل أحياناً فى هذه النزاعات ، وتناصر فريقاً ضد فريق آخر .

تحددت سياسة مملكة غرناطة فى مصانعة مملكة أرغونة ، وهى المنافس الرئيسى لمملكة قشتالة ، كما تحددت أيضاً فى التحالف مع بنى مرين سلاطين المغرب الأقصى ، واحتكرت أسرتهم مشيخة الغزاة ، زهاء قرن من الزمان ، لكنها كانت تنزع أحياناً إلى التخلى عنهم ، ومصانعة مملكة قشتالة ، عندما تستبد بها المخاوف منهم .

خلال المائة العام الأولى من تاريخ مملكة غرناطة تبادلت ومملكة قشتالة النصر والهزيمة ، وفى سنة ٦٧٤ / ١٢٧٥ استطاع المسلمون المتحدون ، ـ غرناطيين ومرينيين ـ يقودهم أبو يوسف يعقوب أن يحرزوا نصراً كبيراً على أعدائهم فى وقعة قرب مدينة إستجه ، وقتل الدون نونيودى لارا Don Nuño

González de Lara المعـروف عنه المسلمين بذُنونة ومـعـه عـدة آلاف من أصحابه، جمعت رءوسهم ، وأذن عليها للصلاة ، وقد أعادت هذه المعركة ذكريات معركتى الزلاقة والأرك .

جدير بالذكر أن أبا يوسف يعقوب (١٢٦٩/٦٦٨ ـ ٦٨٥ / ١٢٨٥) عبر إلى الأندلس ثلاث مـــرات بعـــد ذلك (١٢٧٨/٦٧٧ ـ ١٢٨٢/٦٨١ ، ١٢٨٥/٦٨٤) وأحرز انتصارات مشابهة ، بل إن أذفونش العاشر ملك قشتالة المعروف بالعالم El Sabio (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤م) طلب عونه ضد بعض ولده ، واستـقـرت فى مملكة غـرناطة قـوة من بنى مـرين تلقب قـائدها بشـيخ الغـزاة ، ونهضت هذه القوة بدور كبير فى حفظ هذه المملكة والدفاع عنها .

على أن القشتاليين عاودوا الكرة بعد سنوات ، وسقطت فى أيديهم جزيرة طريف فى سنة ٦٩١ / ١٢٩٢مثم جبل طارق فى سنة ١٣٠٩/٧٠٩ ، وتطلعوا إلى الاستيـلاء على غرناطة نفسـها فى سنة ١٣١٨/٧١٨ ، إلا أن المسلمين تمكنوا من هزيمتـهـم ، وقـتلوا دون بطره Don Pedro الوصى على أذفـونش الحادى عـشر (١٣١٢ ـ ١٣٥٠م) وتبع ذلك غزوات إسلامـيـة أسـفـرت عن استرداد الغرناطيين لجبل طارق فى سنة ١٣٣٣/٧٣٣ ، وكان لعون بنى مرين وسلطانهم أبى الحسن أكبر الأثر فى تحقيق هذا النصر .

كان وقع الهزيمة كبيراً على القشتاليين ، فعاود ملكهم العيث فى أراضى مملكة غرناطة ، ووافته أمداد من البرتغال وأرغونة ، وهرع أبو الحجاج يوسف سلطان غـرناطة (١٣٣٣/٧٣٣ ـ ١٣٥٤/٧٥٥) يطلب عـون أبى الحـسن سلطان المغرب ، فعبر بنفسه إلى الأندلس فى سنة ١٣٤٠/٧٤١ صحبة جيش كبير ، لكن المسلمين المتحدين ـ أندلسيين ومغاربة ـ أصيبوا بهزيمة كبيرة عند

نهر سالادو El Río Salado فى الواقعة المعروفة بوقعة طريف، هى أكبر هزائمهم منذ العقاب .

ترتب على هذه الهزيمة أن سقطت الجزيرة الخضراء فى سنة ١٣٤٤/٧٤٤ فى أيدى القشتاليين ، مما أهم أذفونش فى سنة ١٣٤٩/٧٥٠ للاستيلاء على جبل طارق ، فيقطع طريق المواصلات بين العدوتين ، وحاصره عامًا كاملاً ، بحيث كاد يسقط فى يديه ، لولا أن فشا الوباء الكبير (الموت الأسود) فى معسكره ، وهلك الملك نفسه ، واضطر القشتاليون إلى رفع الحصار .

وصلت مملكة غرناطة إلى ذروة مجدها فى النصف الأخير من القرن الثامن/ الرابع عشر ، وسادت حال من الاستقرار على حدودها ، بل إن غرناطة أفادت من الحرب الأهلية داخل قشتالة ، فوقف المسلمون مع بطرُه (بدرو القاسى) ملكها (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩م) ضد أخيه إنريك ، وشارك ابن خلدون فى هذه الاتصالات مبعوثًا من سلطان غرناطة ، وانتهز محمد الغنى بالله (١٣٥٤/٧٥٥ ـ ١٣٩١/٧٩٣) هذه الفرصة وزحف بجيشه فى سنة ١٣٦٧/٧٦٨ فعاث فى أحواز إشبيلية وهى عاصمة قشتالة ، واقتحم مدينة جيان، وإن لم يضمها إلى ملكه لصعوبة الدفاع عنها ، واسترد فى العام التالى الجزيرة الخضراء ، واحتفظ بها عشر سنوات ، ثم أعادها إلى النصارى بعد ما هدم ما بها من دفاعات .

امتدت فترة الهدوء هذه على نحو أو آخر حتى أواسط القرن التاسع / الخامس عشر ، ثم سقط جبل طارق للمرة الثانية والأخيرة فى سنة ١٤٦٢/٨٦٧ .

خلال عصر مملكة غرناطة استمر عطاء الأندلسيين الحضارى يتدفق ، كما

كانت الحال قبل ذلك ، على أن هذا العطاء فى معظمه تحدد فى فن العمارة ، لولع الأندلسيين بإبتناء القصور والمساجد والمدارس والقلاع وأبرزها جميعاً قصور الحمراء ، كما تحدد فى الأدب وخاصة الشعر ، ولا نشاهد آثاراً واضحة فى العلوم العقلية والطب .

وأشهر شعراء غرناطة فى الصدر الأول هو أبو الطيب صالح بن شريف الرندى (ت٦٨٤هـ) ويعرف بخاتمة أدباء الأندلس ، وذاع صيت قصيدته النونية فى عصره وما تلاه من عصور . وينتمى إلى هذه المرحلة أيضاً أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت٧٠٨ / ١٣٠٨) وقد خلف كتاب « صلة الصلة» الذى ألفه ذيلاً على كتاب « الصلة » لابن بشكوال (ت١١٨٢/٥٧٨) .

بلغت الحركة الفكرية ذروتها فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى أى فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف بن إسماعيل ، وعهد ولده محمد الغنى بالله . وفى هذه المرحلة ، صعد نجم لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب السلمانى (ت ١٣٧٤/٧٧٦) الذى كان وزيراً وكاتباً لثلاثة من سلاطين غرناطة ، كما كان صديقاً للمفكر الكبير عبد الرحمن بن خلدون ، وتقلبت حياته بين سعود ونحوس ، إلى إن حبس ثم قتل بتهمة الزندقة ، وأحرقت جثته ودفن قرب فاس فى بلاد المغرب .

ويعد ابن الخطيب واحداً من الشخصيات الكبيرة فى الفكر الأندلسى ، وكان كاتباً وشاعراً مؤرخاً وطبيباً وفيلسوفاً ، واشتهر من كتبه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » و « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » و « أعمال الأعلام » .

كان من عمد هذه النهضة كذلك أبو طالب عبد الله بن زَمْرَك (ت١٣٩٥/٧٩٧) وهو شاعر وكاتب كان تلميذاً لابن الخطيب ، ثم صار

أكبر الساعين فى نكبته ولقى ـ بعد ـ مصيراً كمصير أستاذه .

ومن هؤلاء برهان الدين إبراهيم بن فرحون اليعمُرى (ت٧٩٩/ ١٣٩٧) وهو فقيه ومؤرخ ، وأهم كتبه « الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب » وهو تراجم للمالكية ، وكذا أبو الحسن على بن عبد الله النُباهى (ت أواخر القرن الثامن) وله تاريخ القضاء المعروف « بالمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) » .

وآخر الشخصيات الكبيرة فى الفكر الأندلسى هو أبو بكر محمد بن عاصم القيسى (ت٨٣٩/١٤٣٦) ، وقد برع فى النحو والمنطق والبيان والفقه ، وولى قضاء الجماعة ، كما ولى الوزارة ، وكان شاعراً يعرف بابن الخطيب الثانى ، وأهم كتبه « حدائق الأزهار » .

فى النصف الأخير من القرن التاسع / الخامس عشر ضعفت الحركة الفكرية فى مملكة غرناطة ، خصوصًا بعد أن بدا فى الأفق نذير سقوطها ، فهجرها العديد من أبنائها المتميزين ، وغادروها إلى بلاد المغرب ومصر والشام ، ولم يعودوا إليها بعد مغادراتهم لها .

خلال هذه المرحلة ضعف أمر مملكة غرناطة ، بسبب النزاع على العرش داخلها ثم افتقادها الظهير المغربى بضعف دولة بنى مرين ، ثم ذهابها فى سنة ١٤٦٤/٨٦٩ ، ولم يكن خلفاؤها من بنى وطاس من القوة ، بحيث يستطيعون عون مملكة غرناطة . على أن الأهم من هذا كله ما جرى من تطورات فى إسبانيا النصرانية ، ففى سنة ١٤٧٤/٨٧٩ مات إنريكى الرابع ملك قشتالة ، وخلفته أخته إيسابيل Isabel (١٤٧٤ ـ ١٥٠٣) وكانت متزوجة من الأمير فرناندو الأرغونى (١٤٧٩ ـ ١٥١٦) وفى سنة ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أرغونة ، ثم اتحدت المملكتان الإسبانيتان ليبدأ عصر جديد فى تاريخ إسبانيا .

فى هذا الإبان كانت الحرب الأهلية قد دبت فى مملكة غرناطة بين سطانها أبى الحسن على الملقب بالغالب بالله (١٤٦٢/٨٦٧ - ١٤٨٥/٨٩٠) وبين أخيه أبى عبد الله محمد الملقب - بالزَغَل - (أى الباسل) وانقسمت المملكة بين الأخوين ، فاختص أبو الحسن بغرناطة ، واختص الزغل بمالقة .

بيد أن السلطان أبا الحسن اتجه إلى حرمان ولده أبى عبد الله محمد من وراثته لصالح ولد له من جارية إسبانية الأصل تدعى ثريا ، وثار أبو عبد الله على أبيه بدعم من أمه الحرة عائشة ، وانتهزت القشتاليون الفرصة ، واستولوا على بعض أطراف المملكة ، واشتعلت الثورة فى غرناطة ، وفر السلطان إلى مالقة ، حيث يقيم أخوه الزغل ، وجلس أبو عبد الله مكان أبيه فى سنة ٨٨٧ / ١٤٨٢ .

استطاع الزغل أن ينقذ مالقة ، حين هاجمها القشتاليون فى سنة ١٤٨٣/٨٨٨ ، ونهج ابن أخيه النهج نفسه ، بل إنه غزا قشتالة ، لكنه أخفق فى غزوته وهزم وأسر ، واستدعى أهل غرناطة أباه ، ليعاود الحكم ، لكنه كان قد طعن فى السن ، فتنازل عن العرش لأخيه الزغل ، ومات فى سنة ١٤٨٥/٨٩٠ .

أطلق القشتاليون سراح أبى عبد الله ، مقابل الطاعة وأداء الجزية ، وتسليم عدد من المدن والحصون ، وعاودت الحرب الأهلية سيرتها بينه وبين عمه الزغل، وانقسمت المملكة فصارت غرناطة وأعمالها لأبى عبد الله ، وصارت وادى آش Guadix وأعمالها للزغل .

أفاد القشتاليون من هذه الفرصة فاستولوا على لوشة ، ثم زحفوا إلى مالقة ، ولم يستطع الزغل فى مستقره بوادى آش أن ينجدها ، وبعث - على غير طائل

- يطلب العون من إخوانه المسلمين فى فاس والقاهرة واسلامبول ، ولم تلبث مالقة أن سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ١٤٨٧/٨٩٢ وأتبعوها بالمُنَكّب Almuñecar وبَسْطَة Baza ولم يتبق سوى وادى آش ، فلم يجد الزغل بداً من الاستسلام والرحيل إلى المغرب ، وبرحيله دخل النصارى وادى آش ودخلوا بعدها ألمرية .

ظهر فى مملكة غرناطة فى عهدها الأخير تيار قوى ينحو نحو طلب العون من السلطنة المملوكية بالقاهرة ، والسلطنة العثمانية بإسلامبول ، وقد تكرر هذا الطلب عدة مرات ، ولم تجاوز الإستجابة حد القول إلى الفعل .

بعد أن تخلص الملكان الكاثوليكيان من خصمهما الزغل ، لم يتبق لديهما سوى مدينة غرناطة وأحوازها ، وكان يدافع عنها عشرون ألفًا من المقاتلة يواجهون ما بين خمسين ألفًا إلى ثمانين ألفا من أعدائهم مزودين بالمدافع وآلات الحصار .

شرع فرناندو بدوره فى تخريب حقول البشرات وفحص غرناطة ، لمنع الأقوات عن المدينة ، وبنى ازاءها مدينة دعتها إيسابيل شَنْتَفَى Santa fé أى « الإيمان المقدس » ، ومنعت سفن النصارى الأمداد الواردة من المغرب .

بدأ حصار غرناطة فى ١٢ من جمادى الثانية ٢٣/٨٩٦ من إبريل ١٤٩١ وطال عدة شهور ، ولم يعد لدى المسلمين جلد على مجاهدته ، وعرض النصارى معاهدةً تضم ستًا وخمسين مادةً ، وصل إلينا نصها العربى ، كما وصل إلينا نصها القشتالى ، والروح العامة لهذه الوثيقة طيبة ، فهى تنص على بقاء المسلمين على حالهم التى كانوا عليها ، وسمح لهم بحرياتهم الدينية كاملةً وألا يؤدوا من الأموال ، إلا ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم ، وأن يسيروا

وفق شرائعهم ، وسمح لمن أراد بالعبور إلى المغرب بأولاده وأمواله ، وذيلت المعاهدة بأن الملكين الكاثوليكيين يؤكدان هذا العهد ، ويضمنانه بدينهما وشرفهما الملكى .

لما عرض هذا الإتفاق على أهل غرناطة استقبلوه بوجوم ، على أن المعارضة التى كان يتزعمها موسى بن أبى الغسان ـ وقد استشهد فيما بعد ـ كانت محدودةً . وفى ٢ من ربيع الأول ٨٩٧/ ٢ من يناير ١٤٩٢ دخل الملكان الكاثوليكيان المدينة ، ونصب صليب فضى كبير على برج الحراسة Torre de la Vela ، وهو أعلى الأبراج بقصر الحمراء ، ورفعت إلى جواره راية القديس يعقوب وراية قشتالة ، وانطلق الرهبان يرددون « الحمد لله » Te Deum Laudamus .

غادر أبو عبد الله وأمه الحرة عائشة مدينته إلى البشرات ، ولدى أحد آكامها نظر إلى غرناطة ، وأجهش بالبكاء ، فقالت له أمه : « أجل فلتبك كالنساء ملكًا ، لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » ، وقد دعيت هذه الأكمة فيما بعد بزفرة المسلم الأخيرة El Último Suspiro del Moro .

استقر أبو عبد الله ـ الذى دعاه الإسبان بـ Boabdil والملك الصغير El-Rey Chico ـ استقر بقرية أُنْدَرْش Andarax وكان فرناندو قد أقطعها له ، ولم يتهيأ المقام بها سوى عام ويضع العام ، ثم عبر إلى المغرب ، فقصد مليلة ثم فاس ، حيث عاش إلى أن مات فى سنة ١٥٣٤/٩٤٠ ، وقد تدهورت الحال بولده بعده ، وصاروا فى زمن المقرى (ت١٦٣٢/١٠٤١) أى بعد مائة عام أو نحوها ، يعيشون على أموال الصدقات .

2 - الموريسكيون :

معلوماتنا عن حال المسلمين فى المصادر العربية بعد سقوط غرناطة قليلة ، ولا يتوافر لدينا سوى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى يعود إلى سنة ١٥٤٠/٩٤٧ ، أى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، وهو كتاب صغير ، ينسب إلى كاتب مجهول من أشراف غرناطة ، أرغم على التنصر ، ثم هرب إلى المغرب ، ولدينا أيضًا إشارات فى كتاب المقرى « أزهار الرياض » .

والسبب فى عدم توافر المصادر العربية ، هو خمود الحركة الفكرية فى العصر الغرناطى الأخير ، فضلاً عن دثور الكتب التى تعود إلى هذا العصر وما تلاه ، نتيجة للسياسة الإسبانية ، وخاصةً الكنسية منها تجاه المسلمين .

فى أعقاب تسليم غرناطة ، ظهر تيار بين المسلمين ، يتوجس من غد غير مأمون ، فشرع بعضهم فى بيع أراضيه وعقاراته ، والرحيل إلى المغرب ، وقد ارتحل برحيل أبى عبد الله ألف وثلاثمائة مسلم ، استقر معظمهم فى تطوان .

كانت السياسة الإسبانية مترددةً تجاه المسلمين ، فكانت الدولة ترى فيهم وكانوا يشكلون نحو عشرين فى المائة من سكانها ، أكثر هؤلاء السكان نشاطًا وأوفرهم حضارة ، فى حين أن الكنيسة كانت تراهم كفاراً ، يجب تنصيرهم وإلا فالقتل أو الاسترقاق أو النفى .

إنصاعت الدولة لتحريض الكنيسة بعد سبع سنوات فقط ، ففى سنة ١٤٩٩/٩٠٤ استدعى الملك فرناندو الكردينال خمينيث دى ثيسنيروس Fran-cisco Jimenéz de Cisneros مطران طليطلة (ت١٥١٧م) إلى غرناطة، فبدأ بأن جمع فقهاء المدينة وأعيانها وأغدق عليهم ، واستطاع بالحسنى أن ينصر

بعضهم ، ثم صعد إجراءات التنصير ، فأمر بتحويل المساجد إلى كنائس ، وجمع كتب المسلمين ، وكانت تعد بالألوف ، وأضرم فيها النار ، ولم يستثن سوى ثلاثمائة كتاب فى الطب والعلوم ، أرسلها إلى الجامعة الناشئة فى قلعة عبد السلام Alcalá de Henares .

أسفرت هذه السياسة عن ظهور من يعرفون بالموريسكيين Moriscos ، وهى صيغة تصغير أو تحقير من موروس Moros أى مسلمون ، وصارت تعنى من الناحية العملية النصارى الجدد Cristianos Nuevos أو المسلمين المنصرين Moros Cristianados ، سواء كانوا من مواطنى مملكة غرناطة القديمة ، أو المدجنين Mudéjares[1] فى سائر أنحاء إسبانيا .

عندما أدرك المسلمون خطورة هذه السياسة ، أرسلوا إلى السلطان الغورى (٩٠٦/١٥٠١ ـ ٩٢٢/١٥١٦) بالقاهرة يصفون حالهم ويطلبون عونه ، لكن فرناندو أرسل بدوره إلى السلطان نفسه ، يدعى عكس ما يدعيه هؤلاء ، وعلى أية حال فإن السلطان المملوكى لم يكن ليستطيع لهم شيئًا ، وكذا كانت حال السلطان العثمانى بيازيد (٨٨٦/١٤٨١ ـ ٩١٨/١٥١٢) .

ترتب على ذلك أن ثار المسلمون بربض البيازين (أو البياسين) وامتدت الثورة إلى جبال البشرات ، ومع إن الإسبان قمعوا هذه الثورة بكل عنف ، إلا إنه كان لها أثرها فى اعتدال السياسة الإسبانية على نحو مؤقت ، لكنه فرض على المسلمين أن يقيموا فى أحياء خاصة بهم فى المدن دعيت Morerías ، ويتخذوا علامات معينة ، ولا يحملوا سلاحًا .

---

(١) وهم المسلمون الذين آثروا البقاء فى ديارهم بعد سقوطها فى أيدى الإسبان فى المراحل السابقة لسقوط مملكة غرناطة .

تصاعدت سياسة التنصير مرةً أخرى ، وظلت كذلك حتى وفاة فرناندو فى سنة ١٥١٦م ، والأهم أن نشط ديوان التحقيق بين الموريسكيين .

وديوان التحقيق La Inquisición ، ويعرف بمحاكم التفتيش ، يعود فى نشأته إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان الهدف منه الرقابة على العقيدة النصرانية ، والتحقق من سلامتها بين أتباعها ونقائها ، وعهد به إلى الرهبان ، على أن مهامه تصاعدت فى أواخر القرن الخامس عشر ، وصدر مرسوم بابوى فى سنة ١٤٨٣م بإنشاء مجلس أعلى له Suprema يرأسه محقق عام Inquisitor General ولم يلبث أن اتسع نشاط هذا الديوان ، ليشمل من كانوا يهوداً فى أصولهم ثم شمل المسلمين (المنصرين) ابتداءاً من سنة ١٤٩٩م .

إتبعت فى هذا الديوان وسائل معينة مع الذين كانوا موضع شك فى إيمانهم ، فكان الواحد منهم يحبس فى سجن مظلم ، ويصفد بالأغلال لعدة أيام، ثم يحاكم فإذا اعترف بما نسب إليه ـ ولو كان بريئًا ـ خففت العقوبة ، لكنه لا ينجو من التعذيب ، لأنه ـ من وجهة نظر قضاته ـ لم يعترف بكل ما ارتكبه من آثام ، أما إذا لم يعترف أصلاً فإنه يتعرض إلى تعذيب على نحو أكثر قساوةً ، وكان مبدأ الدفاع مقرراً نظرياً ، لكن المحامى لم يكن ليستطيع أن يطلع على أوراق القضية ، ولا أن يمارس مهامه بحرية ، ولا يلبث أن يحاكم المتهم ، ويصدر الحكم فى معظم الأحوال بالإدانة ، ونادراً ما يطعن فيه أمام المجلس الأعلى ، وفى حال البراءة وهى نادرة كذلك ، فإن المتهم يكون قد تحول إلى حطام .

كانت الأحكام تتراوح بين السجن المؤبد مصحوبًا بالتعذيب والمصادرة ، أو

الإعدام حرقًا ، وكان المحكوم عليهم بالعقوبة الأخيرة يساقون فى موكب يعرف « برسوم الإيمان » Auto de fé ، وكانت جموع الشعب تتسلى بمشاهدة هذه المواكب التى كان فرناندو الكاثوليكى من عشاقها [1].

بعد وفاة فرنادو خلفه حفيده كارلوس الخامس Carlos V(١٥١٩-١٥٥٦) (شارلكان) وكان خضع عدة سنوات لوصاية الكردينال ثيسنيروس ، فأصدر فى سنة ١٥٢٤/٩٣٠ مرسومًا يحتم تنصير المسلمين أو النفى أو الاسترقاق ، كما أمر بإعدام المتنصر الذى يعاود دين آبائه ، وأن يحول ما تبقى من مساجد إلى كنائس .

عاود الموريسكيون الثورة فى بلنسية ومدن غيرها ، وعاود الإسبان قمعها بكل عنف ، وجنح كارلوس إلى الاعتدال فسمح لموريسكيى غرناطة بالاحتفاظ بلغتهم العربية وثيابهم الوطنية ، كما سمح لمن شاء بأن يظل مسلمًا على أن يحمل شارةً زرقاء ، لكنه منعهم من التسمى بأسماء عربية ، وإقامة رسوم المسلمين ، ومنعهم من استخدام الحمامات ومن تغيير محال إقامتهم أو الانتقال إلى الثغور البحرية دون ترخيص منه ، وحظر عليهم حمل السلاح ، وزاد عليهم الضرائب .

فى عهد فيليب الثانى Felipe II (١٥٥٦ - ١٥٩٨) وصلت سياسة التنصير إلى ذروتها ففى ١٩ من جمادى الثانية ٩٧٤ الأول من يناير ١٥٦٧ - وهو ذكرى تسليم غرناطة الذى أضحى عيدًا فى إسبانيا - أصدر الملك مرسومًا يحظر على الموريسكيين حمل أى نوع من أنواع السلاح ، كما يحظر عليهم

---

(١) ظل ديوان التحقيق قائمًا فى إسبانيا حتى سنة ١٨٣٤م ، وكان الفنان الكبير جويا Goya من ضحاياه الأواخر وسلم من النهاية المأساوية المعتادة .

التحدث باللغة العربية ، أو ارتداء الملابس العربية ، أو التسمى بأسماء عربية ، وحظر الحجاب على نسائهم ، وأمر بهدم الحمامات العامة والخاصة ، ومراقبة المورسكيين أيام الجمع والأعياد الإسلامية ، وجعل عقوبة من يخالف هذا المرسوم تصل إلى الإعدام .

ودون جدوى سعى المورسكيون إلى إلغاء هذا المرسوم ،ولما أخفقوا قاموا بثورتهم الكبيرة بجبال البشرات فى رجب من سنة ٩٧٦/ديسمبر من سنة ١٥٦٨ ، وتزعمهم فرج بن فرج ، وينتمى إلى أسرة بنى سراج الغرناطية المشهورة ، وفتكوا بالحاميات الإسبانية ، ثم اجتمعوا على فتى يدعى فرناندودى فالور ، يتصل نسبه ببنى أمية ، وتوجوه ملكاً عليهم باسم « محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة » وصار فرج بن فرج وزيره ، كما صار عمه ابن جوهر قائد جيشه ، وامتدت الثورة إلى سائر مملكة غرناطة القديمة ، وجاوزتها إلى أنحاء أخرى من بلاد الأندلس .

عندما واجهت الدولة هذه الثورة بأقصى درجات العنف ، بعث الثوار فى طلب العون من أمير الجزائر وسلطان مراكش ، وأتاهم عدد من المجاهدين المغاربة والأتراك على أن محمد بن أمية قتله بعض أصحابه ، وولى ابن عمه ديجولوبيث الذى تسمى بمولاى عبد الله محمد ، وصار له جيش عدته عشرة آلاف ،أغار به عدة مرات على فحص غرناطة .

عهد فيليب الثانى إلى أخيه دون خوان Don Juan de Austria بالقيادة فى ولاية غرناطة ، ودارت معارك بين الطرفين استغرقت عامين ، أمر فيليب خلالها بنفى المورسكيين من هذه الولاية إلى داخل البلاد ، حتى يأمن جانبهم، وأغرى هؤلاء الثوار بالأمان ، إلى إن انفرد دون خوان بمولاى عبد

الله، لتنته الثورة فى شوال ٩٧٨/مارس ١٥٧١ .

ترتب على إخفاق الموريسكيين فى ثورتهم ، إلى اقتناعهم بعدم الجدوى من المقاومة ، وأظهروا جميعهم نصرانيتهم ، لكن غالبهم استمروا يسرون إسلامهم ، وهو ما تدلنا عليه سجلات ديوان التحقيق ، فقد بلغ عدد قضايا هؤلاء النصارى الجدد ٢٩١ قضية فى سنة ١٥٩١ ، كما بلغ عدد الذين نفذت فيهم الأحكام فى سنة ١٦٠٤ ثمانية وستين موريسكيًا ، تعرضوا لتعذيب يفوق الوصف قبل أن يساقوا إلى رسوم الإيمان ، على أن بعض الموريسكيين الذين كانوا محل اتهام ، كانوا يلجئون أحيانًا إلى الوساطة والرشوة ، من أجل أن يثبتوا أنهم نصارى مخلصون .

لما كان الموريسكيون قد فقدوا تقريباً لغتهم العربية ، وصاروا فى معظمهم يتحدثون بالقشتالية ، أو القشتالية المختلطة بالعربية ،فإنهم كتبوا هذه اللغة بحروف عربية ، ومن ثم عرفت لغتهم بالألخميادو Aljamiado ، وهى تحريف إسبانى للأعجمية .

وصلت إلينا بعض هذه الكتابات ، وهى توضح أن الموريسكيين حافظوا فى معظمهم على دينهم الإسلامى الحنيف ، فموضوعات الألخميادو موضوعات دينية من نصوص قرآنية وتفسير وحديث وفقه وسيرة إلى جانب الأدب ، ونجد أحد شعرائهم وهو محمد ربدان Rabadán (رمضان؟) ينظم مدائح نبوية .

على أن الموضوعات الدينية فى الألخميادو شابتها أحيانًا أفكار نصرانية ، كما إن بعض الكتاب الموريسكيين تأثروا بالأدب الإسبانى المعاصر لهم ، وأحدهم كان معروفًا بنقده لأعمال لوپى دى ڤيجا Lope de Vaga الشاعر الإسبانى الكبير .

عندما أتيحت الفرصة فيما بعد للموريسكيين للرحيل إلى بلاد المغرب عاود بعضهم الكتابة باللغة العربية ، ومنهم محمد بن عبد الرفيع الحسينى الذى خلف لنا كتاباً عنوانه « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » كتب فى آخره جملاً عن أحوال الموريسكيين قبل النفى وبعده ، ومنهم أيضاً أحمد بن القاسم المعروف بالشهاب الحجرى ، وله كتاب « العزة والرفعة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع » .

بيد أن عدداً من الموريسكيين عبروا عن رفضهم للحال التى هم عليها بالمشاركة فى الغارات ، التى كان يقوم بها بعض المجاهدين الأتراك ، وغيرهم من رعايا السلطنة العثمانية والمغاربة على ثغور إسبانيا الشرقية والجنوبية . وكانت مشاركة هؤلاء الموريسكيين ذات فائدة كبيرة ، بحكم معرفتهم الدقيقة بأحوال إسبانيا وطرقها ومسالكها وكذا لغتها ، مما كان يدفع السلطات الإسبانية إلى نزع سلاح الموريسكيين المقيمين لدى هذه الثغور .

حظيت هذه الغارات فى بعض الأحيان بتأييد من فرنسا ، التى كانت على حال من العداء مع إسبانيا ، كما حظيت فى أحيان أخرى بتأييد الأسرة السعدية الحاكمة فى مراكش .

أشهر هؤلاء المجاهدين هو خير الدين المعروف عند الأوربيين بذى اللحية الحمراء Barbarossa ، وهو مجاهد من أصل يونانى على الأغلب ، أسلم وأخوه عروج ، وصار باشا للجزائر من قبل السلطان العثمانى ، وقام بغارات على شواطئ إسبانيا ، أعانه فيها كثير من المغاربة والموريسكيين . وكانت هذه الغارات تنتهى إلى تحرير أعداد كبيرة من الموريسكيين ، بلغت فى النهاية نحو سبعين ألفاً، كما كانت تنتهى كذلك إلى استرقاق أعداد أخرى كبيرة من الإسبان .

بعد وفاة خير الدين تابع خلفاؤه من باشوات الجزائر وتونس وطرابلس نشاطه الجهادى ، وفى غارة وقعت فى سنة ١٥٧٥ أسر الكاتب الإسبانى الكبير والشاعر ثربانتس Cervantes ، وحمل إلى مدينة الجزائر ، حيث استرق خمسة أعوام إلى أن تم فداؤه .

من الغريب الواقع أن هذه الغارات وقعت خلال القرن السادس عشر ، حين كانت إسبانيا قوة أوربية عظمى ، بل كانت القوة الأوربية العظمى ، تعيش عصرها الذهبى El Siglo de Oro ، وكانت لها امبراطورية واسعة امتدت إلى العالم الجديد ، وضمت بعض ثغور المغرب ومدنه الكبيرة .

نتيجة لهذا التحدى من قبل المسلمين داخل إسبانيا وخارجها ، فإن السياسة الإسبانية فى عهد فيليب الثالث (١٥٩٨ ـ ١٦٢١) بدأت تتجه إلى منحى جديد ، هو التفكير فى نفى الموريسكيين ، خصوصاً بعد أن ثبت عليهم أنهم حرضوا سلطان المغرب فى سنة ١٦٠٧/١٠١٦ على غزو إسبانيا ، وأعلنوه بأنهم يستطيعون أن يعينوه بمائتى ألف مقاتل .

فى ٢٢ من جمادى الثانية ٢٢/١٠١٨ من سبتمبر ١٦٠٩ صدر مرسوم النفى ، وكان له وقع سئ على الموريسكيين ، وجرت محاولات من بعضهم لمقاومته ، لكن هذه المحاولات ذهبت سدىً ، وواجهتها السلطات بعنف غير مسبوق ، واضطرت الغالبية العظمى إلى الرضوخ له ، وإعداد الأهبة للرحيل على مراكب مخصوصة أعدتها الحكومة الإسبانية ، واتجهت الكثرة الغالبة إلى بلاد المغرب ، واتجهت أعداد أقل إلى فرنسا واسلامبول والشام ومصر .

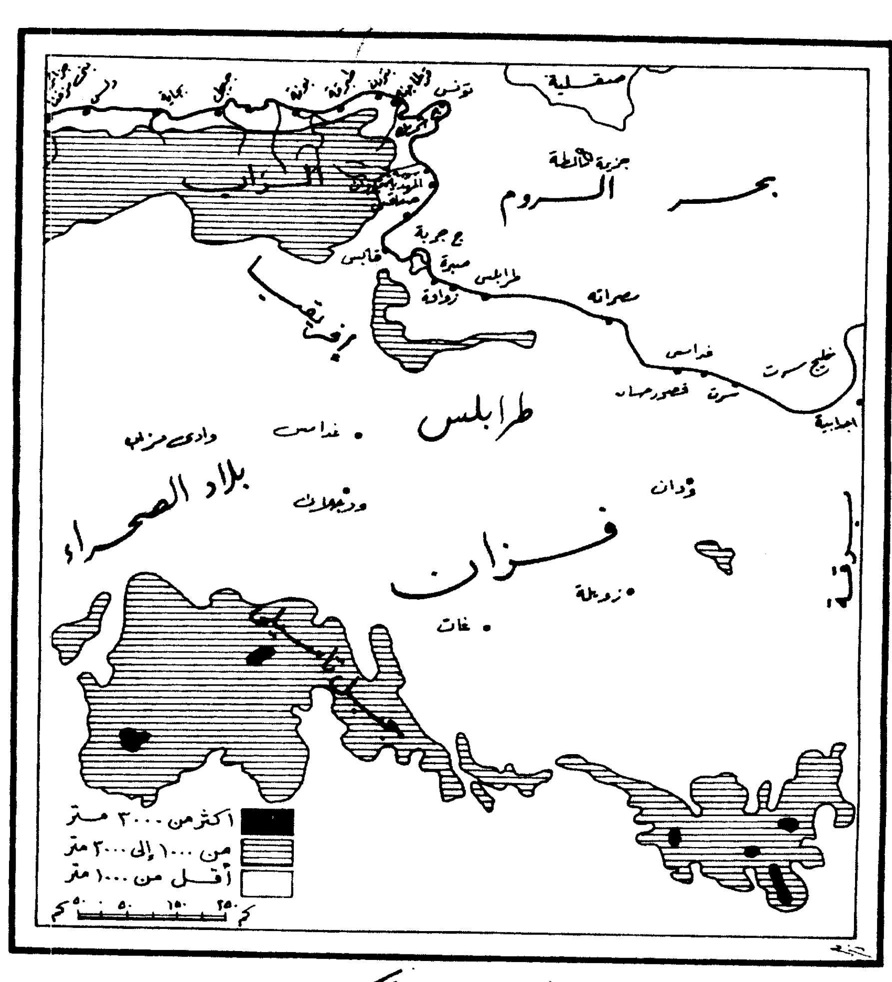
من أسف أن الموريسكيين الذين رحلوا إلى المغرب ، تعرضوا للإعتداء ، من قطاع الطرق المسلمين ، حتى إن معظم من ألقت بهم السفن فى وهران هلكوا لدى مغادرتهم هذا الميناء إلى داخل البلاد ، واضطر العديد من الموريسكيين

للعودة إلى إسبانيا ، بل إن بعضهم قبل الاسترقاق والتنصر فى المقابل .

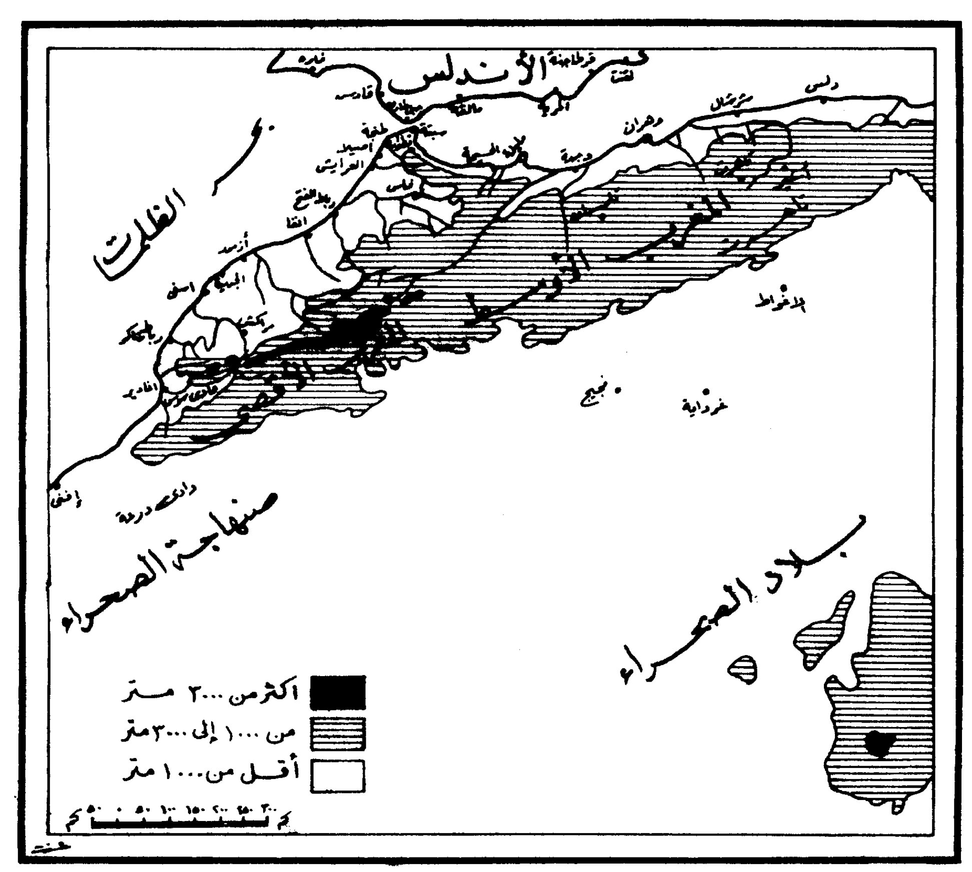
يقـدر عـدد الموريسكيين الذين تم ترحـيلهم بين سنتى ١٦٠٩ و ١٦١٤ بنحو المليون ، وإن كان البعض يقفز بهذا العدد إلى ثلاثة ملايين .

رغماً عن النفى فإن عدة آلاف من الموريسكيين ، ظلوا يقيمون فى إسبانيا على نحو أو آخر ، وهو ما توضحه سجلات ديوان التحقيق فى إسبانيا ، وفى أمريكا أيضًا ، حيث هاجر بعض الموريسكيين . وفى وقت متأخر يعود إلى سنة ١٧٦٩ اكتشف مسجد صغير فى قرطاجنة ، أنشأه بعض هؤلاء ، على أننا لا نسمع عن وجود لهؤلاء المسلمين بعد ذلك ، فإنهم لم يلبثوا أن اندمجوا فى سائر الشعب الإسبانى ، وفقدوا خصائصهم العرقية والدينية جميعاً .

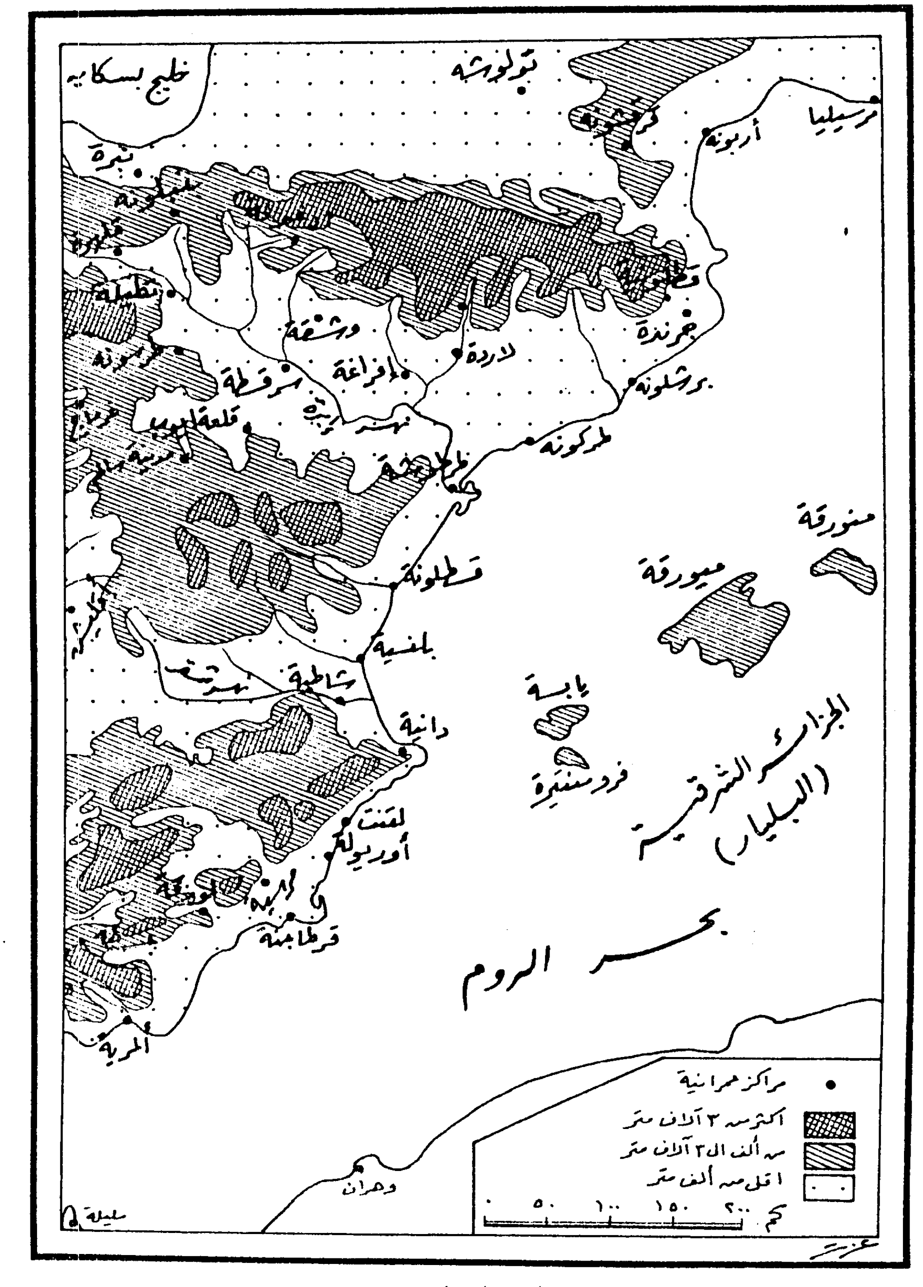
وإذا كان نفى الموريسكيين قد حقق الوحدة الدينية والقومية لإسبانيا ، وهو ما كان يسعى إليه ملوكها والكنيسة ، إلا أن هذا النفى حرمها من أرقى عناصر سكانها وأوفرها نشاطاً وحيوية ، مما كان له أثره مع عوامل أخرى فى إنهيار أحوال إسبانيا على نحو عام ، وترديها خلال القرن السابع عشر الميلادى ، وانتهاء العصر الذهبى فى تاريخها .



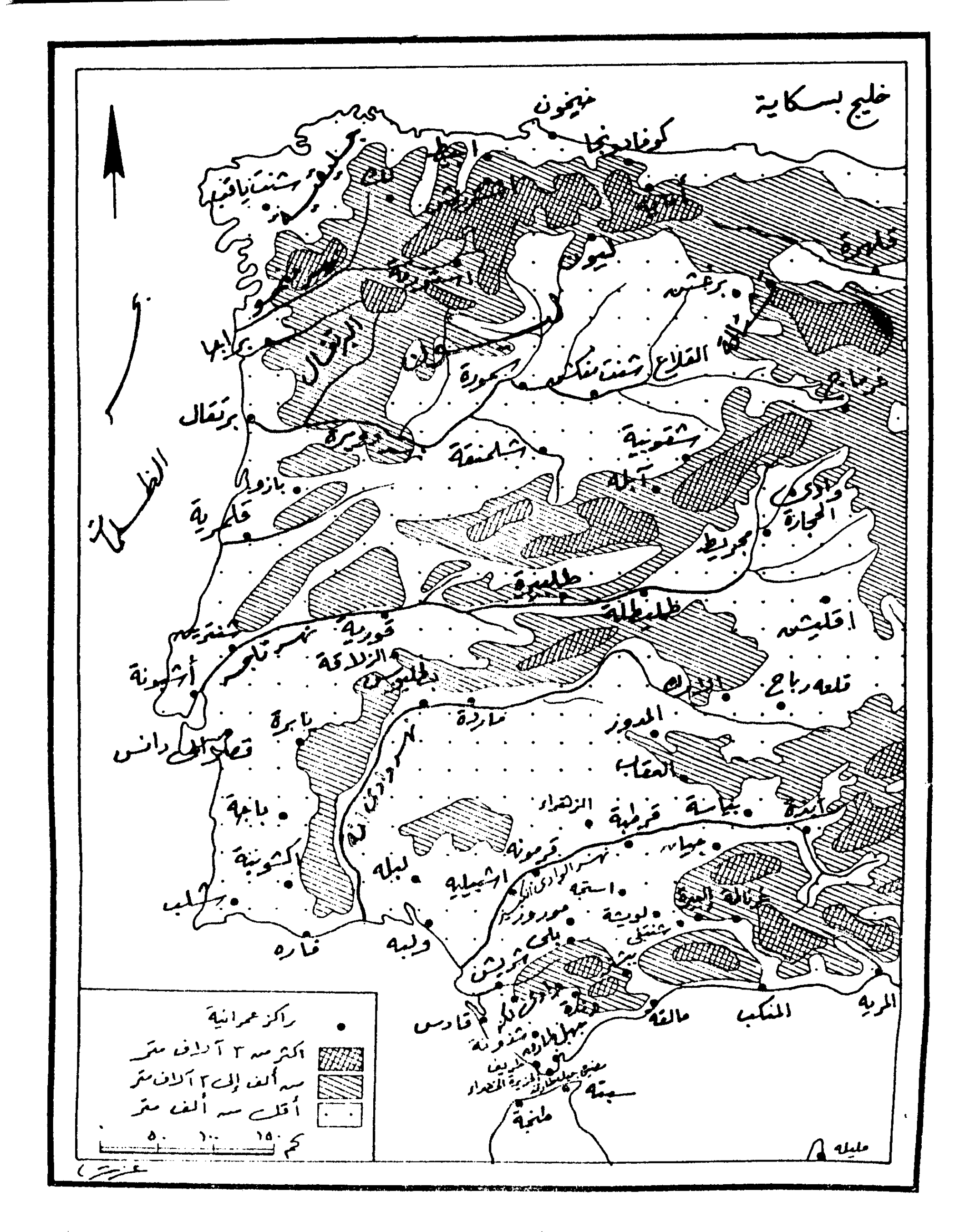
المغرب الكبير



المغرب الكبير


خليج بسكاية
تولوشة
أربونة
مرسيليا
نبرة
بنبلونة
تطيلة
وشقة
لاردة
جرندة
إفراغة
سرقسطة
برشلونة
نهر إبرة
قلعة أيوب
طركونة
طرطوشة
منورقة
ميورقة
قسطلونة
بلنسية
نهر شقر
شاطبة
يابسة
دانية
فرمنتيرة
الجزائر الشرقية
(البليار)
لقنت
أوريولة
قرطاجنة
بحر الروم
المرية
مراكز عمرانية
أكثر من ٣ آلاف متر
من ألف الى ٣ آلاف متر
أقل من ألف متر
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ كم
وهران
مليلة

إسپانيا


خليج بسكاية
المحيط الأطلسي
برتقال
قلمرية
أشبونة
شنترين
قصر أبي دانس
يابرة
باجة
شلب
فاره
ولبه
لبلة
اشبيلية
قرمونة
قرطبة
الزهراء
بياسة
طليطلة
طلبيرة
مجريط
قلعة رباح
وادي الحجارة
أقليشه
شقوبية
آبلة
شلمنقة
سمورة
قورية
الزلاقة
ماردة
المدور
العقاب
مالقة
المنكب
المرية
قادس
طنجة
سبتة
مليلة
ليون
برغش
كوفادونجا
نهر تاجه
نهر الوادي الكبير
نهر وادي آنة
مراكز عمرانية
أكثر من ٣ آلاف متر
من ألف إلى ٢ آلاف متر
أقل من ألف متر
كم
٥٠
١٠٠
١٥٠

إسپانيا

نخبة من المراجع

(أ) مراجع عربية ومترجمة إلى العربية :

البارونى : سليمان باشا بن عبد الله النفوسى (ت١٣٥٩/١٩٤٠) .

١ ـ كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية . تحقيق محمد على الصليبى ، مسقط ١٤٠٧/١٩٨٣ .

جونثالث بالنثيا : أنخل .

٢ ـ تاريخ الفكر الأندلسى . ترجمة حسين مؤنس . القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٥م .

دوزى : رينهرت (ت١٨٨٣م) :

٣ ـ المسلمون فى الأندلس (ثلاثة أجزاء) ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥م .

سالم : السيد عبد العزيز .

٤ ـ تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى . الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢م .

السلاوى : شهاب الدين أبو العباس أحمد الناصرى (ت١٨٩٧م) .

٥ ـ الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (أربعة أجزاء) القاهرة ، بولاق ١٨٩٤م .

الصُمادحى : حسن حسنى عبد الوهاب .

٦ ـ خلاصة تاريخ تونس . تونس ١٣٧٣هـ .

العبادى : أحمد مختار .

٧ ـ دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢م .

٨ ـ في تاريخ المغرب والأندلس . الإسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية . د . ت .

عباس : إحسان .

٩ ـ تاريخ الأدب الأندلسي ؛ عصر سيادة قرطبة ط٤ . بيروت ، دار الثقافة ١٩٧٥ (المكتبة الأندلسية ـ٢) .

١٠ ـ تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ، ط٧ . بيروت ، دار الثقافة ١٩٨٥ .

عبد الحميد : سعد زغلول .

١١ ـ تاريخ المغرب العربي (صدر أربعة أجزاء) الإسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٧٩ ـ ١٩٩٥م .

العَرَوي : عبد الله .

١٢ ـ مجمل تاريخ المغرب (جزءان) . بيروت ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٤م .

عنان : محمد عبد الله (ت١٩٨٦م) .

١٣ ـ دولة الإسلام في الأندلس (أربعة أجزاء) ط٤ . القاهرة ، الخانجي ١٩٦٩ .

كُحيلة : أبو أدهم عُبادة بن عبد الرحمن رضا .

١٤ ـ تاريخ النصارى في الأندلس . القاهرة ، ١٩٩٣م .

ليفي بروفنسال : أ (ت ١٩٥٦م) .

١٥ ـ الإسلام في المغرب والأندلس ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمي . القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٥٦م . (الألف كتاب ـ ٨٩) .

١٦ ـ الحضارة العربية فى إسبانيا . ترجمة الطاهر أحمدمكى . القاهرة دار المعارف ، ١٩٧٩م .

١٧ ـ سلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة . كلية الآداب ، جامعة فاروق الأول ، الإسكندرية ، ١٩٥١م .

مارسيه : جورج .

١٨ ـ بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامى فى العصور الوسطى . ترجمة محمود عبد الصمد هيكل . الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٩١م .

محمود : حسن أحمد .

١٩ ـ قيام دولة المرابطين : القاهرة ، ١٩٥٦م .

مؤنس : حسين (ت١٩٩٦م) .

٢٠ ـ أطلس تاريخ الإسلام . القاهرة ، الزهراء للإعلام العربى ، ١٩٨٦م.

٢١ ـ تاريخ المغرب وحضارته (٣ أجزاء) ط١ . بيروت ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢م .

٢٢ ـ فتح العرب للمغرب . القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٤٧م .

٢٣ ـ فجر الأندلس . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩م .

٢٤ ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس ؛ ط١ . القاهرة ، دار ومطابع المستقبل ١٩٨٠م .

(ب) مراجع إفرنجية

The Cambridge :

1 - Medieval History . Combridge Univ Press, 1931, Reprinted 1936 .

Lévi - Provençal : É (d. 1956) .

2 - Histoire de L'Espagne Musulmane (3 vols) . Nouvelle Édition. Paris - Leiden,E. J, Brill, 1950 .

Livermore : H.V.

3 - The Origins of Spain and Portugal . London, George Allen & Unwin 1971 .

O'Callaghan : Joseph .

4 - A History of Medieval Spain . Cornell Univ Press 1975 .

Simonet : D. Francisco Javier .

5 - Historia de Los Mozárabes de Espãna, Memorias de la Real Academia de Historia. Madrid 1897 - 1903 .

6 - Vallve : Juaquín : El Califato de Córdona . Madrid, 1992 .

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ صقر قريش ؛ عبد الرحمن الداخل . القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٩٦٨ (أعلام العرب ـ٧٦) (نفد) .

٢ ـ عن العرب والبحر . القاهرة ، ١٩٨٩ (نفد) .

٣ ـ أندلسيات . القاهرة ١٩٨٩ (نفد) .

٤ ـ تاريخ النصارى فى الأندلس . القاهرة ، ١٩٩٣ .

٥ ـ الزُّط والأصول الأولى لتاريخ الغجر . القاهرة ، ١٩٩٤ .

٦ ـ الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٥ .

٧ ـ قراءة جديدة فى عهد عمر . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٦ .

٨ ـ العقد الثمين فى تاريخ المسلمين . الكويت ، دار الكتاب الحديث ١٩٩٦ (نفد) .

٩ ـ القطوف الدوانى فى التاريخ الإسبانى . القاهرة ، ١٩٩٨ .

تحت الطبع

١٠ ـ الغجر : تأليف أنجوس فريزر (ترجمة) .

١١ ـ بين كتابة التاريخ وصناعته ؛ دراسات مهداة إلى رؤوف عباس حامد (تحرير) .

AL-MUGHRIB
FĪ TĀRĪJ AL-ANDALUS WA AL-MAGHRIB

(HISTORIA DE ESPAÑA MUSULMANA Y EL NORTE DE AFRICA)

POR

δĀBADA A. R. KOH̲ELA

PROFESOR

FACULTAD DE LETRAS

UNIVERSIDAD DE EL CAIRO

SEGUNDA EDICIÓN

A . H . 1427 – A . D. 2006